الطبعة الشرعية السادسة

أحمد منصور





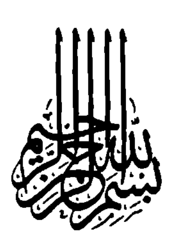
قصة سقوط بغداد

الحقيقة بالوثائق!

دار ابن حزم
للطباعة والنشر والتوزيع

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

قصـة
سقوط بغـداد



قصة
سقوط بغداد

أحمد منصور





الطبعة الأولى ــ بيروت 1424 هـ - 2003 م

الطبعة الثانية ــ القاهرة 1424 هـ - 2003 م

الطبعة الثالثة ــ بيروت 1424 هـ - 2003 م

الطبعة الرابعة ــ القاهرة 1424 هـ - 2003 م

الطبعة الخامسة ــ بيروت 1424 هـ - 2004 م

الطبعة السادسة ــ بيروت 1425 هـ - 2004 م

ISBN 9953-29-998-6



بناية الريم، شارع ساقية الجنزير، عين التينة ص.ب: 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان

هاتف: 785107 - 785108 - 786233 - 811373 (961-1) فاكس: 860138 - 786230 (961-1)

البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb - bachar@asp.com.lb

موقع الدار على شبكة الإنترنت: www.asp.com.lb

دار ابن حزم

للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف وفاكس: 701974 (961-1) هاتف جوّال: 302390 (961-3)

ص.ب: 6366-14 كورنيش المزرعة بيروت – لبنان

البريد الإلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

الإهداء

إلى المرأة العظيمة التى تقف وراء كل إنجازاتى ونجاحاتى

وتعيش حياتها معى دائما على الانتظار . .

انتظار أن أعود حتى تعد لى حقيبة الترحال من جديد . .

إلى زوجتى مها . . أهدى هذه الصفحات . .

أحمد

المحتويات

مقدمـــة الطبعة السادسة 9

مقدمـــة الطبعة الأولى 16

الطريق إلى بغداد 19

العراقيون فى ظل حكم صدام.. 40

بغداد بعد تهديدات بوش.. 45

عقــيدة بــوش 48

الذين وضعوا خطط الحرب.. 51

فاتورة ما قبل الحرب.. 57

"عصابات نيويورك" إسقاط تاريخى على الواقع 61

الموقف التركى من الحرب.. 64

أسواق وتجار الحرب.. 69

حرب من أجل النفط.. 72

باول يرتدى بزة الحرب 75

بغداد.. قبيل السقوط.. 79

قصة سقوط بغداد.. 82

سقوط بغداد بين هولاكو وبوش 1258 – 2003 96
حرب الأكاذيب 99
شهداء الصحافة الحرب الأمريكية على الصحفيين فى بغداد 109
الصـــــورة... حينما فضحت أكاذيب بوش ورجاله 113
قصة استشهاد طارق أيوب.. 116
بغداد.. تحت الاحتلال الأمريكى.. 121
وثائق الدولة تباع على قارعة الطريق.. 125
المقـــــاومة جحيم القوات الأمريكية فى العراق................................ 136
نور الدين الزوبعى.. أسطورة المقاومة فى العراق 149
دعوة بريطانية لمقاومة الاحتلال.. 154
بغداد.. ليلة مقتل عدى وقصى؟... 157
مصير صدام وعائلته ورجاله.. 160
أبعاد الضغوط الأمريكية على سوريا 170
ورطة بوش وبلير بعد سقوط بغداد.. 173
بوش "معتوه مجنون" وبلير "أحمق وأبله"...................................... 178
صناعة الفزع فى نفوس العالم.. 181
قيادة متغطرسة وشعب جاهل.. 184
الهيمنة على العالم دون ثمن 189
سقوط أمريكا فى أوحال العراق... 192
المؤلف فى سطور 205

مقدمة الطبعة السادسة

كـــان من المقرر أن أكتب هذه المقدمة فى منتصف شهر ديسمبر الماضى من العام 2003 لكنى تأخرت فيها ما يقرب من ثلاثة أشهر لأسباب منى وليست من الناشرين، فالكـــتاب الذى صدر فى منتصف أكتوبر من العام الماضى 2003 طبع خلال شهرين ـــ مـــن فضل الله ـــ خمس طبعات طبعتين فى القاهرة وثلاث طبعات فى بيروت ونفذ مـــن كثير من الأسواق فور طرحه فيها، وقد اتصلت بالناشرين وطلبت منهم التوقف عـــن تنفيذ طبعات جديدة حتى أضيف بعض المستجدات والفصول للكتاب وكذلك إعـــادة تصـــحيح الكـــتاب بعدما اشتكى كثير من القراء من كثرة الأخطاء المطبعية، وتأخـــرت كعادتى فى السعى للوصول إلى أفضل ما يمكن حتى إذا اكتمل لدى جانب ممـــا أود إضافته وجدته يصل إلى نصف كتاب جديد، فقررت أن أكتفى بكتابة هذه المقدمـــة التى تأخرت فيها وأخرت طباعة طبعات جديدة طيلة أكثر من شهرين، على أن يكون ما أعددته جزءاً من كتاب جديد أتمنى أن يوفقنى الله لإتمامه ونشره قبل نهاية العام الحالى 2004 غير أنى لن أعلن عن موضوعه أو عنوانه إلا قبيل الانتهاء منه.

أمـــا ما يتعلق بهذا الكتاب "قصة سقوط بغداد" فقد حظى والحمد لله باهتمام كبير مـــن القراء والنقاد والمهتمين، حتى أن معظم الصحف والمجلات العربية من المحيط إلى الخلـــيج قـــد كتبت عنه بل إن صحفا عربية تصدر فى أوروبا والولايات المتحدة أيضا وجدتها قد عرضت الكتاب أو أشارت إليه، حتى أنى أحصيت بعض ما كتب فوجدته قـــد نشـــر فى أكثر من ستين صحيفة ومجلة عربية معروفة، وبعض الصحف تحايلت فنشـــرت معظمه على حلقات تحت عنوان أنها مقتطفات، لكنى سعدت بأن ما فيه قد

وصـــل إلى الناس كما أن بعض الصحف قد وضعته خبرا رئيسيا وعلى صدر الصفحة الأولى مثل صحيفة "الوطن" السعودية التى اعتبرت صدوره فى منتصف أكتوبر الماضى خـــبرا بحد ذاته كما اعتبرت محتوياته متميزة فى كونه يعبر عن تجربة ذاتية للكاتب فى تغطيـــته للأحـــداث ومعايشته لها ، وقد أسعدنى ـــ دون شك ـــ الحجم الكبير من الأهـــتمام الأعلامى والتغطية النقدية للكتاب من كتاب وصحفيين ونقاد بارزين كان مقـــال كل منهم وساما على صدرى أعتز به لا سيما ما كتبه الأستاذ أحمد بهجت فى صحيفة الأهرام على مدى يومين وكذلك الأستاذ صلاح منتصر وعشرات آخرون من الأســـاتذة والزملاء الصحفيون والكتاب والنقاد، وكانت أبرز مظاهر الأهتمام النقدى للكـــتاب تلك الندوة التى دعا لها الأستاذ أسامة سرايا رئيس تحرير مجلة الأهرام العربى ومدير معهد الأهرام الأقليمى للصحافة فى 16 أكتوبر الماضى 2003 فى مقر المعهد فى القاهـــرة وحضرها جمع غفيرمن الزملاء الصحفيين والأكاديميين وأساتذة وطلبة أقسام الأعـــلام فى عدة جامعات مصرية لمناقشة الكتاب واختار لى أربعة ممن يمكن أن يطلق علـــيهم جهابذة النقد والصحافة ليناقشوا الكتاب وهم الدكتور مصطفى علوى وكيل كلـــية الأقتصاد والعلوم السياسية الذى شرح الكتاب إن صح التعبير من خلال رؤية أكاديمـــية نقديـــة مهنـــية عالـــية، و الدكتور محمد السعيد إدريس الباحث فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام الذى ناقش المعالجة بشكل متميز والدكتور أحمد يوسف القرعى مدير تحرير صحيفة الأهرام الذى تناول المحاور الأساسية للكتاب والأستاذ نبيل زكى رئيس تحرير صحيفة الأهالى الذى فصص محتويات الكتاب وقرأها بشكل ناقد رائع، وكانت الندوة بمثابة تشريح ومحاكمة علمية وصحفية للكتاب كما شـــارك فى النقاش جمع من الحضور من أساتذة الجامعات والزملاء الصحفيين، حتى أن كثيرين منهم شبهوا الندوة ألها بمثابة مناقشة رسالة أكاديمية علمية وليس بمجرد كتاب، ومـــن أهـــم الأشياء التى أعجبتنى فى ختام الندوة هو مطالبة كثير من الحضور بأن يتم تعميم هذا الأسلوب للكتب والإصدارات المميزة فى الوقت الذى قل اهتمام الناس فيه بالكتب والكتاب.

كمـــا حظي صدور الكتاب باهتمام وكالات الأنباء العالمية فقد أفردت له "وكالة الأنـــباء الفرنسية"خبرا فى منتصف أكتوبر 2003 أى يوم صدوره الفعلى فى كل من

بيروت والقاهرة، كذلك أفردت له وكالة "قدس برس" للأنباء التى يقع مقرها فى لندن عرضا مطولا نقلته معظم الصحف المشتركة فى الوكالة، هذا الأهتمام الكبير بالكتاب جعل كثيرا من الناس يسعون للبحث عنه والحصول عليه، لكن بقيت إشكاليات النشر والتوزيع فى العالم العربى حائلا دون وصول الكتاب إلى معظم الذين بحثوا عنه رغم حرصى على أن يطبع فى مكانين مختلفين فى آن واحد حتى يسهل الحصول عليه هما القاهرة وبيروت، وقد اجتهد الناشرون فى كلا البلدين أن يقدموا الكتاب فى وقت متزامن وفى طبعات مميزة بالفعل، لكن الواقع العربى البائس فى السياسة انعكس على كل قطاعات ومجالات الحياة ومنها مجال النشر والتوزيع والكتب بشكل عام، فلا يوجد من الدول اهتمام بالثقافة ونشر الكتاب بل هناك إشكالات كبيرة يعانى منها الناشرون من أهمها بالنسبة للناشر فى بيروت إجراءات فسح الكتب فى الدول الأخرى، حيث تستغرق إجراءات فسح الكتاب أى السماح بتوزيعه أربعة أشهر وأحيانا أكثر من ذلك أو أقل مما يعنى أن القارىء سوف يذهب للبحث عن الكتاب مرة أو مرتين ثم يتوقف عن البحث عنه وحينما يطرح الكتاب فى الأسواق بعد السماح بتوزيعه بعدة أسابيع أو عدة أشهر يكون القارىء قد نسى الموضوع، مع خفوت الدعاية أو النقد أو الحديث عن الكتاب، الجانب الآخر هو عدم وجود شركات قوية للتوزيع وإذا وجدت فهى تضع شروطا مجحفة بحق الناشرين، كذلك معاناة الناشرين فى جمع حقوقهم من الموزعين، كما أن إجراءات النشر والتوزيع تأخذ أسابيع طويلة أحيانا حتى أن الكتاب لم يصل إلى الدوحة على سبيل المثال إلا بعد شهرين من صدوره فيما لم يصل إلى الكويت إلا بعد ثلاثة أشهر ودول أخرى كثيرة لم يصلها الكتاب ربما حتى صدور هذه الطبعة السادسة، وأصبحت أواجه مشكلة القراء الذين يصادفوننى فى أسفارى أو يقابلوننى فى الشارع ليقولوا لى: أين نجد الكتاب؟.

النقطة الثانية وأقولها بوضوح رغم أنها سوف تغضب الناشرين ـــ دون شك ـــ هو خوف الناشرين من المغامرة وصناعة تسويق خاص لبعض الكتب، فقد أخبرت الناشرين أن الكتاب سوف يثير ضجة لدى صدوره لاعتبارات كثيرة لا مجال لسردها هنا وأطلعتهم أولا بأول على ما كان ينشر عن الكتاب بل إنهم كانوا مذهولين من أن كل دولة ذهبوا إليها كانوا يجدون عرضا للكتاب فى الصحف، وطلبت منهم عدم

الـــتعامل معه مثل أى كتاب آخر من حيث كمية الطباعة أو أسلوب التوزيع، إلا أن الناشـــرين أصروا على أن يتعاملوا مع الكتاب مثل غيره وقالوا سوف نحكم عليه بعد طـــرح الطبعة الأولى فى الأسواق والتى هى عادة ثلاثة آلاف نسخة ويؤسفنى أن أقول هنا بأن أمة يبلغ عددها ثلاثمائة مليون إنسان نادرا ما يزيد توزيع أى كتاب يطبع فيها عـــن تلك الكمية بل إن بعض الناشرين أقسموا لى بأن بعض الكتب أصبحوا يطبعون مـــنها خمـــس مائة نسخة فقط ويظلون يوزعون فيها عدة أعوام، والأمر فى الحقيقة لا يخلـــو أيضا من انتشار فوضى فى مجال النشر كما هى الفوضى فى كل مناحى الحياة فى الأمة، وأصبح كما يقول المثل "كل من هب ودب" يفتح دكانا و يعمل ناشرا، فأصبح للمهـــنة متاعبها، ومخاطرها ومخاوفها أيضا، ومع إصرار الناشرين على أن يطبعوا ثلاثة آلاف نســـخة فقـــط فى كل طبعة، فقد نفذت الطبعتين الأولتين فى بيروت والقاهرة بمجـــرد طرحهما فى الأسواق، فى الوقت الذى بقى فيه الناشر فى بيروت ينتظر الفسح عـــدة أســـابيع من بعض الدول العربية بل إنه وحتى الآن رغم مرور عدة أشهر على صـــدور الكتاب لا زالت بعض الدول لم تسمح بتوزيعه، ولك أن تتخيل أن مثل هذا الكتاب لو صدر فى دولة غربية فإن الناشر عادة ما يعد مؤتمرا صحفيا للمؤلف يسبقه بحملـــة إعلامـــية ضخمة قمنا بمثلها تقريبا، كما أن القراء يجدون الكتاب فى الأسواق صـــبيحة اليوم المحدد لصدوره فى معظم المكتبات ويمكن أن يوزع فى يوم واحد مئات الآلاف من النسخ لأن الناس تكون بانتظاره وتجده حينما تبحث عنه، لأن هناك قيما كثيرة للأسف لا توجد فى مجتمعاتنا.

المشـــكلة الأخرى هو أن الناشرين كالعادة يتعاملون مع عدد محدود من الموزعين وهـــذا يجعل توزيع الكتاب قاصرا على منافذ توزيع محدودة، وحينما سألت الناشر فى مصر "المكتب المصرى الحديث" عن سبب ذلك وهو من أكبر الناشرين المتخصصين فى الكتـــب السياسية قال "إن الموزعين للأسف لا يدفعون وتتراكم عليهم الديون وبالتالى فأنـــا لا أعطى الكتاب إلا للموزعين الموثوقين أو الذين يدفعون مقدما" وهذا أمر يحد كـــثيرا مـــن عملية التوزيع، ويحول دون وصول الكتاب للقارىء، ولأن مهنة توزيع الكتـــب قائمـــة على البيع الآجل والحسابات المفتوحة فقد برزت مشكلة عدم وجود الكـــتاب إلا فى منافذ محدودة، وجعل كثيرا من الناس لا يجدون الكتاب أو أن الموزع

لا يعـــرف قيمة الكتاب مثلا فيضعه مثل غيره ضمن كومة كبيرة وقد سألت أكثر من مـــوزع من هؤلاء وأنا فى القاهرة ومنهم موزع الأهرام فى مطار القاهرة عن الكتاب، فـــأجده يضع الكتاب بين الكتب أو يخفيه تحتها، المهم أنه لا فرق بينه وبين أى شيء آخر بل ربما يبرز مجلة عليها ممثلة أو راقصة أكثر من اهتمامه بالكتاب ومعظمهم كانوا يعـــرفوننى وكـــان يدور بينى وبينهم حوار فاكتشف أيضا أنه ليس هناك توعية لدى الـــبائعين للإهتمام بإبراز الكتب وقد كنت أتحسر وأنا أمشى فى شوراع لندن وباريس وأجـــد كيف يتم عرض الأصدارات الجديدة والإهتمام بها فى المكتبات بشكل يساعد على ترويجها مما يجعل بعض الكتب توزع ملايين النسخ.

أما الناشران فى بيروت وهما من أفضل الناشرين أيضا ومعظم كتبى السابقة منشورة لديهما لاسيما دار ابن حزم التى سبق أن نشرت لى ثمانية كتب فإنهما يعانيان من نفس المشـــكلة، ورغـــم أن لديهمـــا موزعين أقوياء فى معظم الدول العربية لكن إجراءات الشـــحن والفســـح وغيرها عادة ما تودى إلى تأخر وصول الكتب لكنها إذا وصلت مبكرة يتم توزيعها فورا وعلى سبيل المثال فالموزع فى الأردن طلب حوالى ألف نسخة مـــن الكـــتاب فور صدوره وقد أبلغنى الناشر بذلك ولما كنت مسافرا إلى عمان بعد وصول النسخ إليه بحوالى أسبوعين فاتصلت به لأطلب منه ترتيب حفل توقيع الكتاب مســـاعدة فى الترويج له والتقاء مع القراء وهذه ميزة غربية بدأت تأخذ طريقها لكثير مـــن معارض الكتب والناشرين ويسعدنى أنى ابتكرتها فى بعض المعارض ولاقت رواجا كبيرا، ففاجأنى الموزع فى الأردن بأن الألف نسخة قد نفذت خلال هذه المدة البسيطة ولم يعـــد يوجد لديه سوى عدد محدود من النسخ، ورغم سعادتى بهذا إلا أن المفاجأة كانـــت صـــعوبة وصول نسخ أخرى إليه من بيروت عند وصولى لعمان لأن الشحن سوف يستغرق مدة أطول، وهكذا.

مثال آخر هو أنى فوجئت بأن الناشر قد أرسل مائتين وخمسين نسخة فقط لمعرض الدوحـــة للكـــتاب نفـــذت خلال ساعتين فى أول أيام المعرض فى حفل التوقيع على الكـــتاب ورغم أن الناشر قد أرسل بالشحن جوا فى اليوم التالى كمية مضاعفة إلا أنها نفـــذت أيضا وصار الناس يحملوننى مسؤولية نفاذ الكتاب أو عدم وجوده فى المعرض

والمكتبات، وهـذا يؤكد عدم وجود دراسات من الناشرين للأسواق وخوفهم من المغامرة أو صناعة نجاحات متميزة للكتب أو عمل ترويج خاص لها مما يساعد القراء على الوصول للكتاب بسهولة ، وأنا أعرف أن هذا الكلام ربما يزعجهم لكنى فى هذه المقدمة أسعى لوضع بعض الحقائق أمام القراء حتى يدركوا المأساة التى يعيشها الكاتب والكتاب، أيضا لاحظت شيئا من الإنتهازية لدى بعض الموزعين حيث أنهم حينما رأوا إقبالا على الكتاب رفعوا سعره عن السعر المحدد له وهذا الأسلوب من الجشع أيضا أزعجنى كثيرا وتحدثت مع بعض من عرفت أنهم فعلوا هذا بشيء من اللوم، ورغم أنى اعتبرت الكمية التى وزعت خلال الطبعات الخمس للكتاب والتى تبلغ حوالى خمسة عشر ألف نسخة كمية متواضعة للغاية مقارنة بما كان ينبغى أن يوزع لو أن هذه المشكلات ليست قائمة ولو أن مهنة النشر والتوزيع أفضل حالا من واقع الأمة المتردى فى كل شيء، إلا أن الناشرين يعتبرون ما حدث نجاحا متميزا رغم أنى أراه متواضعا، فالذين يكتبون مثل هذه الكتب عن الحروب والأحداث ويكونون جزءا منها يبيعون فى الغرب كمية تصل إلى نصف مليون نسخة لذلك يشعرون بأن جهدهم وتجربتهم التى تصل إلى حد المغامرة بحياتهم من أجل نقل جانب من الحقيقة قد وصلت إلى الناس كما أنهم يتقاضون مبالغ محترمة على هذا الجهد، ومن قبيل الطرفة فإن الزميل محمد كريشان كلمنى بعد أكثر من شهر على صدور كتابى وقال لى أنه قرأ فى إحدى الصحف الفرنسية أن أحد الصحفيين الذين قاموا بتغطية الحرب فى العراق تلقى عرضا بمليونى يورو من إحدى دور النشر الفرنسية حتى يكتب كتابا عن مشاهداته فى الحرب، وهذا يعكس انتعاش هذه الصناعة وقيمة الكاتب والكتاب فى هذه الدول، أما فى العالم العربى فالأمر مأساوى للغاية وليس سرا أن أعلن أن كل مستحقاتى عن الكتاب لا توازى تكاليف رحلة واحدة من الرحلات الكثيرة التى قمت بها إلى بغداد والتى بنيت عليها أصول الكتاب، فالزمن الذى نحياه هو زمن الطرب والرقص والفراغ وليس زمن العلماء والكتاب والحضارة.

مشكلة خطيرة أخرى أبلغنى بها الناشر فى بيروت هى أن نجاح الكتاب قد أدى إلى السطو عليه من قبل بعض الموزعين من عديمى الضمير فقاموا بتزويره دون إذن وفى طبعة رديئة فى بعض الدول العربية وقدموه للقارىء على أنه نسخة أصلية وحينما

كنـــت فى بيروت عايشت ملاحقة الناشر عبر اتحاد الناشرين لطبعة مزروة حديثة تمت فى الأردن للكتاب، وهذا أسلوب رديء أيضا يعكس معاناة الناشرين وانعدام الضمير لدى المزورين ومأساة صناعة الكتاب فى العالم العربى .

أيضـــا مـــن بين الملاحظات التى أزعجت كثيرا من القراء الذين كتبوا لى الأخطاء المطبعية التى كانت موجودة فى الطبعات السابقة، وأود هنا أن ألقى المسؤولية بوضوح عـــلى الناشرين وإن كان الكلام سوف يغضبهم وإن كان يبدو أنى أغضبتهم كثيرا فى هذه المقدمة لكنى ذكرت بعض الحقائق التى يجب أن يعرفها القراء عن مسيرة الكتاب الذى يجدونه بين أيديهم، فقد سلمت الكتاب إلى كليهما على ديسك كمبيوتر قمت بطباعـــته بنفســـى حيـــث لم أعد استخدم القلم منذ سنوات وإنما النقر على حروف الكمبيوتر، وطلبت منهم التدقيق من ورائى وتحمل الناشر فى القاهرة مسؤولية التدقيق وأرســـل النســـخة المدققـــة إلى الناشر فى بيروت الذى اعتمد على مراجعة الناشر فى القاهـــرة ووقـــع ما وقع من أخطاء مطبعية أساءت للجميع لكن اللوم الأكبر كان لى ولـــيس للناشرين الذين أسجل لهم الأهتمام والدقة فى عملهم ولكن جل من لا يسهو وأعتقد أن هذه الطبعة سوف تكون خالية من الأخطاء إن شاء الله بعدما طلبت منهم التدقيق فى إعادة تصحيحها وأطلعنى الصديق الأستاذ بشار شبارو على النسخة المدققة.

وحـــتى أسجل النقصان على نفسى قبل أن يسجل على فإنى أؤكد مرة أخرى أن هذا الكتاب ليس سوى السطر الأول من القصة... " قصة سقوط بغداد " .

أحمد منصور

بيروت فى 13 محرم 1425
5 مارس 2004

مقدمـــة الطبعة الأولى

لم يكن سقوط بغداد على يد القوات الأمريكية فى التاسع من إبريل عام 2003 م يقل فى فجيعته لدى كل مسلم عن سقوط بغداد على يد قوات هولاكو عام 655 للهجرة 1258 للميلاد، ورغم أن بغداد فى عام 1258 م كانت عاصمة الخلافة ورمز هوية الأمة آنذاك، إلا أن بغداد الحديثة ليست صدام حسين ونظامه ولكنها تاريخ الأمة وحضارتها وعراقتها ومكانتها وقلبها، ولم يكن سقوط بغداد فى التاسع من إبريل وليد اللحظة ولكنه كان نتاجا لتصرفات حمقاء ونظام ديكتاتورى مستبد أذاق شعبه والمنطقة من الشرور والويلات ما جعلها هدفا للمخططات الأمريكية والمطامع الصهيونية.

لقد بدأ تنفيذ مخطط سقوط بغداد فى اللحظة الحمقاء التى قام فيها صدام حسين بغزو الكويت واحتلالها فى الثانى من أغسطس عام 1990، حيث مثل هذا التاريخ بداية لنكبة جديدة للأمة التى توجت بالنكبة الكبرى فى التاسع من إبريل عام 2003 لتكون مع نكبة فلسطين أكبر نكبتين تعرضت لهما الأمة بعد سقوط الخلافة الإسلامية فى عام 1924.

لقد كنت أحد الصحفيين القلائل الذين شاءت لهم الأقدار معايشة هذه النكبة من بدايتها من الثانى من أغسطس عام 1990 حيث كنت من أواخر من دخلوا الكويت قبيل احتلالها على آخر طائرة دخلت مجالها الجوى، وعشت تحت الاحتلال العراقى للكويت ورصدت ما حدث، ثم ذهبت بعد ذلك مرات عديدة للعراق بعد خروجها

من الكويت وفرض الحصار على شعبها وعشت تحت الحصار وعايشت معاناة العراقيين على مدى سنوات الحصار ورصدت معاناة العراقيين، وحاولت أن أعبر عنها كما عبرت عن معاناة الكويتيين من قبل، كما عايشت تهديدات الأمريكيين وضرباتهم ضد العراق على مدى السنوات التى سبقت الحرب الأخيرة والاحتلال، كما رصدت المراحل النهائية للإعداد للحرب من خلال زيارات صحفية لكل من العراق وتركيا وسوريا علاوة على الدوحة التى كانت مركز قيادة القوات الأمريكية وقد سجلت خلالها كل ما يدور على تلك الجبهات وربما كنت من أواخر الصحفيين الذين خرجوا من بغداد قبيل اندلاع الحرب على غير رغبة منى حيث طلبت منى إدارة قناة "الجزيرة" أن أعود بسبب أعمال أخرى كلفت بها، فخرجت من بغداد فى 15 مارس ثم اندلعت الحرب فى 19 مارس وحدث ما حدث فيها حتى سقطت بغداد فى 9 إبريل، وسقط معها النظام المستبد الذى كان نكبة على الأمة كلها وليس على العراق وحده وبعدما أصبحت العراق تحت الاحتلال الأمريكى عدت إلى بغداد وعايشت الحياة فى العراق فى ظل الاحتلال الأمريكى، وجبت العراق من شرقه إلى غربه وأقمت فى بغداد أياما رصدت خلالها حياة الناس ومشاعرهم تحت الاحتلال، ثم ذهبت إلى مناطق المقاومة المشتعلة فى محافظات العراق المختلفة وتمكنت من الوصول إلى بعض رجال المقاومة العراقية التى استطاعت أن تشوش على كل الخطط الأمريكية حتى الآن ورصدت التجربة كما رصدت ما يدور على الجانب الأمريكى والبريطانى من خلال زيارات قمت بها لبريطانيا ورصدت لما تقوم به واشنطن وتفكر فيه، ثم كتبت القصة من بدايتها "قصة سقوط بغداد".

حيث يستطيع القارىء مع فصول هذا الكتاب التى سأترك له أن يتناولها الواحد تلو الآخر أن يعيش القصة من بدايتها بكل فصولها، من الثانى من أغسطس حتى يصل ليس إلى سقوط بغداد وإنما إلى سقوط القوات الأمريكية فى أوحال العراق، كل ذلك موثقا بالمصادر والتواريخ والمعلومات -التى أشكر الزميل خالد مرسى على الجهد الذى بذله معى فى توثيقها -وذلك من خلال أسلوب آمل أن يكون جذابا للقارئ وأن ينسى

معه أنه يقرأ كتابا فى السياسة وإنما يقرأ قصة حقيقية ربما يكون هو نفسه أحد شخوصها أو شهودها لأنها قصتنا جميعا قصة هذا الجيل الذى شاءت له الأقدار أن يعيش أحداث القصة "قصة سقوط بغداد" فإلى البداية "الطريق إلى بغداد".

أحمد منصور

القاهرة: 4 رجب 1424 للهجرة
أول سبتمبر 2003 للميلاد

الطريق إلى بغداد

لم يكن ضابط الجوازات فى مطار الكويت الدولى يدرك و لم أكن أدرك أنا كذلك أنى ربما أكون آخر مسافر يدخل إلى الكويت يوم الأول من أغسطس عام 1990، وأن خاتم الدخول الذى ختم به جواز سفرى ربما لن يتمكن من تغييره بعد دقائق من الأول إلى الثانى من أغسطس ليختم به جواز أى مسافر قادم بعدى، وأن الثانى من أغسطس عام 1990 سيصبح يوما له تاريخه ليس لدى الكويتيين فحسب وإنما لدى العرب جميعا.

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ليلا ليلة الثانى من أغسطس عام 1990 حينما هبطت فى مطار الكويت الدولى طائرة الخطوط الجوية البريطانية القادمة من كراتشى وقبلها من كوالا لامبور -كما أشارت تقارير أخرى- فى طريقها إلى لندن عبر الكويت، وكان حظى أنى كنت أحد ركاب هذه الطائرة القلائل الذين هبطوا منها ودخلوا إلى الكويت، بينما كان معظم ركابها - الذين أخذوا بعد ذلك رهائن إلى بغداد بعد استيلاء القوات العراقية على المطار ثم على الكويت - فى طريقهم إلى لندن.

كان من المقرر أن أتسلم مهام عملى فى الكويت فى الثانى من أغسطس عام 1990 مديرا لتحرير مجلة "المجتمع" الكويتية وذلك بعدما يزيد عن ستة أشهر من المفاوضات بينى وبين إدارة المجلة، حيث كنت رافضا للعرض فى بدايته ثم مترددا فى قبوله بعد إلحاح إدارة "المجتمع" علىَّ رغم إغرائه لمن كان فى مثل سنى آنذاك أن يكون مديرا لتحرير مجلة سياسية أسبوعية مرموقة ومعروفة مثل "المجتمع"، وكنت آنذاك أقيم فى باكستان وأعمل مراسلا لشئون أفغانستان وباكستان وآسيا الوسطى للعديد من الصحف والمجلات العربية وكانت مجلة "المجتمع" إحدى المجلات والصحف التى أكتب

إليها، وكانت تغطياتي وكتاباتي عن الحرب الأفغانية آنذاك تتصدر أغلفة "المجتمع" كما تتصدر الصفحات الأولى للصحف والمجلات الأخرى حيث كان المراسلون العرب الذين يقومون بتغطية الحرب ربما لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة، ثم فوجئت بعد ثلاث سنوات من العمل معهم مراسلا غير متفرغ بعرضهم الذى قدموه لى للانتقال للعمل مدير تحرير للمجلة، لكنى بعد إلحاح وتفكير قبلت بشروط كان من أهمها أن أقوم بزيارة استطلاعية للكويت للتعرف على طبيعة العمل وما يتطلبه من خطط تطوير وتحديث للمجلة ومدى استعداد القائمين عليها للتجاوب مع متطلبات التطوير التى حققتها بعد ذلك-بفضل الله- من خلال ست سنوات أو يزيد كنت خلالها مديراً لتحرير مجلة "المجتمع" وبالفعل ذهبت إلى الكويت فى منتصف شهر يونيو عام 1990 وبقيت شهرا كاملا فى الكويت وضعت خلاله خطط تطوير المجلة وغيرها من شروط العمل ثم عدت إلى باكستان لإنهاء التزاماتى مع الصحف والمجلات الأخرى التى كنت أعمل معها، ثم واجهتنى صعوبة البحث عن طائرة متجهة مباشرة من إسلام أباد إلى الكويت فلم أجد فأبلغنى مكتب الطيران مساء الحادى والثلاثين من يوليو أنه وجد لى مقعدا على طائرة الخطوط الجوية البريطانية المتجهة من كراتشى إلى الكويت مساء الأول من أغسطس، وكانت هذه هى آخر طائرة دخلت المجال الجوى الكويتى ولم تتمكن من الإقلاع منه مرة أخرى لأن المظليين العراقيين سيطروا على المطار عند منتصف الليل وأخذوا الركاب الذين كانوا على متن الطائرة -وكانوا ينتظرون إقلاعها- رهائن إلى بغداد، ولم يفرج عنهم بعد ذلك إلا على يد الملاكم الأمريكى المسلم محمد على كلاى بعد زيارته لبغداد ولقائه مع الرئيس العراقى السابق صدام حسين، وكانت هذه أيضا هى آخر رحلة قامت بها الطائرة حيث بقيت جاثمة على أرض مطار الكويت حتى دمرت بعد ذلك حينما اجتاحت القوات الأمريكية الكويت لتحريرها.

كان عدد الركاب الذين نزلوا معى من الطائرة قليلا للغاية، فحينما وقفت فى طابور الجوازات لم يكن يقف خلفى أحد وكان أمامى عدد محدود للغاية، وبعدما ختم لى ضابط الجوازات جواز سفرى قام من مكانه لأنه لم يكن هناك أحد، وأخذت حقائبى بسرعة وخرجت من المطار متوجها إلى فندق "صحارى" الذى يقع وسط المدينة والذى كنت قد قضيت فيه الشهر الذى مكثته فى الكويت من قبل.

كان كل شيء هادئا فى المدينة، وعند الساعة الثانية تقريبا بعد منتصف الليل غفوت لكنى بمجرد أن غفوت استيقظت على أصوات قصف وانفجارات، ورغم أنها لم تكن قريبة إلا أنها أيقظتنى وبينما كنت بين الحلم واليقظة قمت أبحث عن مكان أختفى فيه من القصف، فتغطيتى لأحداث الحرب الأفغانية والتى سجلتها فى كتبى* كانت لا تزال تعيش فى داخلى، وبعدما أفقت وجدتنى داخل غرفة فى فندق، وليس كهفا أو خيمة فى جبل من جبال أفغانستان، ارتميت على السرير مرة أخرى وأنا أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه كابوس الحرب والقصف يطاردنى فى كل مكان أذهب إليه حتى وأنا نائم هنا فى الكويت هذه المدينة الآمنة التى تبعد عن جبال أفغانستان وحربها آلاف الأميال.. هيا إلى النوم مرة أخرى.. إلى النوم.. ولكن.. أى نوم؟! لقد وصلت أصوات القصف والانفجارات هذه المرة واضحة إلى أذنى، يا إلهى... إنها حقيقة وليست كابوسا وإنها الكويت وليست أفغانستان، ماهذا الذى يجرى؟ قمت إلى النافذة ففتحتها فوجدت الليل لازال يرخى سدوله ولا توجد حركة غير عادية فى الشوارع، نظرت فى ساعتى فوجدتها قد اقتربت من الثالثة بعد منتصف الليل، رفعت سماعة الهاتف واتصلت بموظف الاستقبال فى الفندق لأسأله عما يجرى، فربما أجد عنده خبرا، لكنه قال لى: لا أدرى شيئا يا سيدى، حاولت معه جاهدًا ولكنه كان خائفًا ومرتبكًا ولم يجبنى بشيء أكثر مما سمعت، فكرت فى ارتداء ملابسى والنزول إلى الشارع غير أنه بعد تفكير قليل قلت: إنه الجنون بعينه إن فعلت ذلك، وليس أمامى سوى الانتظار حتى بزوغ الفجر وانفلاق الصبح، ورغم أن الصبح كان قريبا إلا أنه كان بالنسبة لى فى هذه اللحظات بعيدا للغاية.

كانت الدقائق تمر متثاقلة كأنها أيام وأسابيع وشهور، سعيت خلالها لتكرار محاولاتى حتى أفهم ما الذى يدور حولى دون جدوى لكن معالم القلق والتهديدات العراقية للكويت كانت ملامحها قد بدأت تتضح لى فى ذلك الوقت المبكر من صباح الثانى من أغسطس عام 1990.

* تحت وابل النيران فى أفغانستان – امرأة من أفغانستان – مستقبل أفغانستان وجذور الصراع بين المجاهدين الأفغان – دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع – ص.ب.: 6366–14 بيروت لبنان.

لم يكن أحد يتوقع مطلقا أن تقوم العراق بغزو الكويت واحتلالها، حتى أن القنصل العام الكويتى فى إسلام أباد حينما سألنى وهو ينهى لى إجراءات سفرى إلى الكويت قبيل الغزو العراقى بأيام قائلا: هل تتوقع فعلا أن يقوم العراق بغزو الكويت؟ قلت له: من المستحيل أن يحدث هذا، لكنى لا أستبعد أن تتحرك القوات العراقية، تجاه جزيرتى وربة وبوبيان، وربما تجاه بعض المناطق النفطية الغنية لتضمن منفذا بحريا أوسع وأكبر على الخليج وهذا أمر مقلق أيضا لكن ربما لا تستطيع العراق أن تتجاوز ذلك، كان الرجل قلقا مثل غيره من الكويتيين وقد لاحظت القلق أيضا على وجه ضابط الجوازات الذى ختم لى بختم الدخول فى مطار الكويت حينما سألنى نفس السؤال بعدما تعرف على من خلال كتاباتى وأجبته نفس الإجابة و لم يكن يدرك كلانا أن القوات العراقية ربما كانت قد تجاوزت الحدود آنذاك وأن المظليين سوف يهبطون بعد قليل على أرض المطار، لذلك كانت الصدمة والذهول وعدم التصديق يخيم على الجميع.

صليت الفجر وارتديت ملابسى ونزلت إلى باحة الفندق فوجدت قلقا بين الموظفين وهمس لى أحدهم قائلا: يقولون بأن القوات العراقية دخلت الكويت، جلست على أحد المقاعد أفكر ثم بدأت أهيئ نفسى لغير ما جئت له، وما إن بدأ النهار يبزغ وأصوات القصف تقترب حتى أصبحت فى الشوارع المحيطة بالفندق حتى بدأ نزلاء الفندق يتزلون إلى الباحة مذعورين، وما هى إلا لحظات إلا وجاء جنود على باب الفندق ظننتهم كويتيين فى البداية ثم حينما قرأت الشارات على أكتفاهم ذهلت، إنهم جنود الحرس الجمهورى العراقيون وصلوا إلى هنا إلى قلب الكويت فى السابعة صباحا، سيطر الهلع والخوف على كثير من نزلاء الفندق لاسيما وأن أغلبهم كانوا من عائلات خليجية من السعودية والبحرين وقد تعرفت على كثير منهم بعد ذلك، لكن حقيقة الجنود العراقيين الذين كانوا يحملون أسلحتهم الرشاشة ويضعون أيديهم على الزناد ويتعاملون بقلق مع الناس هى التى كانت تسيطر على، لم أكن أتوقع أن يقدم صدام على غزو الكويت و لم أكن أتوقع أن يصل الجنود العراقيون بهذه السرعة إلى قلب الكويت، و لم أكن أتوقع أن ينام أهل دولة آمنين مطمئنين ثم يستيقظوا فيجدوا دولتهم قد زالت وقد أصبحت بلادهم تحت سيطرة دولة أخرى، كم هى عدد المرات

وكم هى عدد الدول فى العصر الحديث التى نام فيها الناس آمنين مطمئنين ثم أصبحوا فلم يجدوا دولتهم ولا حكومتهم.

رغم طلقات الرصاص التى كانت تنطلق فى وسط المدينة من هنا وهناك إلا أنى خرجت إلى ساحة الصفاة القريبة من الفندق والتى تمثل قلب المدينة القديمة فوجدت الفوضى فى كل مكان، فمحلات الذهب أبوابها مشرعة وقد نهب كل ما فيها، بينما كان بعض أصحاب المحلات يقفون مذهولين باكين، الناس كلها كانت تركض على غير هدى وفى كل اتجاه وإطلاق النار عشوائيا من كل اتجاه حيث يتعالى صراخ الناس، فيما تجمعات للجنود العراقيين فى الزوايا حتى سمعت صوت إطلاق قذيفة وسرعان ما ارتطمت بقوة بمبنى برج الاتصالات الذى كان تحت الإنشاء آنذاك فاهتز المكان كله وزاد الهلع والركض بين الناس وشعرت من قوة الارتطام وقربه أن قلبى قد انخلع منى، وسط هذا الهلع وجدت سيارة تاكسى تمر من الشارع فأشرت له أن يتوقف وأنا لا أتوقع وقوفه ولكنه وقف وقال لى: اركب فركبت فقال لى إلى أين؟ التبس علىَّ الأمر فى البداية فإلى أين أذهب وسط هذا الجو العاصف، ثم تذكرت مجلة "المجتمع"، فقلت له إلى مقر مجلة "المجتمع" فى شارع المغرب، انطلق الرجل بسرعة وسط شوارع المدينة القديمة فكانت الفوضى بارزة فى كل مكان، الناس تركض فى كل اتجاه والمحلات التى لم تنهب بعد فى طريقها للنهب، ورشقات الرصاص تأتى من كل اتجاه، ومن قريب بدا قصر الحكم يحترق والدخان الأسود يملأ السماء، أما أصوات القصف والانفجارات فكانت تنبعث من كل جانب.

تجاوزنا شارع السور الذى يفصل المدينة القديمة عن أحياء الكويت الحديثة، وبعد دخولنا شارع المغرب بحوالى مائتى متر فقط وجدت سيارتين من سيارات النجدة الكويتية تسدان شارع المغرب بينما يقف خارجهما ضابطان وجنديان، حينما اقتربت وجدتهما كويتيين ولا يحملون سوى مسدساتهم ومن الواضح أنهم لم يكونوا يدركون بدقة ما حل ببلدهم، وحينما وقف سائق التاكسى بجوارهم قلت لهم دونما شعور منى: ماذا تفعلون هنا؟ إن الجنود العراقيين يملئون شوارع المدينة، وهم على بعد عشرات الأمتار منكم فقط ويحملون رشاشات وقاذفات آر بى جى فماذا تفعلون بهذه المسدسات، ويبدو أن ما قلته قاله كثيرون ممن مروا قبلى، لكن الجنود الكويتيين

أشاروا للتاكسى أن يمر وكانوا متوترين للغاية، ولأن الجو متوتر فلم يكن لأحد أن يتصرف بحماقة، ولابد أن هؤلاء الجنود كانوا منهولين وغير مصدقين لما يجرى ويدركون أن الأمر لن يعدوا كونه جنون مؤقت من صدام وسوف تعود الأمور إلى ما كانت عليه خلال ساعات.

كما توقعت لم أجد أحدا فى مقر مجلة "المجتمع" حينما وصلت إلا "أسلم" الحارس وعامل البوفيه اليمنى الذى كان يعرف أسرار الجميع ويتلذذ بمعرفة ما يفكر فيه الآخرون وينقل أخبار هذا لذاك إلا أن الجميع مع ذلك كانوا يحبونه ولكن يتحاشون الكلام أمامه حتى في شئون طعامهم وشرابهم، وأذكر له أنه أعاننى برعايته لى خلال الأيام الأولى من فترة بقائى فى الكويت بعد الغزو العراقى، رحب بى وقال: ماذا جاء بك يا أستاذ؟ لقد فرحت لك أنك سافرت قبل الغزو لكنى لم أتوقع وصولك فمتى جئت؟ قلت له: جئت ليلا يا "أسلم" لم يهن علىَّ أن أتركك وحدك فى هذه المعمعة؟

اتصلت على رئيس تحرير المجلة آنذاك الدكتور إسماعيل الشطى فى بيته فاستغرب وصولى هو الآخر وكان منهولا مما يجرى، وطلب منى أن أنتظر قدومه، وكنت قد تعرفت خلال الشهر الذى قضيته قبل ذلك فى الكويت على معظم مكاتب وكالات الأنباء العالمية والمراسلين وأنا أعد لعملية تطوير المجلة، فاتصلت على معظمهم فوجدتهم بحاجة إلى معلومات مثلى ومعظمهم كانوا فى منازلهم فى حالة ذهول وخوف وتوتر وأذكر أن مراسل إحدى الوكالات كان كولومبيا قال لى حينما عرف أنى عربى: هل يمكن أن تساعدنى على الخروج من هذا الجحيم؟ والوحيد الذى وجدت لديه معلومات آنذاك كان أحد مراسلى وكالة رويترز وكان مصريا وكان لقبه "هنداوى" حيث لم أعد أذكر اسمه الأول، فأبلغنى أن القوات العراقية قد أحكمت سيطرتها على معظم الأماكن الحساسة والهامة فى البلاد، وأن هناك مقاومة بسيطة فى بعض المناطق، فطلبت منه أن نكون على اتصال ليعطى أحدنا الآخر ما يمكن أن يحصل عليه من معلومات لكن الاتصالات انقطعت بعد ذلك بين الجميع.

كانت تغطيتى السابقة للحرب الأفغانية ثلاث سنوات كفيلة بأن تجعل حالتى أكثر استقرارا وأفضل من الآخرين، لكنى فى نفس الوقت كنت أعيش بينهم وأرى وأشعر وأحس بما يشعر به الآخرون حيث كانت قوافل الهروب من جحيم الكويت قد بدأت

مع الغزو مباشرة، وكان كل من يعرفني يعرض على أن أخرج مع الخارجين قبل أن تسوء الأمور ولا أنكر أنى فكرت أكثر من مرة فى الخروج، لكن روح المغامرة جعلتنى أنسى كل شيء وأن أتغلب على عواطفى التى كان من أكثرها تأثيرا زوجتى التى كانت فى مصر آنذاك لتضع مولودها الثانى وصغيرتى "ندى" التى لم يكن عمرها آنذاك يتجاوز العامين وفى النهاية أخذت قرارا بالبقاء حتى تتضح الصورة على الأقل.

كانت الصورة ضبابية لدى جميع من كان فى الكويت صباح الثانى من أغسطس لكن كثيرين لم يفكروا طويلا فأخذوا طريقهم إلى السعودية عبر طريق المغرب السريع الذى يربط بين حدود البلدين حتى أن طوابير السيارات كانت تمتد لعدة كيلومترات على هذا الطريق، كانت عملية هروب كبيرة من المستقبل المجهول رأيت مثلها تماما فى بغداد فى بداية شهر مارس عام 2003 قبيل الاحتلال الأمريكي للعراق حيث كانت قوافل السيارات للنازحين من بغداد إلى الضواحى والمدن المجاورة تملأ الطرق وحيث كانت قوافل السيارات لمن يملكون فضل المال تقطع بهم الطرق إلى بغداد وعمان، وحيث كانت الطائرة الوحيدة التى كانت تربط بغداد بدمشق فى رحلة يومية تحمل فوق طاقتها من البشر والمتاع، صورة الهروب من الحرب مخيفة وقد رأيتها من قبل أثناء تغطيتى للحرب فى أفغانستان ومن بعد أثناء تغطيتى للحرب فى البوسنة والهرسك.

نسبة الذين لم يصدقوا ما حدث فى الثانى من أغسطس تقلصت فى الثالث من أغسطس أو بعد ذلك من أيام الغزو الطويلة، حيث أصبح الجميع أمام حقيقة لا تحتمل الشك هى أن الكويت أصبحت محتلة من العراق، ومع هروب الكثيرين وخروجهم من الكويت بعد الغزو إلا أن آخرين بقوا وروى لى الكثيرون منهم بعد ذلك تفاصيل ما عاشوه من أيام عصيبة لاسيما أثناء القصف الجوى الذى قام به الحلفاء منتصف يناير عام 1991 فى حربهم لتحرير الكويت.

سألنى الدكتور إسماعيل الشطى فى اليوم الأول وقال لى: هل ستبقى يا أحمد أم ستغادر الكويت؟ قلت له: إن الصحفى الذى يضيع فرصة مثل هذه وقد جاءته على طبق من ذهب مثلى، لاسيما وأنا قادم من تغطية حرب أصعب عشرات المرات مما أرى يكون قد أضاع على نفسه فرصة ذهبية سيندم كثيرا عليها، كما أنى أحد الذين صقلت خبرتهم الصحفية الحروب التى قمت بتغطيتها وأعتقد أن الحروب لها دور كبير

فى صناعة كثير من الصحفيين البارزين فى أنحاء العالم، ولأن مثل هذه الفرص لا تتكرر كثيرا فى الحياة فإن تضييعها من صحفى هو تضييع لمهنته وحرفته ودوره الذى ينبغى أن يقوم به، وربما كانت ترتيبات الأقدار أن أدخل الكويت على آخر طائرة دخلت مجالها الجوى الهدف منه أن أعيش هذه التجربة لذلك سوف أبقى.

بقيت فى الكويت خمسين يوما بعد الثانى من أغسطس عام 1990، أرصد يوما بيوم تطورات الأحداث على أرض الواقع معزولا عن الاتصال بالعالم الخارجى، حتى أنى لم أكن أعرف شيئا عن عائلتى ولا عن مولودتى ياسمين التى ولدت فى الخامس عشر من أغسطس ولم أعرف بميلادها إلا بعد خروجى من الكويت ووصولى إلى الإمارات فى الرابع والعشرين من سبتمبر وهم كذلك لم يكونوا يعرفون عنى شيئا، حيث قطعت الاتصالات ولم تكن الهواتف التى تعمل عبر الستلايت معروفة وربما لم يكن فى الكويت كلها إلا جهاز واحد أو جهازين لكنهما كانا يحتاجان إلى طبق كبير ينصب فيفضح من يستخدمهما، ورغم مطاردة السلطات العراقية للصحفيين حتى خرجوا جميعا أو عملوا مع قوات الاحتلال -كما كان يطلق عليها- أو اعتقلوا إلا أن كونى جديدا ولم أكن معروفا فى الوسط الكويتى فقد أخفيت هويتى الصحفية، وساعدنى بعض الأصدقاء الكويتيين على استخراج هوية كتب فيها أنى موظف، ولا أعتقد أن صحفيين مغامرين كثيرين بقوا فى الكويت تلك المدة وربما أكون أحد هؤلاء القلائل الذين بقوا رغم خطورة البقاء.

اتسمت الأيام الأولى للغزو العراقى للكويت بالفوضى العارمة فى كل مكان، والفوضى معناها السلب والنهب وانعدام الأمن ومن ثم التعرض لكل المخاطر ومن بينها الموت، ومع الهلع الذى كان يسيطر على الناس وفرار الكثيرين منهم فقد بقى الكثيرون أيضا فى الكويت بل إن من بقوا كانوا أكثر ممن خرجوا، ورغم سيطرة العراقيين على كل المواقع العسكرية تقريبا فى الكويت خلال فترة وجيزة إلا أن بعض الكويتيين بقوا يقاوموا وظهر ما يسمى بـ "المقاومة الكويتية" وكانت منطقة كيفان مسرحا بارزا للمقاومة وذهبت لأرى شكل المقاومة فى كيفان فى اليوم الثالث من الغزو فوجدت شباب المنطقة يضعون المتاريس ويفتشون السيارات ويحملون أسلحة خفيفة بعضها أخذ من معسكرات للجيش لكن أغلبها من أقسام الشرطة، وكانوا

يقومون بعمليات ضد القوات العراقية حيث فجروا بعض الدبابات والآليات، وكانت الآليات المعطوبة تُرى بوضوح لاسيما على الطرق الدائرية ومما ساعد على وجود المقاومة السلوكيات العدوانية التى كان يقوم بها بعض الجنود ا لعراقيين وصدور فتاوى من العلماء الكويتيين آنذاك كانت تتداول على نطاق واسع تدعو للمقاومة تحت دعوى "دفع الصائل" حتى لو كان مسلما، وهو ما أشعل الحماس فى نفوس الناس آنذاك للدفاع عن أعراضهم وبيوتهم وممتلكاتهم حيث كان النهب والسلب يتم فى وضح النهار، ومع استقرار القوات العراقية بدأت عمليات تمشيط واسعة للمنازل بحثا عن السلاح والمنشورات التى كانت توزع على نطاق واسع لاسيما فى المساجد، ولأن بناء الكويت يمتد على مساحات شاسعة فقد استغرق الأمر مدة طويلة لكن عمليات المداهمة والتمشيط لم تكن تخلو من عمليات مقاومة واعتقال وغيرها.

أذكر أنى فى أيام الغزو الأولى سألنى أحد السعوديين المقيمين معى فى الفندق عن مخبز يشترى منه خبزا لعائلته التى كانت معه ولأنى كنت أحب التحول ومعرفة ما يدور فى أرجاء المدينة فقلت له: أنا حديث عهد بالكويت لكن شوارعها وأحياءها منظمة وما علينا سوى أن نتحرك ونسأل فمشينا بالسيارة ما يزيد على ساعتين حتى وجدنا مخبزا أذكر أننا وقفنا أمامه ما يزيد على ساعة حتى جاء دورنا وأخذنا بعض الخبز، وقد نجح الكويتيون فى الفترة الأولى من تنظيم شئون حياتهم وكان التكافل ظاهرا بين الناس حيث رتبوا معيشتهم فى الأحياء والمناطق المختلفة، وبدأوا يتعايشون مع الواقع الذى لم يكونوا يتوقعون حدوثه، وأصبح كل حى أو منطقة به لجنة تقوم على تنظيم شؤون الناس وحياتهم من جميع الجوانب.

أما بالنسبة لى فقد انتقلت بعد أسبوع من الفندق إلى بيت أحد الأصدقاء من الكويتيين الذين كانت عائلتهم خارج الكويت وكان هذا البيت هو أحد الملتقيات التى تصب فيها المعلومات عما يحدث فى الكويت حيث كان يجتمع فيه الكويتيون من كل الأطياف، فكنت على اطلاع وثيق بكل التطورات وكنت أدون يومياتى ليس من خلال ما أسمع فقط ولكن من خلال مشاهداتى حيث كان لى كل يوم أكثر من جولة فى مناطق الكويت المختلفة أتابع فيها الأحداث والمشاهدات من قرب، وأذكر أنى فى الأيام الأولى كنت أحمل كاميرتى الصغيرة وأقوم بتصوير بعض اللقطات ولكنى علمت

أن كل من يضبط ومعه كاميرا كانت القوات العراقية تعتقله ولا يُعرف مصيره، وكان عملى الذى كنت أقوم به فى ذلك الوقت خطير للغاية وهو سبب بقائى تلك الفترة وهو تحرير النشرة الصحفية التى كان يصدرها الكويتيون فى الداخل والتى أطلقوا عليها اسم "المرابطون" وكانت هذه النشرة هى الصحيفة الوحيدة التى يطبعها الكويتيون فى الداخل أثناء الاحتلال العراقى وكانت تطبع وتوزع على نطاق واسع فى المساجد والمنتديات والتعاونيات وكانت هى المصدر الرئيسى للأخبار للكويتيين المقيمين داخل الكويت آنذاك لذلك كانت كل الأخبار تصب عندى من كل التيارات والاتجاهات، وكنت أقوم بتحريرها فيم يقوم شباب كويتيون بباقى العمليات من طباعة وتوزيع، وأذكر أننا أصدرنا تسعة أعداد من داخل الكويت وحينما تعذر الاستمرار فى طباعتها فى الداخل تحولت بعد ذلك إلى صحيفة أسبوعية كانت تصدر من لندن واستكملت هناك من العدد العاشر.

كان الخوف يسيطر على الناس فى كل مكان وفى كل تصرف وفى كل حركة، وإذا لم يحسن الإنسان التصرف فى مثل هذه الظروف فإن أى تصرف أحمق يمكن أن يودى به إلى المجهول، كنت حريصا على أن أكون تلقائيا وبسيطا وودودا فى معاملتى مع كل من حولى لاسيما عند حواجز السيطرة التى أقامها العراقيون فى مفارق الطرق الرئيسية فى أنحاء المدينة، وأن أبتعد تماما عن الصدام والاستفزاز رغم أن كل ما كان يحدث كان يدعو إلى غير ذلك، فقد كنت أرى بعينى عمليات السلب والنهب التى كانت تتم فى وضح النهار وفى كل مكان ولكل شيء، كما كانت النيران تندلع فى الأسواق بعد نهبها أو البيوت أو قصور الحكم حتى أن قصر ولى العهد الكويتى الشيخ سعد العبد الله ظلت أعمـــدة الدخان تتصاعد فوقه لعدة أيام، وفى كل يوم كنت أخرج فيه إلى الشارع فى جولة كنت أتوقع أن يقبض علىَّ أو يطلق أحد الرصاص علىَّ أو يحدث لى مكروه فلم أكن أشعر بالأمن لحظة واحدة لكنى لا أنكر أنى كنت أستمتع بما أقوم به رغم كل هذه الأجواء، حيث كنت أعيش طوال الوقت على متابعة الأخبار ورصدها من كل مصادرها المتاحة لى آنذاك سواء بمشاهداتى وهذه كانت الأهم كما كانت هناك المصادر الكويتية التى كانت تجمع المعلومات من أرجاء الكويت كما كانت الديوانيات فى المساء مصدرا هاما للتعرف على ما لم أرصده من المصادر الأخرى وعلاوة على ذلك كان الراديو والتليفزيون مصدرا هاما آخر، لكن

مع مضى الوقت بدأ الملل يتسرب لحياة الناس حيث كان الجميع يترقب تحركا سريعا، لكن كل يوم من الانتظار -على من كان فى الداخل- كان يوما طويلا.

بدأ العراقيون يطاردون كل من يوزع منشورات أو نشرات وكانت "المرابطون" قد بدأت تؤثر بشكل كبير فى المجتمع الكويتى بما تبث من أخبار وتضع الناس فى بؤرة الحدث فأصبحت مرصودة وقبض على بعض الشباب الذين كانوا يقومون بتوزيعها ونقلتهم السلطات العراقية إلى بغداد فقرر الكويتيون إيقاف صدورها بعد تسعة أعداد ثم صدرت بعد ذلك كصحيفة أسبوعية من لندن، بعدها لم يعد لى دور مقنع بالنسبة لى يستدعى البقاء فقررت الخروج من الكويت و لم يكن هناك طريق مفتوح سوى طريق بغداد وصولا للأردن ومنها أسافر إلى الوجهة التى أريد.

تركت كل متاعى وأوراقى فى الكويت لدى أحد الأصدقاء وحملت معى حقيبة يد صغيرة بها أغراض شخصية، وحملنى أحد الأصدقاء الكويتيين فى سيارته إلى موقف الباصات فى منطقة "خيطان" وودعنى عند الغروب ولازلت أذكر دمعتى السخينة التى لم أتمالكها حينما ودع كل منا الآخر إلى المجهول بعد صحبة كربة ومحنة حيث يظهر هنا معدن الناس وصفاؤهم، وأذكر أنى فى تلك الفترة شعرت بامتزاج مع الذين عايشتهم لم أجده فيما بعد مع الكويتين الذين عشت بينهم أكثر من ست سنوات بعد التحرير حيث واصلت عملى كمدير تحرير لمجلة "المجتمع"، فقد كان من عرفتهم فى أيام المحنة والغزو غير الذين عرفتهم من بعد فى كل شيء فالمحن تصنع من الناس شيئا آخر فقد أحببت كل من عرفتهم فى تلك الفترة فترة الغزو والخوف والمحنة وأحبونى لاسيما وأنى كنت أخاطر بنفسى سعيا لرفع الظلم عن مظلومين ليس إلا و لم يكن لديهم ما يقدموه لى و لم يكن هناك دافع لأبقى سوى نفس الدوافع التى جعلتنى أبقى فى أفغانستان من قبل والبوسنة والعراق فيما بعد لكنى قدمت ما أستطيع وأسأل الله أن يجعله فى موازين أعمالى.

لازالت صورة وداعى لصاحبى الكويتى الذى لم ألتق به بعد ذلك إلا ربما مرة أو مرتين بعد تحرير الكويت ماثلة فى مخيلتى لأنها كانت واحدة من أكثر لحظات الصدق والصفاء التى عايشتها مع أناس لم أكن أعرف من أسمائهم إلا أبو فلان أو أبو علان دون اهتمام بمعرفة أى شيء آخر عن حياتهم أو مكانتهم فى الحياة لكنهم كانوا فى محنة

وكان يجب عليّ أن أساعدهم فيها وأقف إلى جوارهم لأبين قضيتهم ومعاناتهم للناس فقد فقدوا فى هذه اللحظة كل شيء بلادهم وأموالهم ووظائفهم وتشتت شملهم وفقدوا الأمن والأمان الذى كانت تنعم فيه الكويت.

حينما نظرت إليه وجدته لا يستطيع أن يكتم دموعه مثلى، فقال لى وهو يشد على يدى ربما لا نلتقى مرة أخرى فأرجو أن تذكرنى بخير ولازلت أذكره حتى بعد ثلاثة عشر عاما عليها، حتى وأنا أكتب هذه السطور تنساب دموعى كلما تذكرت صفاء نفوسنا فى لحظة الوداع هذه.

انطلق بنا الباص من الكويت عند الغروب فى العشرين من سبتمبر عام 1990 ووصلنا إلى بغداد عند شروق الشمس، كان عدد ركاب الباص لايزيد عن أربعة عشر راكبا من جنسيات مختلفة بينهم خادمات سيلانيات وهنديات وموظفون مصريون وسوريون وأردنيون وأذكر أحد المدرسين المصريين وكان رجلا قد اقترب من الستين أعجبته ملاحة خادمة سيلانية رغم سمرتها وكانت تتكلم العربية المكسرة فظل يلاطفها ولا يخفى إعجابه بها حتى عرض عليها الزواج بعد عدة ساعات وهى تتمنع وأنا أرقب الموقف بطرافته مع غيرى من الركاب وأعرف أنه سوف ينتهى عند الحدود العراقية الأردنية، وموظف آخر فقد كل مدخراته بعد عشرين عاما من العمل فى الكويت كان يجهر بشتيمة صدام حسين ونظام حكمه وكان آخر يبدو أنه كان صديقا له يجلس إلى جواره مرعوبا يكتم فمه بيده كلما سب صدام أو شتمه فتضيع الشتيمة بين فمه ويد صاحبه الموضوعة عليه، فكنت أرقب ما حولى دون تعليق وكأنى أشاهد مسرحية حية كنت أنا المشاهد الوحيد لها، بعد الظهر وصلنا إلى الحدود العراقية الأردنية وبعدما أنهيت إجراءات سفرى خرجت بسرعة لأنى لم يكن معى سوى حقيبة يدى، ركبت حافلة أخرى إلى الحدود الأردنية التى كانت تبعد آنذاك حوالى سبعين كيلوا مترا عن الحدود العراقية، ومن هناك أخذت حافلة أخرى إلى عمان ومنها أخذت الطائرة إلى دبى... وعند ذلك انتبهت على صوت السائق يخرجنى من كل هذه الذكريات ويقول لى: أستاذ أحمد.... لقد وصلنا إلى"طرابيل" نقطة الحدود الأردنية العراقية.. فقد كنت أتذكر وأفكر فيما حدث عام 1990بعد عشر سنوات مما وقع حيث كنت أركب سيارة من عمان فى طريقى إلى بغداد فى أول رحلة إليها بعد مرورى عليها خارجا من

الكويت وذلك فى شهر أغسطس عام 2000، حيث ترددت على بغداد بعد ذلك عدة مرات كان أهمها تلك الزيارة التى كانت قبيل الاحتلال الأمريكى للعراق حيث خرجت من بغداد قبيل الحرب بأربعة أيام كما رصدت قصة سقوط بغداد من سوريا وتركيا والدوحة ثم ذهبت إلى بغداد بعد الاحتلال وأضفت وعرفت المزيد عن قصة سقوطها التى بدأت حقيقة فى الثانى من أغسطس عام 1990 حيث كنت أحد شهود قصة سقوط بغداد من اللحظة الأولى فقصة سقوط بغداد بدأت حقيقة مع الغزو العراقى للكويت فى الثانى من أغسطس عام 1990.

كان أول ما لفت نظرى حينما وصلت إلى نقطة الحدود العراقية الأردنية فى طرابيل فى شهر أغسطس من العام 2000 هو زوال المسافة الحدودية الفاصلة بين نقطتى الحدود والتى كانت تزيد على سبعين كيلومترا حيث ضمت إلى الأردن بعدما تنازل الرئيس العراقى صدام حسين عنها قبل عدة سنوات لصالح الأردن، وأصبحت نقطتا الحدود بين البلدين متجاورتين لا يفصل بينهما إلا مسافة قصيرة، وقد أخبرنى عدى صدام حسين نجل الرئيس العراقى حينما طلب لقائى فى بغداد فى هذه الزيارة بعدما علم بوجودى فى المرة الأولى والأخيرة التى رأيته فيها بناء على طلبه أن والده الرئيس صدام حسين كانت "منطلقاته بعثية وحدوية فى قراره بالتنازل عن المنطقة الحدودية التى كانت فاصلة بين البلدين لصالح الأردن على اعتبار أن الأردن بلد شقيق " وكانت الأمم المتحدة قد أقامت فى هذه المنطقة عشرات المخيمات فى عام 1990 للفارين من الكويت حتى يتم ترحيلهم إلى بلادهم وقد رأيت فى زيارتى الأخيرة للعراق والتى كانت فى يوليو من العام 2003 أى بعد سقوط بغداد مخيمات أيضا فى المنطقة العازلة بين الأردن والعراق قيل إنها لمجاهدى خلق، وأيضا بعض الفارين من العراق وفلسطينيين كتب عليهم التشرد فى كل مكان.

حينما دخلت إلى حدود العراق فى أغسطس 2000 بدأت أشعر بأجواء الحصار المفروض على العراق والشعب العراقى من شهر أغسطس 1990 فالحياة القاسية التى كان يعيشها العراقيون بعد مغامرة صدام بغزو الكويت كانت بادية على وجوه الناس منذ أول لحظة وطأت فيها أقدامى أرض العراق.

جلست فى صالة كبار الزوار فى نقطة الحدود أنتظر إنهاء إجراءات دخولى إلى العراق حيث كانت تضم الصالة وفودًا عديدة من دول غربية يمثل معظمها شركات جاء مندوبوها لترتيب حصص لهم من كعكة العراق ضمن مشروع "النفط مقابل الغذاء" التى كانت تديره الأمم المتحدة، فيما جاء آخرون لدراسة مشروعات مستقبلية يقومون بها حال انتهاء الحصار أو إنهائه، فيما كانت هناك بعض الوفود الرسمية ووفود تابعة للأمم المتحدة، وكان هناك فرنسيون وأسبان ومن جنسيات أوروبية أخرى، لكن ما لفت انتباهى آنذاك هو الصينيون والماليزيون الذين كانوا يمثلون حضورا لا بأس به، وحتى تمشى إجراءات سفرك بيسر وسهولة كان لا بد أن تدفع شيئا للموظفين وكانت خمسة دولارات كفيلة بأن تسهل لك كل شيء، وإلا فأنت ضيف عزيز على الرحب والسعة لكن إجراءات دخولك ربما تطول قليلا وبخمسة دولارات أخرى يمكن إعفاؤك من اختبار "الإيدز" الذى كان مقررا آنذاك على كل من يدخل العراق.

أنهيت إجراءات دخولى وأخذت الطريق مع مرافقى إلى بغداد شبه صامت طوال الوقت، فقد كانت النفسية التى مشيت بها على نفس الطريق قبل عشر سنوات تختلف اختلافا جذريا عن النفسية التى أسير بها عليه اليوم، فقد انعكست آثار الحصار على نفسى، وبدأت أشعر بأنه حصار فى كل شيء وعلى كل شيء، فقد كانت الأرض القاحلة على جانبى الطريق فى بلد الرافدين ومهد الحضارات ومنبع الخصوبة مؤذية للعين والنفس وكانت دليلا على انتشار الموت وفقدان الحياة، فثلاثة وعشرون عاما آنذاك من حكم صدام حسين مليئة بالحروب والدمار حولت الأرض التى كانت حية إلى الموت، وبددت الثروات والجهود وطاقات الأجيال لتلبية أوهام الزعيم ومغامراته مع إيران تارة ومع الكويت تارة أخرى وكله باسم الوحدة العربية.

وصلت بغداد عند الغروب، وكان أول شيء فعلته هو تبديل العملة فوجدت الدينار العراقى الذى كان يساوى أكثر من ثلاث دولارات قبل غزو العراق للكويت فى أغسطس 1990 قد هوى إلى الدرك الأسفل فى أغسطس 2000 وأصبحت قيمة الدولار الواحد تساوى 2200 دينار عراقى، وكان متوسط الرواتب آنذاك بين سبعة آلاف وعشرة آلاف دينار أى بين ما يساوى ثلاث إلى خمس دولارات فى الشهر، ولنا أن نتخيل حياة الناس الذين كان دخلهم يساوى دخل الخليجيين قبل 2 أغسطس

1990 فقد كان البؤس يسيطر على حياة الجميع، ولم أتخيل مطلقا كيف يعيش رب أسرة فيها خمسة أولاد بخمسة دولارات فى الشهر حتى لو كان يأخذ ما يسمى بالبطاقة التموينية من الحاجات الأساسية من الطعام من الدولة لذلك كان الجميع يركض بالليل والنهار من أجل البحث عن لقمة العيش وحتى يسد ما يمكن أن يسد رمقه ورمق أولاده ويكفى عائلته ذل المسألة لاسيما وأن النفسية العراقية نفسية كريمة ومعطاءة وإهانة الكريم من أشد صعوبات الحياة على الإنسان، لذلك كان من الصعب أن تجد بشاشة أو حتى راحة على وجه أحد من الناس فى تلك المرحلة، هذا علاوة على الضغوط الأخرى التى تملأ حياة الناس فقد كانت حياة العراقيين بائسة بكل المعايير فى ظل الحصار وفى ظل حكم صدام.

مشيت فى الشوارع قليلا أتأمل وجوه الناس المنهكة والمتعبة، أحاول أن أقرأ فيها ما لم أقرأه فى صفحات الكتب والصحف التى تناولت حياة العراقيين تحت الحصار.. الحصار الخارجى وحصار النظام عليهم لاسيما وأنى عشت شهرا كاملا تحت الحصار فى سراييفو حينما كانت تحت الحصار الصربى وسجلت مشاعر الناس هناك فى كتابى "تحت وابل النيران فى سراييفو" إلا أن الوضع فى كل مكان يختلف عن الآخر فلكل إنسان مشاعره وأحاسيسه وظروفه وحياته التى تختلف ولو جزئيا عن الآخر، ولعل العراق كان يعتبر من الناحية التاريخية من أطول الدول التى وقعت تحت الحصار حيث تعرض شعب كامل لحصار طويل امتد إلى ما يقرب من ثلاثة عشر عاما لم يذق ويلات الحصار الحقيقية فيها إلا الشعب المسكين بينما كان النظام ورجاله ينعمون بالحياة الرغدة، كما أن مصاصى الدماء من التجار الجشعين يجدون فى مثل هذه الحالات فرصة تاريخية للثراء الفاحش، وكما تتضخم ثروات تجار السلاح من وراء الحروب تتضخم كذلك ثروات التجار الجشعين من وراء الحصار الذى كان يعانيه الشعب ومنها ما عاناه الشعب العراقى طوال ثلاثة عشر عاما تحت الحصار.

وصلت إلى فندق "المنصور" حيث كان الزملاء فى مكتب قناة "الجزيرة" قد حجزوا لى على اعتبار أنه يجاور مكتب "الجزيرة"، وكان فندق "المنصور" أهم فنادق بغداد قبل بناء فندق "الرشيد"، لكنى حينما دخلت إلى فندق "المنصور" أصبت بانقباض، وحينما دخلت الغرفة أصابتنى الكآبة وشعرت أنى لست فى فندق وإنما فى زنزانة فى

سحن أنيق إلى حد ما، كان لون السجاد غير واضح، ورغم أن الفرش كانت تبدوا مغسولة ومكوية، إلا أنى خفت الاقتراب من السرير، وكانت هناك ثلاجة صدئة فى الصالون حيث كان ما حجز لى "سويت" وليس غرفة، أما مقاعد الصالون فكانت ممزقة والجلوس عليها مقلق، نظرت إلى التلفزيون فتذكرت التليفزيون الذى رأيته أول مرة فى حياتى، وحينما فتحته بعد محاولات دؤوبة للتعرف على طريقة فتحه، وجدت قناتين غير واضحتين، أما الحمام فقد كان الصدأ فى كل مكان، وكانت هناك ماسورة مياه مكسورة والمياه تملأ أرضية الحمام، كنت مجهدا من السفر الطويل برا، لكنى لم أستطع أن أجلس أو أنام، حاولت الاتصال بمكتب "الجزيرة" لأعرف من الزملاء لماذا يعاقبوننى بهذه الطريقة، لكن الوقت كان متأخرا كما أن الاتصال الهاتفى مشكلة، نزلت إلى إدارة الفندق لأشكو سوء الحال فى "السويت" الذى أخذته، ففوجئت بهم يقولون لى أنهم إكراما لى أعطونى أفضل ما عندهم، وحتى يظهروا لى مدى ما حصلت عليه قالوا لى إن الفنان المصرى الكوميدى يونس شلبى يترل معى فى نفس الفندق وجاء لعرض مسرحية، وأن مستوى "السويت" الذى أخذته ربما يكون أفضل من "السويت" الذى يقيم فيه هو، قبلت بالأمر الواقع وصعدت مرة أخرى إلى الغرفة لكنى لم أستطع أن أبقى فيها، فجأة دوت صفارات الإنذار فى الفندق وسمعت ضوضاء فخرجت فقالوا أن هناك حريق فى الفندق نزلت مع باقى الترلاء مسرعا فكان الدخان يملأ الصالات الأرضية حيث كان الحريق فى المطعم، فخرجت إلى الباحة الخارجية للفندق فوجدت معظم الترلاء يتجمعون فى حديقة الفندق، ووسط هذه الأجواء وجدت ثلاثة من الشباب العراقيين يقتربون منى ويتعرفون علىَّ من خلال برامجى التليفزيونية حيث دار بيننا حوار قصير بعدها طلبوا منى أن أصحبهم إلى العشاء، فاعتذرت لهم متعللا بإرهاق السفر إلا أنهم ألحوا على وحاصرونى ورفضوا كافة مبرراتى للاعتذار، وزادوا فى إغرائى حينما قالوا لى أنهم يملكون قاربا سريعا وسوف يأخذون جولة فى نهر دجلة، وسوف يتناولون العشاء فى نهايتها على أحد ا لمطاعم المطلة على النهر ورغم أنى كنت قد رتبت مع السائق الذى صحبنى إلى بغداد أن يمر على فى الليل ليصحبنى إلى المدينة القديمة حيث أحب أن أسير فى المدن القديمة لاسيما فى هدوء الليل وأستحضر مشاعر شاعر العراق الكبير بدر شاكر السياب فى قصيدته الرائعة "السوق القديم" وأتأمل فى السوق القديم وغمغمات العابرين، إلا أنى قلت إن

السوق باق أما رحلة بالقارب فى الليل فى نهر دجلة فربما لا يتكرر مثل هذا العرض كثيرا.

لم أكن أعرف أيا من الشباب الذين دعونى للخروج معهم لكن روح المغامرة جعلتنى أقبل عرضهم فى النهاية بعدما اتصلت بمرافقى واعتذرت له، حيث عرفت منهم طبيعة الجولة النهرية والأماكن التى سوف نذهب لها وتركت خبرا فى استقبال الفندق، لمست فى الشباب أصالة ورجولة وشهامة العراقيين، وبعدما وصلنا إلى الجسر الحديدى القديم، أحد الجسور التسعة التى تربط بين شطرى بغداد الكرخ والرصافة، حيث كان القارب هناك، لفت انتباهى انخفاض منسوب النهر بشكل كبير آنذاك حتى أننا حينما نزلنا من السيارة التى نزل بها الشباب وحتى منسوب المياه قال لى أحدهم: هل تعلم أننا نقف الآن على مستوى قاع النهر؟ فهذه الأرض التى نقف عليها الآن عادة ما تغمرها المياه بارتفاع مترين على الأقل، لكن النهر به جفاف شديد الآن مثل كل جفاف شيء فى العراق، فمنذ عامين ومنسوب المياه ينخفض فى دجلة والفرات بشكل كبير، ولكن فى دجلة بشكل أكبر من الفرات، وأصبح الجفاف يلعب دورا خطيرا فى تدمير المحاصيل الزراعية، وتدمير الحياة ورغم أن الحكومة العراقية قد استغلت جفاف النهر لتحليد جانبيه بالحجارة، إلا أنى شعرت أن النهر يعانى من أعراض الموت، وكأن جفاف الحياة فى العراق سببها الجفاف الذى لحق بالنهر، فالأنهار حينما تفيض فى حياة الشعوب بالمياه فإنها تفيض معها بالخير والبركة، وقد أصدرت منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة تقريرا فى بداية يوليو من العام 2000 أكدت فيه "أن العراق أصيب بأسوأ جفاف منذ مائة عام، وأن الجفاف سوف يدمر 75% من محاصيله لهذا العام، ويحتاج العراق إلى إنتاج أكثر من ثلاثة ملايين طن من القمح سنويا لإطعام سكانه البالغين ثلاثة وعشرين مليون نسمة، على أن يستورد باقى احتياجاته من القمح وفق برنامج "النفط مقابل الغذاء" الذى تشرف عليه الأمم المتحدة" ورغم أن إحصاءات الإنتاج الزراعى فى العراق تعتبر سرا دفينا شأنها شأن كل شيء ولا تتوافر أية معلومات عن تقديرات إنتاج هذا العام، فإن منظمة الأغذية والزراعة أشارت إلى أن إنتاج العراق من القمح عام 1997 انخفض إلى مليون وستة من عشرة مليون طن عما كان عليه عام 1995 حيث كان مليون وأربعة وعشرين من مائة مما يعنى أن الإنتاج فى هذا العام لن يتجاوز ثلاثمائة ألف طن مما يهدد بكارثة حقيقية ومجاعة

منتظرة وشح وقسوة إضافية على حياة البسطاء الذين يشكلون أغلبية العراقيين الذين يعيشون حياة بائسة -سوف أفصلها فيما بعد- وتبلغ نسبة الماء المتدفقة فى النهر 40% فقط من إجمالى المياه التى كانت به قبل العام 1998، ومع عدم سقوط الأمطار أيضا منذ عام 1997 فإن الثروة الحيوانية أصبحت مهددة بالفناء مما جعل الفلاحين وتجار الماشية والبدو يقتادون عشرات الآلاف من الماشية والخراف والأبقار لبيعها فى بغداد وضواحيها، خوفا عليها من الهلاك جوعا وعطشا مما جعل كيلو اللحم الطازج فى بغداد ينخفض إلى أقل من دولار "2000 دينار عراقى" ورغم استمتاع الناس وقتيا بذلك فإنه ينذر بأزمة مستقبلية طاحنة، وتشير منظمة الأغذية والزراعة إلى أن أمراضا مختلفة قد تتفشى فى 60% من مزارع الدواجن فى العراق حيث أن عدد المزارع التى تعمل آنذاك تتقلص إلى 527 مزرعة فقط من إجمالى 8500 مزرعة كانت تعمل من قبل، وقالت إن نصيب الفرد العراقى قبل حرب الخليج عام 1991 من هذه الصناعة كان يصل إلى 85 بيضة و12,5 كيلومن اللحم سنويا أما الآن فإن نصيب الفرد لا يزيد عن 19 بيضة وكيلو ونصف فقط من اللحم سنويا!!

انطلق بنا القارب الذى كان يقوده أحدهم فيما كان الجميع يعملون مرشدين لى، يمدوننى بالمعلومات والشرح عن الأحياء والأماكن على ضفتى النهر، ويجيبون عن أسئلتى ويحدثوننى عن الكرخ والرصافة والأعظمية والكاظمية فيما كانت نسمات الليل وأضواؤه تنساب حولنا، فجأة شعرنا وكأن زلزالا قد ضرب القارب من أسفل وصوت ارتطام شديد وصياحا منا جميعا.. فأمسكت بطرف القارب.. وشعرنا بأننا فى طريقنا إلى قاع النهر..

لكن قائد القارب تمكن من السيطرة عليه فى اللحظات الأخيرة، فيما كان الفزع قد سيطر علينا جميعا، واتضح أننا قد ارتطمنا بجزء مرتفع من قاع النهر الذى تعرى بسبب قلة الماء المتدفق فيه وبعدما عاد إلينا الهدوء، قام بتشغيل القارب من جديد، وانطلقنا هذه المرة، ولكن برفق وهدوء وحذر، فالأضواء المنعكسة من جانبى النهر على صفحته لم تكن كافية لنميز بين الأماكن العميقة والمغمورة بالمياه وبين غيرها،لا سيما وأن بعض الأحياء المطلة على النهر كانت مظلمة بسبب تناوب قطع الكهرباء عن أحياء بغداد عدة مرات بالليل والنهار كل مرة من ساعتين إلى ثلاث ساعات كل

يوم، مما كان يجعل نهار الناس وليلهم مع حر العراق وقيظها فى هذا الوقت من العام لا يطاق، هذا ما كان يحدث فى بغداد، أما ما كان يحدث فى المدن الأخرى فهو العكس تماما، حيث تأتى الكهرباء للناس وكذلك المياه ربما ساعتين أو ثلاثا على الأكثر فى النهار، ثم يقضون ليلهم ونهارهم فى القيظ، أما القرى فإنها كانت تعيش عيشة العصور الوسطى، وما أصعب ذلك لا سيما على الأطفال وعلى المرضى وهم كانوا يشكلون نسبة كبيرة من الناس ممن ينتمون إلى الأغلبية المسحوقة من العراقيين، أما الأغنياء فلديهم مولدات الكهرباء التى لا تشعرهم بما يشعر به الآخرون، انتقل بنا الحديث بعد ذلك عن هؤلاء المسحوقين، ثم قضيت باقى الأيام مشغولا بهؤلاء حتى وقفت على حقائق مرعبة، ومعلومات مخيفة عما آل إليه مصير أكثر من عشرين مليون عراقى كانوا يعيشون تحت الحصار والقهر، هذه المعلومات نفسها هى التى دفعت "دينيس هاليداى" منسق برنامج النفط مقابل الغذاء إلى الاستقالة من منصبه عام 1998 احتجاجا على ما يفعل بالشعب العراقى، حيث وقف فى نقابة الصحفيين فى مصر محاضرا فى الخامس من يوليو عام 2000 مبينا أبعاد ما يحدث فى العراق وكان مما قاله: "إن الممارسات الغربية بصدد العقوبات المفروضة على العراق عنصرية غربية توجه ضد هذه الأمة وتمهد لصعود قوة مدمرة جديدة فى ضوء حجم الإذلال الذى يمارس على العراقيين أسوة بما حدث فى ألمانيا قبل صعود الرايخ الثالث" وأضاف هاليداى: "إن هذه العقوبات تدمر الأساس الإنسانى وحقوق الإنسان الأساسية التى أقيم عليها ميثاق الأمم المتحدة".

وهذا ما وقفت عنده طويلا "تدمير الأساس الإنسانى" للشعب العراقى.

لقد تحاورت وتكلمت ومشيت وناقشت وحكيت مع العشرات من العراقيين آنذاك، وكنت فى المحصلة أشعر أنى أتعامل مع أناس مدمرين من الداخل، لقد أصبحت الإنسانية هنا منهارة ومسحوقة ومتصدعة ومدمرة... حينما مررت آنذاك على ساحة السعدون التى كانت ملتقى الناس فى المساء قبل الحصار كانت شبه فارغة إلا من قليل من الناس، وحينما تحدثت إلى أحدهم وكان القليل هو الذى يمكن أن يتحدث خوفا من النظام آنذاك من ناحية ومن كثرة الهم من ناحية أخرى، لكن الرجل حينما استأنس لى شعرت بأن الهم الذى بداخله يكاد ينفجر من جوانبه، وأنه لم يعد فيه

روح الإنسان ومشاعره، وإنما بعض بقاياه وأطلاله.. لقد انهارت الطبقة الوسطى فى العراق، تلك الطبقة التى كانت تشكل الجانب الأكبر من الشعب العراقى، وظهرت آنذاك طبقة انتهازية تبتز الناس وتسلبهم مقدراتهم هى طبقة رجال الأعمال الجدد الذين أفرزتهم الحرب وأفرزهم الحصار، وهؤلاء كانوا يشكلون فئة قليلة فى المجتمع العراقى لكنهم كانوا يقومون بعمليات الاستيراد والتصدير، وأغلبيتهم كانت تتعامل مع دول مثل تركيا وإيران وسوريا والأردن وكلها دول مجاورة للعراق.. إضافة إلى دول أخرى مثل روسيا وفرنسا وإيطاليا وبعض دول أوروبا الشرقية ودول الشرق الأقصى بما فيها الصين، لذلك فإن من أكبر المتناقضات التى ظهرت فى العراق إبان الحصار أنه رغم الفقر الشديد والدخل المتدنى للغاية الذى كان يعيش فيه الناس إلا أن كل شيء تقريبا كان متوفرا فى الأسواق، ابتداء من أجهزة التليفزيون مرورا بالسيارات وانتهاء بمستحضرات التجميل الغربية، لكن هذه البضائع لم يكن يستطيع شراءها من المقيمين فى العراق إلا رجال النظام وطبقة الأغنياء الجدد الذى كانوا يوصفون بأنهم يستطيعون شراء كل شيء، وقد التقيت مصادفة فى أغسطس 2000 مع ثلاثة من هؤلاء ودار حوار طويل بينى وبين هؤلاء الثلاثة من محدثى النعمة ومن تجار الحصار، لكنهم كانوا متحفظين إلى أبعد الحدود فى الإجابة على تساؤلاتى لأن الأمر باختصار كان وراءه رجال فى النظام، فالفساد كان مستشريا إلى أبعد حدود وكان كل شيء فى الدولة يوزع على الكبار والكبار يوزعونه على صغار تحتهم والصغار يبحثون عمن هو أصغر حتى يصلوا إلى الشعب المنكوب فى النهاية فتكون دماؤه قد تم مصها عشرين مرة!!

وقد كان هؤلاء الأغنياء الجدد قبل الحرب يشكلون طبقة مميزة فى المجتمع العراقى بسياراتها الفارهة والجديدة، ومظاهر الحياة المترفة والإنفاق بلا حدود على الكماليات وعلى كافة مظاهر الحياة، ففى الوقت الذى لم تكن فيه أغلبية العراقيين تستطيع تدبير مبلغ أربعمائة ألف دينار -وهى رسوم مغادرة العراق- لأن الرواتب كان متوسطها عشرة آلاف دينار، كان هؤلاء يقطعون الطريق بين عمان وبغداد بشكل دائم، بل إن الكثيرين منهم أصبحت لهم بيوتهم فى عمان فى الأردن، وكان ولازال هناك فئة مميزة من العراقيين الأثرياء تقطن منطقة عمان الغربية وتعيش فى قصور فارهة فى الوقت

الذى رأيت فيه كثير من العراقيين يبيعون أثاث بيوتهم فى أسواق بغداد حتى يسدوا رمق أسرهم وأولادهم.

وقد كان التهريب باختصار شديد والعمل من خلال حصص مشروع "النفط مقابل الغذاء" التى كان رجال النظام الكبار يلعبون دورا كبيرا فى توزيعها رغم رعاية الأمم المتحدة للمشروع كانت هذه الأشياء مصدرا رئيسيا للثراء لدى هذه الطبقة الجديدة التى يمكن أن يطلق عليها " أثرياء الحصار" فهؤلاء كانوا يتاجرون فى كل شيء، والمهم لديهم هوأن تتضخم ثرواتهم كل يوم حتى ولو من دماء الناس، ووفقا لتقارير الأمم المتحدة آنذاك فإنه مقابل كل شاحنة كان يتم تفتيشها من قبل مراقبى الأمم المتحدة عند عبور نقطة الحدود التركية ــ العراقية، فإن هناك مائتى شاحنة أخرى كانت تدخل العراق دون تفتيش، وما كان يحدث على الحدود العراقية التركية كان يحدث على الحدود العراقية الأردنية والسورية والإيرانية، ولم تكن توجد أى صعوبة لدى هؤلاء فى تمرير ما يريدون بعدما كانت الرشوة إفرازا طبيعيا للحصار وللفساد الذى كان يبثه النظام فى حياة الناس، فمن خلال الرشوة كنت تستطيع أن تحصل على كل ما تريد، لذلك فقد كان كل شيء متوفرا فى العراق لمن كان يملك المال، ولأن المال لم يكن متوفرا إلا فى يد من كان يعمل فى الخارج أو لديه عائل فى الخارج أو يعمل بالتجارة أو له موارد غير عادية، لذلك فقد كانت طبقة "أثرياء الحصار" هى الطبقة المميزة التى لا تشعر بالحصار بل كانت المستفيد الرئيسى منه وكانت لا تتمنى زواله، وبالتالى فقد كانت تتحمل جانبا من المسؤولية عما كان يحدث للشعب العراقى.

العراقيون فى ظل حكم صدام

رغم حرارة الصيف اللاهبة فى بغداد فى شهر أغسطس 2000 إلا أن شارع المتنبى كان له جو آخر، وشارع المتنبى هو شارع العلم والثقافة والمعرفة والمؤلفين والناشرين والمبعدين فى بغداد، شارع الكتب والمكتبات.. نزلت إلى شارع المتنبى فوجدته تحول إلى ما يشبه الأطلال وقد ناله الكثير مما نال العراقيين تحت الحصار، فقد كانت قسوة الحصار المضروب على اثنين وعشرين مليون عراقى تتجسد هنا بوضوح فى عيون أهل الثقافة والإبداع وهم ينظرون إلى كل عابر فى السوق ويتمنون عليه أن يمد يده إلى أى كتاب ليشتريه، وفى معظم الأحيان بالثمن الذى يحدده هو، وسرعان ما اكتشفت بعد جولة فى الشارع أن كثيرا ممن يعرضون كتبا على قارعة الطريق ليسوا باعة كتب فى الأصل ولكنهم بعض أساتذة الجامعات أو مؤلفين أو مثقفين وهذه مكتباقم الخاصة، دفعهم الفقر والحصار وضيق ذات اليد والحاجة إلى أن يقفوا بها على قارعة الطريق حتى يحصلو على بعض ما يستطيعون به مواصلة الحياة، وعلى بعض ما يسدون به رمق أولادهم وحاجة عائلاقم، شعرت بأن نفسى ترتعد رغم حرارة الجو، وأن قلبى ينتفض وأنا أستمع من أحدهم إلى الظروف التى اضطرته إلى أن يحمل مكتبته الخاصة ليبيعها بأى ثمن على قارعة الطريق بعدما أصبحت الكتب لا قيمة لها إلى جوار اللقمة والحاجة الملحة لضرورات الحياة، شعرت بعد قليل بأن الدموع تكاد تخنقنى حينما ألح علىّ الرجل أن أشترى بعض الكتب التى كنت أقلب فيها، لكنى أحسست بأن الرجل كان يعرض علىّ أن يبيعنى شيئا من نفسه، لذلك شعرت بحاجز شديد يمنعنى من أخذ شيء من الكتب منه، فسألته متعمدا عن شيء لم أجده معروضا لديه، وإذا به يرجونى أن أنتظره لعشر دقائق فقط حتى يذهب إلى بيته ليحضره، وخوفا من أن أذهب قال لى: هلا جئت معى إلى البيت فإن مكتبتى مليئة بكل ما تريد من كتب، عندئذ فقدت

السيطرة على دموعى دون أن يعرف الرجل ماذا دهانى أو ما الذى كان يعتمل فى نفسى!!

شعرت أنى تجمدت رغم حرارة أغسطس اللاهبة لم أستطع أن أتكلم، و لم أستطع أن أمد يدى على شيء من حاجة الرجل، وزاد من آلامى حين رفض أن يأخذ منى مالا دون مقابل كمساعدة، فمشيت وأنا لا أكاد أرى شيئا أمامى وكأن الدنيا فرغت من كل فيها من الناس بينما كان الرجل ينادينى ويرجونى أن أشترى منه أى كتب بالسعر الذى أراه وبالثمن الذى أحدده.. لكنى كنت أشعر أنى كمن سيشترى شيئا من جسد إنسان آخر.. مشيت أنظر فى وجوه الناس محاولا أن أجد إنسانا غير متصدع فلم أجد، لقد كانت الكرامة والكبرياء تشكل أساس حياة الناس فى العراق، ولا سيما هذه الطبقة المتوسطة من الناس لكن الحصار على مدار عشر سنوات فى ذلك الوقت جعل الإنسان العراقى يتصدع حتى أن البروفيسور "وهيب الكبيسى" أستاذ علم النفس فى جامعة بغداد يقول فى دراسة نشرها آنذاك "إن 50% من العراقيين يعانون من الاكتئاب".

مشيت فى شارع المتنبى إلى نهايته وأنا أحاول أن أ جمع أطراف نفسى، ووقفت أمام إحدى المكتبات وسألت البائع عن بعض الكتب التى أريدها عن مراحل تاريخية حديثة للعراق، ودار بينى وبينه نقاش حتى يعرف ماذا يريد تحديدا دون حاجتى لكتب أخرى مما يسعى البائعون عادة لعرضها على المشترين.. أثناء ذلك اقترب منى أحد الذين كانوا يقلبون فى الكتب مثلى وأعتقد أنه كان ينصت لحديثى مع البائع أكثر من انشغاله بالكتب التى كان يقلب فيها وهمس فى أذنى قائلا: أستاذ... كل ما تبحث عنه من كتب متوافر لدى فأرجو أن تتبعنى بهدوء إلى الخارج، سألت الرجل هل أنت بائع أو ناشر هنا؟ قال وهو يخفى وجهه حياء ويتحدث بصوت لا يكاد يسمعه سواى.. لا يا سيدى، أنا أستاذ جامعى وكاتب، ولكن ما فائدة الكتب لدى وأنا لا أكاد أجد ما أطعم به أولادى، ومكانتى فى المجتمع لا تسمح لى بأن أحمل كتبى وأقف بها هنا فى الشارع مثلما فعل ويفعل كثيرون من زملائى وأصدقائى، لذا فإنى ألجأ إلى المرور هنا باحثا عن بعض الذين يبحثون عن كتب بعينها مثلك ولا يجدونها، فأعرض عليهم بعض ما لدى علنى أستطيع من خلال ذلك أن أدبر بعض حاجات أبنائى من خلال

بيع بعض كتبي، قلت له متسائلا وأنا أعرف معزة الكتب عند أهلها، أليس هناك وسيلة أخرى تحصل بها على المال وتحفظ من خلالها كتبك، فمن المؤكد أنك بحاجة إليها؟ قال: إن معظم زملائي يعملون فى أكثر من وظيفة غير الجامعة حتى أن بعضهم يعمل سائق تاكسي بعد انتهاء عمله حتى يدبر أمر معيشته ومعيشة أسرته، وبعضهم يحاول أن يعمل بالتجارة أو فى عمل مسائى، لكن هناك آخرين وأنا منهم لا نحسن سوى عملنا، والحياة بين الأوراق والكتب والطلبة والصفوف الدراسية، ولكن ماذا نفعل وقد جارت علينا الأيام، لقد سجنتنا أمريكا من الخارج وسجننا النظام من الداخل، وأصبح الخوف يطاردنا حتى فى أحلامنا، ولكن المصيبة أنه وكأن أحدا من العرب لا يدرى ماذا حل بنا، لماذا لا يكسرون هذا الحصار فيحررونا من سجن أمريكا وسجن النظام حتى نعود آدميين مثل البشر، وها نحن نضطر لبيع أغلى ما نملك لا لشيء وإنما من أجل أن نعيش... صمت الرجل قليلا وأنا أتعجب لجرأته فى مثل هذه الأجواء ثم سألنى قائلا: هل سترافقنى لتحصل على ما تريد من كتب؟ لم أستطع أن أتكلم فقد كنت مخنوقا.. أعاد الرجل سؤاله على فلم أستطع أن أتكلم.. لم أستطع أن أتكلم لأن الدموع وحدها هى التى أصبحت تتكلم فى شارع المتنبى.

حينما مددت بعدها يدى بمبلغ بسيط من المال إلى أحد الذين رافقونى أثناء تجوالى فى بغداد، لم يمد الرجل يده وأطرق برأسه إلى الأرض وسرعان ما اغرورقت عيناه بالدموع، فأحسست بحرج بالغ وسرعان ما تداركت الموقف وقلت له: هذا عون من أخ لك وليس شيئا آخر فأنا أعرف أن هذه الضائقة التى يعيشها العراقيون لن تطول وسوف تعود الأيام إلى أفضل مما كانت عليه.

لم تغير كلماتى شيئا كثيرا من الواقع الذى يعيشه مرافقى والذى يعيشه عموم العراقيين الذين كانت حياتهم إلى حد ما حياة رغدة قبل أغسطس عام 1990، فرغم الحرب العراقية الإيرانية التى استمرت ثمانى سنوات من عام 1980 إلى عام 1988 إلا أن العراق لم يكن تحت الحصار لكن غزو العراق للكويت فى أغسطس عام 1990 أدى إلى فرض الحصار على العراق مما شكل نوعا من أنواع القتل البطيء للإنسان العراقى فقد كانت حياة الطبقة الوسطى التى تمثل أغلبية العراقيين ترتكز على تحقيق ثلاثة أهداف أولها الشهادة الجامعية وثانيها منصب واعد فى الجهاز البيروقراطى للدولة،

يدر دخلا ثابتا وعملا ينتهى عند الثانية بعد الظهر وثالثها مصاهرة من عائلة ذات مكانة جيدة، لكن هذه الأهداف تلاشت كلها بعد بدء الحصار على العراق عام 1990، فلم يعد التحصيل العلمى أو الشهادة الجامعية أو حتى شهادة الدكتوراه تمثل ضمانة لصاحبها لكسب المال، فأصبح العشرات، أو مئات الآلاف من العراقيين لا تمثل الشهادات العليا بالنسبة لهم أكثر من ورقة قضى شطرا من حياته من أجل تحصيلها، أما الوظائف حتى ولو كانت مرموقة كدرجة الأستاذ الجامعى على سبيل المثال فلم تعد سوى مسمى لا يحوى تحته أية امتيازات ويكفى أن راتب الأستاذ الجامعى لايزيد فى هذا الوقت فى حده الأعلى عن عشرة دولارات ناهيك عما دونه من وظائف، ونتيجة لتوقف المشاريع فى القطاعات الحكومية والأهلية فى الدولة بسبب الحصار فقد تم تسريح ما يقرب من ثلثى القوى العاملة فى البلاد مما أدى إلى ازدياد نسبة البطالة، ومن ثم تمزق الحياة العائلية وانتشار السرقة والعنف والرشوة والتهريب وجنوح الأحداث والبغاء إلى غير ذلك من صور الانهيار النفسى والاجتماعي الأخرى.

أما الأسر العفيفة فلم تترك وسيلة تحافظ بها على عفافها إلا اتبعتها، وقد رأيت وسمعت صورا لا تصدق عن الحياة الأسرية للعراقيين فى ذلك الوقت، فكثير من الأسر باعت أجزاء من أثاث بيتها ولم تبق إلا ما هو ضرورى والأقسى من ذلك أن أسرا كثيرة اضطرت لبيع الأبواب الداخلية للغرف ولم تبق إلا على الباب الرئيسى للبيت وأصبحت الأسواق الشعبية يباع فيها كل شيء يمكن أن يتخيله الإنسان من حاجات الناس الخاصة وممتلكاتهم التى ربما ورثوها عن آبائهم، وقد تجولت فى أحد الأسواق ورأيت تحفا وتذكاريات يعرضها أصحابها بأثمان قليلة بعدما أصبحت بالنسبة لهم لا تمثل إلا ما تأتى به من المال لسد الرمق، وقد ذكرنى هذا بما رأيته فى العاصمة البوسنية سراييفو عندما عايشت الأحداث بها وهى تحت الحصار الصربى عام 1994 ورأيت نفس الأسواق التى أفرزها الحصار وقد خرج الناس بمقتنياتهم الخاصة والتى كانت تمثل ذكريات من الحياة ومن الآباء ليبيعوها على قارعة الطريق بثمن بخس حتى يستطيعوا أن يواصلوا الحياة.

أعجبنى طاقم نحاسى قديم يزيد عمره عن مائتى عام شعرت فيه بحياة الأجيال التى مرت عليه والأيدى التى لامسته والأكف التى تداولته فوقفت أمامه وقلبت فيه فأخذ

صاحبه يحكى لى تاريخه محاولا بيعه لى بأى ثمن وأنا أخشى دائما أن آخذ شيئا به ذكريات من حياة الآخرين، عرض الرجل على سعرا فى البداية ثم أخذ يخفض فى سعره وأنا أمتنع حتى قلت لن آخذه لأننى لا أحب أن أشترى شيئا به ذكريات عنك أو عن عائلتك، فقال: إنه ليس لى ولكننى اشتريته من عائلة قبل مدة وشعرت بأننى بحاجة إلى ثمنه أكثر منه الآن فقررت بيعه...

هكذا كان الناس يبيعون خصوصياتهم على قارعة الطريق فى العراق حتى يعيشوا...

أما الهدف الثالث وهو الزواج من أسرة ذات مكانة فرغم حرص كثير من العائلات على تماسكها بسبب قسوة الحصار إلا أن الإعراض عن الزواج أصبح هو الشائع فى ظل وصول المهور إلى نصف مليون دينار أى حوالى مائتين وخمسين دولار فقط، وهذا آنذاك مبلغ ضخم إلى معظم العراقيين، فقد أصبحت الفتاة العراقية تصل إلى آخر العشرينيات أو الثلاثينيات من العمر دون أن يتقدم إليها أحد فى الوقت الذى عاشت فيه حلم أن تصبح زوجة وأما، ودون خوض فى التفاصيل الناجمة عن ذلك فقد اتسع نطاق إقامة علاقات خارج إطار الزواج ومن ثم تدمير البناء النفسى والاجتماعى والأسرى وقد اطلعت على إحصاءات هائلة فى هذا المجال غير أن الغالبية من الناس لازالت تكافح وتصر على ألا تنزلق وحينما سألت أحد الشباب الذين رافقونى فى عملى عن سبب تأخره فى الزواج وقد تجاوز سنه الخامسة والثلاثين فقال ببساطة يكفى أن لدى قدرة على أن أعول نفسى الآن فكيف أستطيع أن أعول عائلة؟ ! وبقى أن أقول لك إن أغلب المتزوجين يشعرون بالعجز والإحباط لأنهم أصبحوا عاجزين عن إعالة عائلاتهم.. لقد تصدع الإنسان العراقى من هول ما رأى.

بغداد بعد تهديدات بوش

مشيت فى شوراع بغداد وأحيائها العتيقة بين الرصافة والكرادة والكرخ والأعظمية والمنصور والصالحية وعرجت على أحيائها وشوارعها الحديثة مثل شارع 14 رمضان وشارع الجمهورية وغيرها أطالع وجوه الناس وأقرأ ما خلّفته عليها سنوات الحصار الطويلة والتهديدات الحديثة التى أطلقها الرئيس الأمريكى جورج بوش فى 25 نوفمبر 2001 بأن العراق ربما تكون هدفا تاليًا بعد أفغانستان إذا لم تسمح بعودة المفتشين الدوليين بعدما أغلقت بغداد الباب أمام عودتهم عام 1988 كان ذلك خلال النصف الثانى من نوفمبر والأول من ديسمبر 2001 وكنا وقتها فى شهر رمضان المبارك وكان الناس ينتظرون العيد، لكن الوضع الأقتصادى آنذاك مع اقتراب العيد جعل الناس فى صراع شديد مع أنفسهم ومع الحياة بين ضيق ذات اليد، ومحاولات إدخال بعض من السرور فى نفوس أبنائهم الصغار، بعض محلات الملابس عليها إقبال نسبى وكثيرون أو الأغلبية كانت لا تملك أى فرصة لإدخال السرور على أى من الأسرة فيما اكتفى آخرون بالشراء للصغار.

رغم انشغال الناس بهمومهم اليومية آنذاك إلا أن كل من سألتهم عن تهديدات بوش للعراق كانوا متخوفين ليس من القصف -وقد تعودوا عليه منذ وقوع العراق تحت الحصار فى أعقاب غزوها للكويت فى أغسطس من العام 1990- وإنما بالدرجة الأولى من العودة لانقطاع المياه والكهرباء والتدفئة لا سيما وأن ليالى شتاء العراق قاسية وشديدة البرودة، وأصعب شيء على الناس أن يفقدوا مصدر المياه الصالحة للشرب أو الكهرباء فى مجتمع كان مترفا قبل سنوات معدودة، وقد اطلعت آنذاك على تقارير كثيرة منها تقرير لبرنامج الصحة العالمى ذكر أن نسبة الذين يحصلون على مياه

صالحة للشرب فى المناطق الحضرية فى العراق لا تزيد عن 50% فيما كانت النسبة 90 % قبل الحصار، أما فى الريف العراقى فإن النسبة كانت لا تزيد فى هذا الوقت عن 32% أما الكهرباء فإن العراقيين يعانون من نقص فى القوة الكهربائية تزيد نسبته عن 40% عما كان عليه قبل الحصار، وكل زائر للعاصمة بغداد يستطيع أن يلمس المعاناة اليومية لانقطاع الكهرباء على مدار اليوم بين أحياء بغداد المختلفة بالتناوب، وأذكر أن الزملاء فى مكتب قناة الجزيرة فى بغداد قاموا بجهد كبير للتأكيد على إدارة الكهرباء فى بغداد عدم قطع الكهرباء عن المنطقة التى يقع بها مكتب الجزيرة أثناء بث حلقة برنامج "بلا حدود" التى أجريتها مع نائب الرئيس العراقى طه ياسين رمضان والتى أجريتها يوم الأربعاء 28 نوفمبر 2001 ومع ذلك فقد أعدوا مولدات كهرباء إضافية تحسبا لانقطاع الكهرباء فى أى وقت.

ورغم أن (المادة 54) من معاهدة جنيف تنص على تحريم أى اعتداء على محطات مياه الشرب وأنظمة الرى فى الحروب إلا أن القوات الأمريكية وحلفاءها دمرت سدود المياه العراقية الثمانية المتعددة الأغراض، وكذلك أنظمة السيطرة على الفياضانات وأنظمة الرى ومحطات توليد الكهرباء ومحطات الصرف الصحى، وكل ذلك أدى إلى عواقب صحية وخيمة يعانى الشعب العراقى من آثارها وسيظل يعانى لعشرات السنين، وقد زاد تهديد بوش فى هذا الوقت مخاوف الناس من تدمير ما تم إعادة بنائه من هذه البنى التحتية وهو يمثل أو يوفر نصف حاجة العراقيين، وقد عبرت وزارة الصحة العراقية عن مدى تدهور الوضع الصحى لدى العراقيين فى تقرير أصدرته فى أكتوبر من العام 2001 قالت فيه "إن أكثر من عشرة ملايين مواطن عراقى يعانون من سوء التغذية"، وأشارت إحصاءات منظمة اليونيسيف المعنية بالطفولة والتابعة للأمم المتحدة أن "أربعة آلاف طفل عراقى يموتون شهريا بسبب سوء التغذية، ومجموع الأطفال الذين ماتوا بسبب الحصار حتى أكتوبر 2001 يزيد عن نصف مليون طفل عراقى".

أما الذين تكتب لهم الحياة فإنهم يعيشون حياة بائسة للغاية، وقد استوقفت بعض الأطفال الذين يملئون الشوارع، ويحملون بعض الأغراض البسيطة فيعرضونها للبيع إما للمارة أو سائقى السيارات وسألتهم عن حياتهم وعائلاتهم، فسمعت منهم قصصا

مبكية و لم أجد أيا منهم ملتحقا بالمدرسة، ولأن التعليم يمثل القيمة الحضارية والرؤية المستقبلية لأى أمة من الأمم فقد عدت لتقارير مختلفة لمعرفة حقيقة الواقع التعليمى فى العراق غداة تهديدات بوش له فى ذلك الوقت فوجدت تقريرا حديثا آنذاك لمنظمة اليونسكو أشار إلى أن الإقبال على المدارس فى العراق انخفض إلى نسبة 3% فقط بعدما كانت معدلات التعليم فى العراق وصلت إلى 80% عام 1987، والآن أصبحت حالة 83% من مدارس العراق غير صالحة للدراسة.

وقد سألت أحد الأطفال الذين كانوا يقفون عند مفترق الطرق ليبيعوا أغراضا للسيارات فقلت له: لماذا لا تذهب للمدرسة؟ أما تفكر فى المستقبل؟ نظر إلىّ باستغراب شديد وكأنى قادم من كوكب آخر ثم قال لى: أى مستقبل؟ إننى لا أفكر إلا فى هذه اللحظة التى أتمنى أن تشترى منى شيئا مما أحمل وتتركنى حتى أبحث عن "زبون" آخر.. امتلأت نفسى بالكآبة والانقباض ثم صادفت بعض الشباب الذين تعرفوا على من خلال بعض برامجى التى كان يعيد تلفزيون الشباب بثها بعض قص وحذف نصفها أحيانا -حيث كانت الأطباق اللاقطة ممنوعة آنذاك فى العراق- فقلت لهم: كيف تنظرون للمستقبل؟ نظر بعضهم على بعض ثم قال لى أحدهم: أى مستقبل؟ هنا فقط تفكر فى يومك،وكيف تستطيع أن توفر فيه حاجاتك دون أن تمد يدك إلى الناس... لم يفارقنى الهم طوال أيام بقائى فى بغداد لكن كانت هذه آنذاك هى صورة العراق التى يريد جورج بوش أن يدمرها من جديد.

عقـــيدة بـــوش

بدأت معالم العقيدة السياسية الجديدة للرئيس الأمريكى جورج بوش تتضح شيئا فشيئا بعد الخطاب الذى ألقاه فى يونيو 2002 أمام حشد من العسكريين الأمريكيين فى كلية ويست بوينت حينما قال " إن من حق الولايات المتحدة أن تسدد ضرباتها الوقائية إلى أى أمة تعتقد أنها تمثل خطرا عليها.. إن أمريكا تملك قوة عسكرية غير خاضعة لقانون المنافسة، وترغب فى الاحتفاظ بهذه القوة، وهذا يجعل سباقات التسلح التى عرفتها حقب ماضية غير واردة "

بهذه العبارة وضع بوش الولايات المتحدة فى صدر العالم وفرضها القوة التى لا تقهر ثم حدد الهدف الأول وهو العراق قائلا: "إن بلدانا مثل العراق أخطر من التعامل معها بسياسة الاحتواء فقط.. وإن الردع وهو الرد العنيف والجبار ضد الأمم لا يعنى شيئا بالنسبة لشبكات ليست لديها أمم أو مواطنون تدافع عنهم، أما الاحتواء فإنه غير ممكن حينما يملك الطغاة من الحكام أسلحة الدمار الشامل ويستطيعون إطلاقها بواسطة الصورايخ أو تسليمها سرا إلى المنظمات الإرهابية الحليفة لهم"

كانت هذه هى العناوين الرئيسية لكل الصحف الأمريكية فى اليوم التالى لخطاب بوش الذى كان بداية لحملته ضد العراق، وبداية لتكليف فريق عمل كبير يعمل داخل الإدارة لصياغة ما يسمى بعقيدة بوش التى نوقشت فى أعقاب الخطاب أمام الكونجرس حيث تم إقرارها ومن ثم إجبار العالم على الانصياع لها والإيمان بها، ومن بين مبادئ هذه العقيدة كما جاءت فى هذا الخطاب "إن العالم لا يواجه صدام حضارات ولكن يشهد صراعا بين الأمم لتطبيق قيم مشتركة تقوم على الحد من نفوذ الدولة وسلطتها،

واحترام النساء، والملكية الخاصة، وحرية التعبير، والعدالة للجميع والتسامح الدينى، وعلى الولايات المتحدة أن تساعد الدول الأخرى على تحقيق هذه القيم".

إنه دين جديد للبشرية يبشر به الرئيس بوش، بل يفرضه على العالم من منطلق الهيمنة التى لا تخضع لقانون المنافسة وإنما قانون الخضوع "ومن ليس معنا فهو ضدنا"، ويبدو جليا أن الذين كانوا ينظرون إلى هذه الكلمات على أنها مجرد جمل فى خطابات بوش واهمون، فقد تمت صياغتها وعرضت على الكونجرس وأقرها وأعلنت كمذهب وعقيدة جديدة للعالم الحر على الجميع أن يؤمن بها وإلا.... لكن يبدو أن عقيدة بوش هذه التى تلقى تأييدا داخل الإدارة لاسيما من الصقور الذين وضعوها، والذين يعملون على الترويج لشركات صناعة السلاح التى يعملون مستشارين لها، أو الداعمين لإسرائيل من خلال انتماءاتهم العقائدية لها، تلقى رفضا لدى قطاع واسع من المسئولين السابقين والمؤرخين والباحثين الذين يرون أن الولايات المتحدة فى طريقها إلى النهاية ومن أبرز هؤلاء البروفيسور "بول كيندى" أبرز المؤرخين الأمريكيين ومؤلف كتاب "صعود وأفول القوى العظمى" حيث نشر مقالا مطولا فى صحيفة "الفاينشال تايمز" البريطانية يوم الثلاثاء 3 سبتمبر 2002 حذر فيه من جنون العظمة التى تعيشها أمريكا وقال: "من الصعب على كباحث فى التاريخ أن أعتقد بأن الولايات المتحدة لن تتعرض فى وقت من الأوقات لعدد كبير من الإصابات أثناء لعبها دور"الشرطى الاستعمارى" فى واحدة من العمليات العديدة والشائكة التى تنجر إليها، ثم مع اكتشاف تقنيات جديدة فى دول مثل الصين والهند فى العقود الزمنية القادمة ربما عثرت هذه الدول على وسائل تبطل مفعول الهيمنة العسكرية الأمريكية، على مر التاريخ جرى تحييد كل ثورة عسكرية هجومية بردود فعل دفاعية جديدة، فلماذا لا تكون الثورة الحالية مختلفة عن سابقاتها؟ " وكأن كيندى يرد على بوش فى مبادئ عقيدته هذه تماما مثل جيسكا ماثيوز رئيسة منحة كارنجى للسلام العالمى أبرز معاهد التفكير فى الولايات المتحدة التى قالت فى تحقيق نشرته الواشنطن بوست فى 2 سبتمبر 2002 "إن رؤية بوش للنظام العالمى الذى يدار وفقا للمصالح الأمريكية إنما يعتبر بمثابة روما الجديدة، وإن قراءتى للتاريخ تبين أن هذا النظام لن ينجح، ويبين التاريخ أن الدول جميعها تتحد ضد الدولة الأقوى وتتآمر عليها". وأعود إلى بول كيندى الذى يقول ردا على العجرفة العسكرية لبوش بعدما تحدث عن حجم الإنفاق العسكرى

الأمريكى فى الفترة القادمة "فكلما ازداد إنفاق البنتاجون على أعمال البحث والتطوير لتصبح القوات المسلحة فى البلاد أقوى من أى جيش أو سلاح بحرية فى العالم، ازداد لجوء أعداء أمريكا إلى استخدام القوة غير التقليدية لإلحاق الأذى بها... إن القوة العسكرية لا تكفى أبدا لضمان السلام والآمن حتى بداخل أمريكا نفسها، ناهيك عن حماية المصالح الأمريكية فى الخارج".

هذه رؤية الذين يفهمون التاريخ فى أمريكا لكن من يسمعهم أو ينصت لهم أو يستشيرهم؟

لم يعد هناك إلا صوت واحد هو صوت الغطرسة.. غطرسة القوة التى جعلت بوش يدعو العالم إلى أن يؤمن بالعقيدة الجديدة... عقيدة بوش.

الذين وضعوا خطط الحرب

لم يكن كشف صحيفة "ها آرتس" الإسرائيلية فى منتصف نوفمبر من العــام 2002، عن أن اليهوديين البارزين فى وزراة الدفاع الأمريكية ريتشارد بيرل وداغ فايت هما اللذان يرسمان صورة الشرق الأوسط الجديد ومخطط الحرب على العراق بالترتيب مع الحكومة الإسرائيلية أمرا عابرا ففى أعقاب هذا الإعلان بأيام وتحديدا يوم الجمعة 22 نوفمبر 2002 بدأت فى العاصمة الأمريكية واشنطن جلسات "الحوار الاستراتيجى" بين الولايات المتحدة وإسرائيل والذى يهدف إلى دراسة أبعاد ومخططات الحرب القادمة ضد العراق، والتغييرات الإقليمية التى ستجرى بعد الحرب، ورأس الوفد الإسرائيلي مستشار الأمن القومى الإسرائيلي إفرايم هاليفى والوزير دان ميرودور، بينما رأس الوفد الأمريكى ريتشارد أرميتاج نائب وزير الخارجية، وستيف هيدلى نائب مستشارة الأمن القومى وبول وولفويتز نائب وزير الدفاع وهم أبرز الصقور الصهاينة فى الإدارة الأمريكية.

ورغم أن صحيفة "هاآرتس" قد ذكرت فى تقريرها الذى لم تتعرض فيه لهذا الاجتماع: "أن العراق هدف تكتيكى والسعودية هدف استراتيجى أما مصر فهى الجائزة الكبرى فى المخطط الأمريكى" إلا أن مدير جهاز المخابرات الأمريكى السى آى إيه السابق جيمس وولسى أكد بوضوح فى محاضرة ألقاها فى جامعة أكسفورد فى بريطانيا -ونشرت جانبا منها صحيفة القدس العربى التى تصدر فى لندن يوم الأربعاء 20 نوفمبر2002- أن الولايات المتحدة ستعمل على تغيير أنظمة الحكم فى جميع الدول العربية وعلى رأسها السعودية ومصر بعد الانتهاء من العراق، ولعل تحذير الرئيس المصرى حسنى مبارك للولايات المتحدة أثناء افتتاحه دورة مجلس الشعب

المصرى التى ألقاها قبل محاضرة وولسى من أن تسعى لتغيير أنظمة الحكم بالقوة يؤكد أن التهديدات الأمريكية جادة، وقد كشف جاى بوكمان نائب رئيس تحرير صحيفة "أطلانتا جورنال" التى تصدر فى الولايات المتحدة، أن المخطط الذى تقوم الولايات المتحدة بالسعى لتنفيذه الآن وضعه بول وولفويتز نائب وزير الدفاع، وجون بولوتون وكيل وزارة الخارجية، وستيفين كامبون رئيس مكتب البرامج والتحليل والتقويم فى وزارة الدفاع، وإليوت كوهين وديفون كروس عضوان فى مجلس سياسات الدفاع الذى يقدم النصح لوزير الدفاع دونالد رامسفيلد، وأى لويس ليبى رئيس هيئة مستشارى ديك تشينى، نائب الرئيس، ودوف زاخيم مراقب النفقات فى وزراة الدفاع وكلهم من الصهاينة، حينما كانوا جميعا خارج السلطة، وقد انتهوا من مخططاتهم فى سبتمبر من العام 2000 أى قبل عام كامل من أحداث 11 سبتمبر 2001، وأنهم فى تقريرهم تحدثوا عن محور الشر الذى أعلنه بوش مؤخرا والذى يضم العراق وكوريا الشمالية وإيران، كما أنهم طالبوا بزيادة ميزانية الإنفاق العسكرى آنذاك، وهذا ما تحقق بعد 11 سبتمبر بالفعل، كما طالبوا بأن تتحول الولايات المتحدة إلى القوة العظمى المهيمنة على مقدرات العالم، وهذا ما تسعى أمريكا لتحقيقه الآن، وأشار بوكمان فى مقاله الذى نشرته مترجما صحيفة الخليج الإماراتية فى 17 نوفمبر2002 أن هذا التقرير الذى وضعه هؤلاء وهم خارج السلطة قبل أن يصبحوا مسئولين عن صناعة القرار، يسعون الآن لتنفيذ ما وضعوه قبل عام من أحداث 11 سبتمبر، وهم يعتبرون أنفسهم فى تقريرهم مدينون لتقرير قديم وضعه اليهودى الصهيونى بول وولفويتز نائب وزير الدفاع الحالى حينما كان وكيلا لوزارة الدفاع لشئون السياسة فى عهد ديك تشينى حينما كان تشينى وزيرا للدفاع فى إدارة بوش الأب عام 1992، لكنه وجد صعوبة فى تطبيقه آنذاك، فتم تحديثه فى سبتمبر عام 2000 والآن يتم تطبيقه حيث أقر مجلس النواب الأمريكى فى 10 مايو 2002 أضخم ميزانية للإنفاق العسكرى فى الولايات المتحدة وهى 383 مليار دولار أى ما طلبه بالضبط الصهاينة فى تقريرهم حيث طالبوا بزيادة ميزانية الدفاع إلى 3,8% من قيمة الناتج القومى الأمريكى وهى ماتعادل ما اعتمده الكونجرس فى مايو 2000، مما يعنى أن كل ما يحدث الآن خطط له الصهاينة عام 1992 ثم طوروا مخططهم فى سبتمبر 2000 وأنهم يتبوؤون المناصب الهامة والحساسة ومراكز صناعة القرار ووضع خطط الحرب بترتيب

مع صهاينة إسرائيل، حيث يجرّون العرب والعالم إلى مستقبل مظلم، لقد أصبح الصهاينة ببساطة يقفون وبشكل معلن، وراء كل شيء.. وباختصار شديد.. هؤلاء هم الذين وضعوا مخطط الحرب على العراق.

ورغم نجاح الرئيس الأمريكى بوش فى الحصول على تفويض من زعماء الكونجرس فى سبتمبر من العام 2002 باستخدام القوة ضد العراق إلا أنه كانت هناك معارضة حقيقية قوية لسياسات بوش ومخططاته ظهرت بعد ذلك بشكل جلى وذلك من خلال تصريحات ومقابلات ومواقف أدلى بها وعبّر عنها كثير من السياسيين والمفكرين وحتى العسكريين السابقين ولعل الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون كان واضحا حينما طالب بوش بأن يبحث أولا عن مرتكبى أحداث الحادى عشر من سبتمبر ويحاكمهم بدلا من ملاحقة صدام حسين، أما الرئيس الأسبق جيمى كارتر فقد نشر مقالا فى صحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية فى 6 سبتمبر 2002 تحت عنوان "وجه أمريكا الجديد المزعج" انتقد فيها سياسات بوش فى مجالات عديدة، وأكد اعتراضه على ما يقوم به بوش تجاه فلسطين والعراق، وطالبه بالالتزام بالاتفاقات الدولية فى كافة المجالات، أما نائب الرئيس الأمريكيى السابق آل جور فقد شن هجوما كبيرا على سياسات بوش الخارجية، عبر خطاب ألقاه فى نادى الكومنولث فى سان فرانسيسكو ونشرت مقتطفات منه فى 14 سبتمبر 2002 كان مما جاء فيه: "إن بوش بمضيه وحده فى أسلوب رعاة البقر فى مجال الشؤون الدولية يخاطب بمزيد من العداوات فى الخارج وأن بعض الخطوات التى اتخذت باسم الأمن فى الداخل ومن بينها اعتقال المشتبه بهم دون تمثيل قانونى تتعدى المنطق وغير أمريكية" وقد كان استخدامه لعبارة "أسلوب رعاة البقر" به تعريض لبوش الذى ينتمى لولاية تكساس وأضاف جور فى خطابه الذى استمر ما يقرب من خمس وأربعين دقيقة أبدى فيها ازدراءه لبوش وسياسته "إن التركيز على العراق قبل استقرار الوضع فى أفغانستان فإن بوش قضى على النوايا الحسنة الدولية ونشر المخاوف فى العالم، ليس بما ستفعله الشبكات الإرهابية ولكن ما سنفعله نحن؟" أما رئيس الأغلبية الديمقراطية فى الكونجرس توم داشل فإنه تغيب متعمدا عن حضور لقاء بوش مع زعماء الكونجرس بسبب معارضته التى شاركه فيها كثيرون من أعضاء الكونجرس، أما وزيرة الخارجية الأمريكى السابقة مادلين أولبرايت فقد ذكرت فى مقابلة لها مع شبكة تليفزيون بى بى إس الأمريكية أنها ترى أن "العراق قد

تحجم وأنه لا يمثل خطرا على الولايات المتحدة، وشاركها الرأى وزير الخارجية الأسبق "لورانس إيجلبرجر" أما العسكريون السابقون فقد حذر الكثير منهم إدارة بوش من خوض الحرب، وكان من أبرزهم الجنرال "جوزيف هور" الرئيس الأسبق للقيادة المركزية للقوات الأمريكية بين عامى 1991 و1994، وذلك خلال شهادة أدلى بها أمام لجنة القوات المسلحة فى مجلس الشيوخ الأمريكى فى 23 سبتمبر 2002 حيث وصف سيناريو الحرب التى كانت تعد لها واشنطن ضد العراق بأنه أشبه بالكابوس وحينما وصف أحد السيناريوهات الخاصة بالحرب قال "هور": "السيناريو الأشبه بالكابوس هو أن نرى ست فرق من الحرس الجمهورى وست فرق عسكرية ثقيلة مدعومة بالآلاف من قطع المدفعية تدافع عن مدينة بغداد" والنتيجة حسب رأى الجنرال هى "سقوط العديد من الضحايا من الطرفين وكذلك بين السكان المدنيين" والأمر لم يتوقف عند حد السياسيين والعسكريين، وإنما تخطاه إلى معارضة عشرات من الشخصيات المعروفة من الكتاب والممثلين والأكاديميين الأمريكيين الذى دعوا إلى الخروج فى مسيرات احتجاج عبر المدن الأمريكية الكبرى نيويورك ولوس أنجلوس وسان فرانسسكو وغيرها خلال يومى السبت والأحد 5 و6 أكتوبر 2002 لمقاومة "الحرب والقمع اللذين أطلقتهما إدارة بوش على العالم" لكن مع وجود هذه الاعتراضات التى تتصاعد يوما بعد يوم فى الولايات المتحدة وخارجها فإن القرار الحقيقى هو فى يد حفنة صهيونية أمريكية ستعمل كما قال الكاتب البريطانى روبرت فيسك على التسبب فى "اضطرابات سياسية هائلة فى العالم العربى" لأن الأمر كما قال "تيد كاربنتر" رئيس دائرة الدراسات الاستراتيجية فى مؤسسة كاتو للأبحاث فى واشنطن فى حوار نشرته صحيفة الخليج الإماراتية "إن الأمر لن يقف عند العراق وإنما سوف يمتد بعد ذلك إلى إيران ومن غير المستبعد أن يأتى دور سوريا"، ولكن فى ظل كل هذه الاعتراضات فإن المخطط الذى وضعه اللوبى الصهيونى فى الإدارة الأمريكية سوف ينتصر فى النهاية لاسيما وأن أمريكا بالفعل قد شنت الحرب وأصبحت العراق تحت الاحتلال الأمريكى حتى وإن وصف آل جور سياسة بوش بـــ "سياسة رعاة البقر".

ومع الحديث عن الحرب فلابد من الحديث عن تكاليفها لاسيما وأن حلفاء الولايات المتحدة العرب مع اليابان قد قاموا بدفع معظم تكاليف الحرب الماضية ضد

العراق والتي وصلت إلى واحد وستين مليار دولار أو بحسابات اليوم حسب تقديرات "مارك ويبروت" المدير المشارك لمركز البحث الاقتصادي والسياسي فى العاصمة الأمريكية واشنطن بلغت واحدا وثمانين مليار دولار، وقد أعلن رجال وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد أن الحرب قبل شنها سوف تبلغ تكاليفها خمسين مليار دولار إلا أن لورانس ليترى مستشار الرئيس الأمريكى ورئيس المجلس الاقتصادي الوطنى قال فى حديث أدلى به لصحيفة "وول ستريت جورنال" اليمينية التوجه فى الولايات المتحدة نشرته الأثنين 19 سبتمبر 2002 أن الولايات المتحدة بحاجة إلى مائتى مليار دولار لشن حرب على العراق، وأن هذا يمثل حوالى اثنين فى المائة من الناتج القومى الأمريكى البالغ عشرة تريليون دولارفى العام، وقد أجابه وزير الخزانة الأمريكى بول أونيل فى نفس اليوم الذى نشرت فيه "وول ستريت جورنال" مقابلتها بأن الولايات المتحدة يمكنها تحمل التكاليف المادية لأى عمل لازم ضد العراق، وأكد أونيل المعروف بميوله اليمينية أنه "أيا كان القرار النهائى سوف ننفذه بنجاح ويمكننا تحمل التكلفة".

ويأتى هذا الجدل حول التكلفة التى كانت متوقعة للحرب مع جدل بين خبراء الاقتصاد عن مدى تأثيرها على الاقتصاد الأمريكى لاسيما وأن حرب أمريكا السابقة ضد العراق أدت إلى انتعاش الاقتصاد الأمريكى الذى كان يعانى من الكساد فى بداية التسعينيات لأن الحلفاء هم الذين تكفلوا بدفع التكاليف فانتعشت صناعة السلاح والدعم اللوجستى للحرب وقامت الدول الحليفة بعد ذلك بشراء كميات هائلة من السلاح لازال لها دور فى انتعاش الشركات الأمريكية.

ولم يظهر ليترى فى تقديراته وكذلك رجال رامسفيلد فى تقديراتهم الأقل بكثير شيئا عن تفاصيل هذه التكلفة ومجالات إنفاقها وهل هى فقط لحرب خاطفة لإسقاط نظام حكم الرئيس صدام حسين أم للمدة التى يتحدث عنها الخبراء وهى عن نية أمريكا البقاء فى العراق عشرين عاما لضمان تدفق مستمر وآمن ورخيص للنفط، لكن يبدو أن ليترى يتحدث عن تكلفة عام واحد لأنه ربطها بمستوى الدخل القومى لمدة عام، وهذا ما جعل كثيرا من الأمريكيين المعارضين للحرب يؤكدون على أن الدخول فى هذه الحرب له أسباب كثيرة منها أسباب داخلية تتعلق بالفضائح المالية للرئيس ونائبه

ومن هؤلاء مارك ويبروت إلا أن ويليام هوجلان عضو اللجنة المالية فى الكونجرس برر الإقدام على الحرب وقيمة تكاليفها الباهظة بأنها تعود إلى"كلفة الأجيال الجديدة من المعدات العسكرية والصواريخ" التى من المؤكد أن أمريكا سوف تجربها على البشر الذين لا قيمة لهم فى العراق.

وقد دفع إعلان ليترى عن التكاليف إلى جدل ساخن فى حينه حول من سيشارك فى التكاليف لاسيما وأن بريطانيا الحليف القوى لأمريكا أعلنت عن نيتها المساهمة بقسط ضئيل للغاية ربما لايزيد عن مليار جنيه استرليني، لكن أمريكا تتطلع لحلفائها الذين دفعوا الفاتورة السابقة -رغم أنهم يئنون الآن تحت وطأة الديون- بأن يكون لهم الدور الأكبر فى تحمل الفاتورة الجديدة، وإلا فإنهم ربما لن يسلموا بعد ذلك مما لن يسلم منه صدام حسين، لكن من الناحية العملية وبعد انتهاء الجانب الأكبر من الحرب واحتلال أمريكا للعراق فقد قدر الكونجرس النفقات الشهرية للقوات الأمريكية فى العراق بأربعة مليارات دولار وأن نفقات الحرب الفعلية لم تزد عن أربعين مليار دولار لكن مع ذلك فالنفقات فى ازدياد وربما تتجاوز حاجز الأربعة مليارات كل شهر مع زيادة تورط القوات الأمريكية وزيادة الخسائر والفاتورة النهائية لن تعلن الآن على أى الأحوال ولكنها سوف تعلن ربما مع خروج آخر جندى أمريكى من العراق.

فاتورة ما قبل الحرب

الدعوة التى وجهها الرئيس الأمريكى جورج بوش يوم الجمعة 9 نوفمبر 2002 إلى الأمريكيين حتى يفتحوا عيونهم وآذانهم للمساهمة فى منع أى هجمات مقبلة على الولايات المتحدة لم تكن سوى دعوة جديدة لبث مزيد من الخوف فى نفوس الأمريكيين، فمنذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر 2001 والأمريكيون يعيشون حالة رعب وخوف دائمة سببها الرئيسى يعود إلى التحذيرات التى يطلقها المسؤولون الأمريكيون لاسيما المدعى العام جون أشكروفت، والإجراءات المشددة التى أصبح الأمريكيون يواجهونها فى كل شيء حتى أن الطائرات المدنية أصبحت تصاحبها مقاتلات أمريكية فى رحلاتها بحجة حمايتها مما أدى إلى إحجام أكثر من ثلاثين فى المائة من الأمريكيين عن ركوب الطائرات حتى أن بعض الرحلات كانت تقلع وعليها راكب واحد أو راكبين أحيانا،وقد أدى هذا حتى الآن إلى أن تعلن أكثر من مائة وأربعين شركة طيران من بين ثمانية آلاف شركة طيران فى العالم عن إفلاسها بينها شركات عالمية كبرى مثل "سويس إير" و"سابينا" و"كندا ألفين".

كما أن تسعة ملايين شخص ممن يعملون فى مجال السياحة قد يفقدون وظائفهم، وفى الولايات المتحدة وحدها فقد نصف مليون أمريكى وظائفهم فى شهر أكتوبر 2002 وحده والعدد كل يوم فى زيادة، أما الإجراءات التى أعلنتها الولايات المتحدة بخصوص التشديد فى إجراءات التأشيرات لاسيما على الدول العربية والإسلامية والتى أصبحت تشترط وضع المتقدم للتأشيرة فى امتحان عصيب ثم إرسال الامتحان إلى مكتب التحقيقات الفيدرالى "الإف بى آى" لفحص سجل الشخص والموافقة على منحه التأشيرة من عدمه فإنه سيجعل الكثيرين من العرب والمسلمين ممن يدرسون فى

الولايات المتحدة أو من أصحاب المصالح معها فى وضع حرج للغاية، وقد أعلن بالفعل أكاديميون باكستانيون -رغم ما تقدمه حكومة الرئيس مشرف لأمريكا من دعم وتعاون- بأن طلابهم الذين كانوا متوجهين للدراسة فى الولايات المتحدة لم يحصلوا على تأشيراتهم مما يضع مستقبلهم العلمى فى خطر، والخطورة الأكبر أن أمريكا الدولة القائمة على التنوع العرقى والاستفادة من خبرات العلماء فى أنحاء العالم ارتفعت بها دعوات تطالب بعدم السماح للعلماء من غير الأمريكيين بدخول المعامل وإجراء أبحاث بها مما يهدد مستوى التقدم العلمى فى البلاد الذى يقوم غير الأمريكيين بجهد كبير فيه.

كما أن إجراءات الدخول على المنافذ الثلاثمائة فى الولايات المتحدة أصبحت أكثر تعقيدا مما يضر بالتجارة لاسيما مع الدول المجاورة مثل كندا التى تقوم كثير من الصناعات الأمريكية على تعاون معها، فالإجراءات المعقدة على الحدود الكندية الأمريكية دفعت بعض الشركات الأمريكية مثل شركة "فورد" للسيارات إلى الإعلان فى بداية نوفمبر 2002 عن إغلاق خمسة من مصانعها لتجميع السيارات، وكل مصنع من هذه المصانع كان ينتج ما قيمته أربعة وعشرون مليون دولار يوميا، ولنا أن نتخيل ذلك فى مجالات كثيرة حيث إن الإجراءات التى كانت تستغرق ساعة واحدة على الحدود أصبحت الآن تستغرق بين خمسة عشر إلى عشرين ساعة، أما ركاب المطارات فقد أصبحوا يقفون بين ثلاث ساعات وأكثر أمام ضباط الهجرة بعدما كانت أطول فترة من قبل خمسة وأربعون دقيقة ولنا أن نتخيل أن الولايات المتحدة يدخلها سنويا أكثر من خمسمائة مليون شخص معظمهم من الدول التسع والعشرين التى لا يحتاج رعاياها لتأشيرات دخول فيم تمنح الولايات المتحدة سنويا سبعة ملايين تأشيرة جديدة، الآن أصبح كل هؤلاء يواجهون إجراءات معقدة سوف تحول الولايات المتحدة -دون شك- خلال فترة وجيزة إلى دولة مغلقة.

أما التكاليف المالية لفاتورة ما قبل الحرب فإنها حتى أكتوبر 2002 تجاوزت **المائة مليار دولار** ويتوقع حسب تقرير نشرته "لوس أنجلوس تايمز" فى العاشر من أكتوبر 2002 أن تصل مع نهاية عام 2003 إلى **أربعمائة مليار دولار**، وقد أصبحت حتى المدن الصغيرة تساهم فى دفع هذه الفاتورة فولاية كاليفورنيا تتكلف ميزانيتها يوميا مليون دولار كنفقات دفاعية وقد وصلت فى نهاية العام 2002 كما يقول المراقبون إلى

حوالى نصف مليار دولار، أما ولاية أتلانتا فقد أنفقت على العمل الإضافى للشرطة بها منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر 2001 وحتى أكتوبر 2002 أكثر من خمسة عشر مليون دولار، أما رسائل الجمرة الخبيثة فقد دفعت الكونجرس إلى السعى لإصدار قانون يقضى بصرف مبلغ ثمانية مليارات دولار توجه لمواجهة الهجمات الإرهابية البيلوجية حيث أعلنت السلطات أن رسائل الجمرة الخبيثة هى صناعة أمريكية أى أنهم أمام موجة إرهاب داخلى أيضا.

هذه الصورة تؤكد كما قال أحد رجال الشرطة الأمريكيين على أن "الأعباء صارت فادحة دون أن يكون هناك ضوء فى نهاية النفق".

وفى يوليو 2001 نشرت الصحف البريطانية أن العاصمة الأمريكية واشنطن تتصدر قائمة أكبر عواصم العالم انتشارا للجريمة، حيث يصل معدل جرائم القتل فى واشنطن إلى أكثر من 50 جريمة قتل لكل مائة ألف شخص، ومعدل سنوى يصل إلى 500 قتيل فى العام، أما فى الولايات المتحدة بشكل عام فإن معدلات القتل تصل سنويا كما ذكر آلان بيير وإميل بريز فى كتابهما "أمريكا.. العنف والجريمة" الذى صدر فى العام 2000 إلى 6.3 جريمة قتل لكل مائة ألف أمريكى وذلك حسب معدلات العام 1998 فيما تصل إلى 1.6 فقط لنفس النسبة فى فرنسا، وخلال عقود القرن العشرين سجلت الولايات المتحدة أعلى نسبة للقتلى بالعيارات النارية فى العالم بلغت ثلاثة أضعاف فرنسا وأربعة أضعاف كندا، وسبعة أضعاف البلدان الاسكندنافية، وخلال الفترة بين عامى 1960 والعام 2000 لقى 750 ألف أمريكى مصرعهم قتلا بالرصاص، أى بمعدل سنوى يصل إلى 18750 قتيلا للعام، ويملك الأمريكيون 330 مليون قطعة سلاح فى بيوتهم، ويشترون سنويا سبعة ملايين قطعة سلاح مما ينتج حديثا، ويعتبر القتل هو أخطر أنواع الجرائم التى ترتكب فى الولايات المتحدة، وحينما نجحت الولايات المتحدة فى خفض معدلات جرائم القتل وصلت فى العام 1998 إلى 16914 جريمة قتل أى بانخفاض بلغ 7% فقط عن العام السابق 1997، ومن الطبيعى أن تصل مبالغ مكافحة الجريمة إلى مستويات عالية للغاية، حيث تنفق الولايات المتحدة سنويا على علاج ضحايا الجريمة 105 مليار دولار يضاف إليها 350 مليارا تدفع لهم على شكل تأمينات وتعويضات، أما الجهاز الأمنى فإنه ينفق عليه سنويا 120 مليار

دولار، أما السجون التي تضم 666 أمريكيا من كل مائة ألف، وهي النسبة الأعلى في العالم، حيث يقابلها مثلا من الفرنسيين 86 فقط لنفس النسبة، فإن نفقاها السنوية تصل إلى 35 مليار دولار.

هذا الوضع الداخلي المذرى حينما يلتقي مع نفقات خارجية باهظة يضع الولايات المتحدة أمام خيارات باهظة لاسيما وأن غالبية الأمريكيين كما نشرت الاستطلاعات التي نشرت خلال النصف الأول من سبتمبر 2003 تشير إلى رفض أغلبية الأمريكيين الدعم الذى طلبه الرئيس بوش من الكونجرس بمبلغ 77 مليار دولار حتى يواجه الحرب الدائرة ضد قواته بعد تورطها فى العراق، إن فاتورة الحرب فى النهاية لن تكون بسيطة ولكنها ستكون فاتورة باهظة وربما تصل نتائجها فى النهاية إلى النتائج التي جناها الاتحاد السوفيتي بعد تجربته المريرة فى أفغانستان.

"عصابات نيويورك"
إسقاط تاريخى على الواقع

اختلطت الدماء والأشلاء بالثلوج البيضاء فحولتها إلى صورة مرعبة ومخيفة،بعد معركة دموية بالخناجر والسيوف والفؤوس خاضتها عصابة "الأصليون" وهم الأمريكيون البروتستانت الذين ولدوا فى نيويورك وعصابة "الأرانب الميتة" وهم من المهاجرين الأيرلنديين والهولنديين الذين وفدوا على المدينة بداية القرن التاسع عشر، هذه هى المشاهد الأولى للفيلم الأمريكى "عصابات نيويورك" للمخرج الأمريكى الشهير مارتن سكورسيزى مخرج "سائق التاكسى" أحد أشهر الأفلام التى قدمتها هوليود خلال السنوات الماضية، ويتميز سكورسيزى كما يقول النقاد بقدرته البارعة من خلال ما يقدم من أفلام على سبر غور المجتمع الأمريكى وتقديم صورة داخلية عميقة للعقلية الأمريكية من خلال إسقاطات واضحة سواء فى السيناريو الذى عادة ما يشارك فى صياغته أو أداء الممثلين البارع.

ورغم أنى لا أدخل السينما إلا نادرا لأنى لا أجد الوقت لذلك لكن الحملة الضخمة التى صاحبت بداية عرض للفيلم الذى تكلف إنتاجه مائة مليون دولار والذى بدأ عرضه فى لندن فى الثامن من يناير 2003 دفعتنى لتدبير وقت لمشاهدة الفيلم الذى يقترب عرضه من ثلاث ساعات، نجح مخرج الفيلم من خلال بناء استوديو ضخم يعكس صورة المدينة آنذاك مع مؤثرات صوتيه عالية، وتقنيات فنيه رفيعة فى أن يجعل المشاهد وكأنه يعيش هذا الوقت فى نيويورك بالفعل بين عامى 1846 و1863.

قصة الفيلم باختصار تدور حول الصراع الذى نشأ بين عصابتى "الأصليين" و"المهاجرين" فى حى "النقاط الخمس" فى نيويورك عام 1846 حيث يقوم الممثل

الأيرلندى البارع دانيال داى لويس الذى يدعى فى الفيلم بيل الجزار زعيم العصابة الأولى والذى تقمص دوره بشكل بارع بقتل والد النجم الشاب ليوناردو دى كابريو زعيم العصابة الثانية والذى يدعى فى الفيلم أمستردام أمام عينيه وهو طفل صغير حيث يختفى أمستردام ويعود بعد 16 عاما لينتقم لأبيه عبر الحوز على ثقة قاتله بيل الجزار الذى أصبح نفوذه كبيرا بعد انتقال معظم أفراد عصابة المهاجرين ليكونوا تحت إمرته، وينجح أمستردام فى قتل الجزار نهاية الفيلم عبر سلسلة طويلة من التفصيلات والأحداث، كثير من النقاد رأو القصة بسيطة لكن آخرين لم يقفوا عند القصة بقدر ما وقفوا عند الإيحاءات الكثيرة التى ملأ بها سكورسيزى الفيلم، فالمشاهد الدموية الرهيبة التى ملأت الفيلم عبر حوارات مليئة بالانتقام والتشفى وعدم الإنسانية تعكس الأسلوب الذى كونت به نيويورك ومن ثم العقلية الأمريكية وكيف تفكر، كما أن العلاقة التى ربطت الجزار زعيم العصابة مع شريف المدينة، تعكس أيضا كيف تدار أجهزة الحكم وطبيعة العلاقة بين من يحكم الدولة وبين من يحكم الشارع، كما أن الأسلوب الذى دارت به الحملة الانتخابية آنذاك كشف أيضا حجم التلاعب الذى يدور وراء الكواليس ليس اليوم فقط وإنما كأسلوب بنيت عليه العملية الانتخابية فى الولايات المتحدة وكان هناك إسقاط مباشر على الانتخابات الرئاسية الأخيرة حينما قال أحدهم للآخر "المهم ليس هو الانتخابات وإنما إحصاء الأصوات"، فولادة الدولة كانت دموية، والعملية الانتخابية قائمة على التحالفات غير النظيفة،ونفوذ العصابات، ومشاهد المجندين الإجباريين للحرب الأهلية والنعوش التى كانت تأتى بها السفن للقتلى تبين جانبا من العقلية التى لا تستريح دون دماء وقتل وخراب وحرب وموت، ودفع المهاجرين الأيرلنديين آنذاك ليكونوا هم وقود الحرب الأهلية، يعكس أيضا نوعية الجنود الذين يحشدون فى الحروب الأمريكية وكيف أن معظم هؤلاء الذين يحشدون للحرب الآن إما هربوا من أداء الخدمة العسكرية أو لم يؤدوها، ونادرا ما يشارك أبناؤهم فيها.

حينما جاء الجزار بأمستردام ليعلمه كيف يطعن فى مقتل ويدله على المواطن القاتلة فى جسد الذبيحة ويطلب منه أن يؤدى الدور فأداه ببراعة عكس فيها التفكير الدموى فى تصفية الآخر دون رحمة وهذا ما فعله الجزار بداية الفيلم وهو يجهز بالخنجر على "ليام نيسون" والد أمستردام أمام عينه وهو طفل صغير، أما الخطب التى كان يلقيها

زعيم كل عصابة فإنها لاتختلف كثيرا عما يردده بعض السياسيين أو العسكريين الأمريكيين.

ففى منتصف يناير 2003 وبعد مشاهدتى للفيلم مباشرة شاهدت فيرن كلارك رئيس عمليات البحرية الأمريكية يقول أمام عدسات التلفزة العالمية موجها كلامه لبعض قواته المتجهة للخليج "اضربوا بقوة وبسرعة وبإحكام، دعوا العالم يرى حدثًا جديدًا لم يره من قبل، دعوه يرى أننا أمة مستعدة بلا هوادة لقتال كل عدو تسول له نفسه تدمير حياتنا".

لقد حرص سكورسيزى على أن تكون إسقاطاته واضحة فى الفيلم وأصر على أن يضع برجى مركز التجارة العالمى فى نهاية الفيلم فى صورة إيحائية، وأن يقف معارضا للحرب التى شنتها الولايات المتحدة ضد العراق، وحرص على أن يعرض فيلمه قبل اندلاع الحرب.. ليقول القليل من الكثير الذى تقوم به "عصابات نيويورك".

الموقف التركى من الحرب

ببساطة شديدة ودون أى تعقيدات دخلت مقر رئاسة الوزراء التركية فى أنقرة فيم كان مجلس الوزراء مجتمعا صباح الأربعاء 29 يناير 2003 يبحث فى الطلب الأمريكى بنشر ثمانين ألف جندى فى تركيا من أجل مهاجمة العراق، ويبدو أن شخصية رئيس الوزراء التركى آنذاك عبد الله جول قد انعكست على كل شيء فجعلته بسيطًا حتى أن الشارع الذى يقع فيه مجلس الوزراء والذى كان مغلقا فى عهد الحكومات السابقة فتحه للسيارات والناس ويستطيع أى عابر أن يشاهد رئيس الوزراء وهو يتحرك فى سيارة واحدة وليس موكبا طويلا عريضا كما كان يفعل أسلافه، وأطرف ما فى الأمر أن باب المدعى العام الجمهورى الذى يترصد كل حركات وسكنات حزب العدالة والتنمية الحاكم فى تركيا يقع مباشرة فى مواجهة باب مجلس رئاسة الوزراء ليعد على "جول" ووزرائه كل تحركاتهم وسكناتهم على الهواء مباشرة.

وفى مكتب صغير فى مبنى رئاسة الوزراء التركية التقيت بالرجل الذى كان يُنظر إليه آنذاك على أنه الصانع الرئيسى لسياسة تركيا الخارجية "أحمد داواد" أوغلوا كبير المستشارين لرئيس الوزراء التركى "عبد الله جول" والأكاديمى التركى البارز الذى قدم من خلال كتابه "العمق والاستراتيجية" الذى صدر قبل حوالى عامين رؤية استراتيجية عملية متكاملة للدور الأقليمى والدولى الذى يجب أن تلعبه تركيا فى المرحلة القادمة، ويرى كثير من المراقبين للشأن التركى فى أنقره فى ذلك الوقت أن معظم ما ورد فى الكتاب يمثل النهج الذى بدأت حكومة حزب العدالة والتنمية نهجه بعدما تم اختيارها من قبل الشعب فى انقلاب سياسى خلال الانتخابات البرلمانية التى تمت فى تركيا فى الثالث من نوفمبر 2002.

أول ما أخذنى فى شخصية "داواد" أوغلوا أنه شاب فى الثالثة والأربعين مثل معظم قيادات الحزب وأفكاره، ويحمل رؤية طموحة لتحول المنطقة من منطقة تابعة إلى منطقة مستقلة فى صناعة قرارها ومراعاة مصالحها، وكان واضحا أن الرجل يحمل رسالة ليس منه وإنما من حكومته إلى دول المنطقة كى تسعى للبحث عن مصالحها وفق منظومة إقليمية تحافظ لها على أمنها وتراثها وتاريخها وهويتها، وعلاقاتها الدائمة، فالجوار لايمكن الفرار منه،والجوار شراكة يجب أن تقوم على الثقة المتبادلة وحفظ الأمن والاستقرار والتكامل والتعاون، ويبدو أن حكومة أنقرة لم تنتظر طويلا لتطبيق مفاهيمها الجديدة فعلى الصعيد الاقتصادى قام الوزير المكلف بالشؤون التجارية كورسات توزمن زار بزيارة للعراق فى يناير 2002 ضمت أكثر من ثلاثمائة وخمسين من رجال الأعمال وأبرم اتفاقات وصفقات وعقود زادت قيمتها عن سبعمائة مليون دولار وذلك رغم ما يحيط بالعراق من ضبابية ومستقبل مجهول وقام بعدها بزيارة لسوريا مع عدد مقارب من رجال الأعمال لتذويب الجليد لعلاقات كان يشوبها التوتر على المياه تارة وعلى الحدود تارة أخرى حيث أصبح الاقتصاد والتكامل الاقتصادى من أهم عوامل المصاهرة السياسية بين الدول، وعلى الصعيد السياسى جاءت مبادرة عبد الله جول وجولته على الدول العربية الخمس وإيران والمؤتمر الوزراى الذى عقد فى اسطنبول فى يناير 2003 كأحد الأفكار الأساسية لتكوين نواة إقليمية تضع الأمن والمصالح وشراكة الجوار كأهداف أساسية تتجاوز التبعية التى تغرق فيها دول المنطقة، وحينما تحدثت مع البروفيسور داواد أوغلوا عن مخاوف الدول العربية وما كتبته الصحافة العربية عن الباب العالى والأستانة ومحاولة تركيا استعادة الهيمنة من جديد من خلال تلك المساعى قال الرجل بعدما ضحك: التاريخ لا يعود، ونحن لا نسعى للهيمنة على أحد ونحن حكومة اختارنا الشعب بثقة كبيرة من أجل أن نحقق الأمن والسلم وتحسين الأوضاع ونحن نريد أن نكون عند هذه الثقة، وعلى المستوى الخارجى وجدنا أن أول هدف نسعى إليه هو خلق وعى إقليمي بين القوى الإقليمية الأساسية يقوم على أخذ مبادرة أنفسنا بأيدينا فالحلول التى تأتى من الخارج لن تكون دائما فى صالحنا، ومصالحنا نحن أدرى بها، فقلت له: معنى ذلك أنكم مستعدون للدخول فى مواجهة مع أمريكا، فقال: مطلقا، مبادرتنا الأخيرة للحل السلمى فى العراق بالتعاون مع القوى الإقليمية لا تعنى أننا ضد الولايات المتحدة،

ولكننا فى الواقع نحاول الضغط باتجاه حل سلمى أكد عليه باستمرار قادة الولايات المتحدة، والحلول السلمية فى مثل هذه الأزمات لابد أن تُصنع بتعاون وتقارب إقليمى وليس بشكل منفرد أو إملاء خارجى، لأننا إذا نجحنا فى خلق وعى إقليمى ومسار متعدد عندها نستطيع أن نحقق سلامًا مستمرًا، وإذا كانت الولايات المتحدة تتغنى بأنها دولة ديمقراطية فنحن أيضا لنا مرجعيتنا الديمقراطية التى يجب أن تضبط تحركاتنا ومطالب الولايات المتحدة والغرب منا.

إننى أريد أن أقول لأشقائنا العرب إن مبادرتنا ليست عملاً عفويًا، أو محاولة لبيع صفقة أو مجرد خطوة معزولة، وإنما يجب النظر إليها على أنها مسار بدأ ويجب أن يستمر من أجل مصلحة كل قطر فينا ومن أجل مصلحتنا الإقليمية جميعا فالمصالح هى المحرك الأساسى الآن للدول كما هى للأفراد ويجب ألا ننتظر الآخرين حتى يحققوا لنا مصالحنا ولكن علينا أن نأخذ المبادرة وننطلق بثقة وتفاهم ووعى حتى نتجاوز الخطر الذى يحدق بنا جميعا قلت له: يبدو أن كتابك الذى يزيد عن خمسمائة صفحة قد بدأت الحكومة تطبيق كثير مما ورد فيه فضحك وقال: لا نحن لازلنا فى الصفحات الأولى.

عندئذ دخل علينا أحد مساعديه وقال: "آسف جدا لقد جاء السفير اليابانى"، ثم علمت أنه ضمن قائمة طويلة من السفراء والمبعوثين الذين أدركوا مكانة أوغلوا ودوره فى صناعة السياسة الخارجية لتركيا فى هذه المرحلة فطلبوا لقاءه حتى يستوعبوا الدور التركى الجديد من خلال هذه الحكومة الجديدة،لكنى لا أدرى كم سفيرا عربيا زاره أو طلب زيارته حتى الآن ليفعل ما يفعله السفراء الآخرون، شكرت الرجل وسلمت عليه فخرج إلى الباب يودعنى ثم قال لى: لقد أخبرت رئيس الوزراء بزيارتك، وبالبرنامج الذى سوف أشترك فيه الليلة معك فى قناة الجزيرة فسعد بذلك لكنى أود أن تنقل رسالتنا إلى العرب بقلمك أيضا، فضحكت وقلت له: سأفعل.

وقد كان لتصويت البرلمان التركى يوم السبت الأول من مارس 2003 برفض طلب الحكومة السماح بنشر قوات أمريكية على الأراضى التركية وجه ظاهر يؤكد على الديمقراطية وممارستها بشفافية ليس فى تركيا فحسب ولكن أيضا داخل حزب العدالة والتنمية الحاكم الذى صوت حوالى سبعة وتسعين من نوابه ضد رغبة حكومتهم فيم اعتبر أول ممارسة سياسية تتم فى تركيا بهذا الشكل أن يصوت أعضاء

من حزب حاكم ضد طلب حكومتهم، حتى أن رئيس الحزب رجب الطيب أردوغان وقف فى اليوم التالى للتصويت فى مقر حزبه مشيدا بحرية الممارسة الديمقراطية داخل حزبه واحترام إرادة النواب وفى نفس الوقت مادا يده للولايات المتحدة بألا يؤثر التصويت على العلاقة الحسنة بين الطرفين، كما خرج السفير الأمريكى على الصحفيين بعد التصويت ليعلن عن احترامه للديمقراطية التركية، لكنى قبل عملية التصويت بيومين كنت أحاول فهم الصورة وما يدور وراء الكواليس من أطراف عديدة داخل الحزب وخارجه بل ومن مراقبين مستقلين للأحداث، وكان معظم هؤلاء يشيرون إلى أن القرار لن يمر من مجلس النواب فى التصويت الأول ليس لأنه لن يمر إطلاقا ولكن لأن اللعبة السياسية تقتضى أن يتم هذا بعد أن بدأت حكومة حزب العدالة والتنمية تواجه مظاهرات واحتجاجات فى الشارع التركى بلغت ذروتها حينما اجتمع ما يقرب من خمسين ألف متظاهر فطوقوا البرلمان أثناء عملية التداول على التصويت، وعلاوة على ذلك فإن هناك أسبابا جوهرية أخرى من أهمها:

أولا: أن رجب الطيب أردوغان رئيس حزب العدالة والتنمية سوف يدخل الانتخابات البرلمانية الفرعية فى التاسع من مارس 2003 وأى تصويت لصالح انتشار القوات الأمريكية قبل هذا التاريخ يمكن أن يؤثر سلبا على نتيجة الانتخابات ومن ثم يحرم رئيس الحزب من دخول البرلمان ومن ثم أن يصبح رئيسًا للوزراء بدلا من عبد الله جول الذى ألمح إلى ذلك صراحة خلال المؤتمر الإسلامي الذى عقد فى الدوحة يوم الأربعاء 5 مارس 2003 من أن أيام حكومته أصبحت معدودة، كما أن كافة الاستطلاعات أكدت هبوط شعبية الحزب فى حالة تصويته لصالح انتشار القوات الأمريكية، ومن ثم فإن تأجيل موافقة البرلمان أو ترحيلها إلى مابعد فوز أردوغان فى الانتخابات هى أمر تكتيكى هام فى هذه المرحلة بل إن رفض البرلمان الآن يمكن أن يؤدى إلى حسم المعركة لصالح أردوغان دون أى عناء يذكر كما هو مخطط.

ثانيا: أن بعض الوحدات من القوات الأمريكية لاسيما من طائرات الأباتشى التى ستلعب دورًا هاما فى معارك القوات البرية فى شمال العراق لم تكن قد وصلت بعد للسواحل التركية وبحاجة إلى أسبوعين تقريبا حتى تصل وتكتمل جاهزيتها ومن ثم فإن أمريكا ليست بعيدة عن ترتيب أوراق التصويت ومنح الحكومة فرصتها لزيادة شعبيتها

وكذلك استكمال القوات الأمريكية لجهوزيّتها وهذا ما دفع رئيس الحكومة عبد الله جول أن يعلن أنه لن يتم عرض مشروع طلب جديد على البرلمان فى الوقت الراهن، كما أن رئيس البرلمان أكد على ضرروة إصدار قرار جديد من مجلس الأمن قبل التصويت على طلب الحكومة.

الأمر الثالث: والهام هو أن الحكومة التى لازالت فى شهورها الأولى والتى يعلق الأتراك آمالا كبيرة عليها فى أن تحل مشاكلهم الاقتصادية المزمنة لاتريد أن تخسر ثقة الشارع بها بعدما بدأ الناس يتململون ويشعرون أن الحكومة تعمل ضد رغبتهم حيث صوّت أكثر من أربعة وتسعين فى المائة من الأتراك ضد الحرب،كما أن الحكومة رفعت فى الثالث من مارس 2003 الضرائب بمقدار مائة فى المائة على بعض الخدمات ورفعت كذلك أسعار البنزين مما أثار استياءاً واسعًا فى الشارع التركى، ومن ثم فإن تفويت قرار الموافقة من البرلمان يجب أن يتم من خلال أنه آخر دواء الكى ولا يوجد أمام الحكومة غير ذلك، وكما رفض البرلمان بفارق ثلاثة أصوات فقط فإنه يمكن أن يوافق بفارق صوتين أوثلاثة وتكون اللعبة الديمقراطية هى هى فى كلتا الحالتين الرفض والموافقة ولعل طلب رئيس الحزب رجب طيب أردوغان من نوابه يوم الثلاثاء الرابع من مارس أن ينحوا مشاعرهم ومعتقداهم جانبًا أثناء التصويت القادم دليل على رغبة الحكومة فى النجاح عند إعادة الطلب إلى البرلمان، وقد تسربت معلومات مؤكدة أن حوالى ثلاثين عضوا ممن عارضوا سوف يصوتون إيجابا لصالح طلب الحكومة عندما يعرض مجددا.

إن ماحدث من الناحية السياسية يعد نجاحا كبيرا للحكومة، وكما أن أمريكا تدّعى حرصها على الديمقراطية واحترام رأى الشعوب فقد استخدم الأتراك مع الأمريكيين نفس السلاح الذى يحاربون به الآخرين، وكان قرار البرلمان التركى ملزما وعبر عن موقف الشعب التركى من الحرب واضطرت الولايات المتحدة فى النهاية إلى نقل قواهّا التى كانت قد وصلت السواحل التركية إلى الكويت مرة أخرى، وكان الموقف التركى بحق موقف عبَّر بقوة عن رأى الشعب.

أسواق وتجار الحرب

مع إصرار الولايات المتحدة على شن حربها ضد العراق سواء بغطاء دولى أو بدونه بدأت أسواق الحرب تنتعش بين تجار الحروب الذين يظهرون قبيل نشوبها بل ربما يلعبون دورا فى تأجيج أوارها حتى يحصل كل منهم على نصيبه من كعكة الحرب، وتجار الحروب يتواجدون فى كل المجالات ويوزعون بين الأفراد والشركات والمؤسسات والمصانع وحتى الدول.

فعلى مستوى الأفراد، بدأت محطات التلفزة العالمية التى تتهيأ لدخول العراق مع القوات الأمريكية سواء من جانب الكويت أو جانب تركيا توظف موظفين مؤقتين يشاركونها فترة تغطيتها للحرب المرتقبة وعادة ما يقومون بعملية الترجمة، أو المساعدات البسيطة أو حتى صحفيين محللين يشاركون فى توفير بعض المعلومات ووصل الأجر اليومى لبعض هؤلاء إلى سبعمائة وخمسين دولارا يمكن ارتفعت إلى الضعف بعد قيام الحرب، بل إن أجر المصور وصل إلى أكثر من ثلاثة آلاف دولار فى اليوم وذلك كما علمت من بعض الزملاء فى الكويت وكما شاهدت فى تركيا قبيل اندلاع الحرب مع وجود الكثير من محطات وشركات التلفزة التى ضاعفت أجورها بشكل كبير ولم يعد هناك فنى فى مجال العمل التليفزيونى فى تركيا يجلس بدون عمل تقريبا بعدما كانت تعرضت محطات التلفزة ووسائل الإعلام التركية فى عام 2002 إلى هزة دفعتها للاستغناء عن عمالة الكثيرين، وقد وصل التنافس بين شركات التلفزة التركية حدا لا يمكن تخيله لاسيما بين المحطات الحرة التى تسابق الحدث وتريد أن تسيطر على المشاهد حال قيام المعركة بحيث يستطيع مشاهدتها ومتابعة ربما تفصيلاتها

وهو يجلس على أريكته مرتاحا فى بيته، وهذا جعل قيمة تغطية الدقيقة الواحدة تصل إلى عدة آلاف من الدولارات.

كما أن الفنادق عادة ما ترفع أسعارها وتكون غرفها شبه محجوزة بالكامل كما كان الحال فى الكويت والأردن وتركيا لاسيما أنقره التى حصلتُ على غرفة فى أحد فنادقها بصعوبة بالغة وبأجر مضاعف عن الأجر الذى عادة ما كنت أحصل به عليها فى نفس الفندق من قبل وحينما اقتضت الضرورة تمديد إقامتى لأيام إضافية اعتذروا لى فى البداية ثم وافقوا مع تأسف باضطرارهم لمضاعفة الأجر مرة ثالثة ولم أجد مفرا من الرضوخ فوجدت سعر الغرفة فى النهاية أصبح أغلى من أسعار الفنادق فى جنيف ولندن.

كذلك فإن تجار المواد الغذائية الذين سيقومون بإبرام عقود التغذية للجيوش التى سوف تساهم فى المعركة أو للمؤسسات الإغاثية التى ستؤوى اللاجئين أو لعموم الناس الذين سيعانون تحت وطأة الحرب كلهم يستعدون الآن لجنى أرباح طائلة والاستفادة قدر المستطاع من سوق الحرب ومن دماء وآلام الآخرين لتعويض فترة الكساد الاقتصادى التى تمر بها المنطقة.

أما على مستويات أعلى فإن الدول كذلك سعت لجنى أكبر قدر من الأرباح ففى الوقت الذى أعلنت فيه الحكومات العربية أنها لن تستطيع أن تفعل شيئا لإيقاف الحرب، وقدم بعضها تسهيلات للأمريكيين دون مقابل يذكر فإن تركيا تعتبر أبرز الدول التى تقوم بجهد بارز فى مجال جنى الأرباح من وراء سوق الحرب التى لن تستطيع هى الأخرى أن توقفها ولكن على خلاف العرب، فالأتراك أدركوا أن أمريكا بحاجة لهم وبالتالى يجب أن يستفيدوا ويضمنوا أمنهم فأدخلوا الأمريكيين فى مفاوضات مضنية سعوا من خلالها للحصول على أكبر قدر من المكاسب، وكما صرح وزير الخارجية التركى يشار يكش فى مقابلة أجريتها معه يوم الأربعاء 26 فبراير 2003 فإن "الأمر لا يقف عند حد الجوانب المادية ولكن هناك خمسة عشر بندا يتم التفاوض عليها بين الأمريكيين والأتراك فى الجوانب الاقتصادية والسياسية والعسكرية، تشمل هبات مالية وقروض وشطب ديون ومشاركة عسكرية تضمن تفوقا عسكريا تركيا مستقلا وتوغلا فى الأراضى العراقية،وامتيازات سياسية وعسكرية، وتأكيدا على عدم

قيام أى دويلة كردية مع حفظ حقوق التركمان، والعجيب أن التفاوض فى المجال الاقتصادى وصل إلى حد التفاوض على رفع عدد القمصان التى تصدرها تركيا لأمريكا وحتى كروت الهويات الشخصية، وأمورا أخرى عجيبة لا يمكن تخيل الحديث عنها إلا فى أسواق الحرب فقط.

أما الدول الغربية فإنها تشارك فى سوق الحرب ليس بنفسها ولكن عبر شركات السلاح والنفط بالدرجة الأولى ثم عبر شركات الدعم اللوجستى فى كل المجالات، فالولايات المتحدة قبل الحرب كانت تواجه أزمة اقتصادية طاحنة أكد الخبرا ء أن الحرب هى المخرج لتجاوزها كما كانت حرب الخليج الأولى مخرجا لجورج بوش الأب من كارثة اقتصادية شبيهة، إن سوق الحرب سوق قديمة قدم البشرية، دائما فيها رابحون وخاسرون، وفيم يبحث الجميع عن المكاسب فإن العرب للأسف أصبحوا فى كل حروبهم الحديثة هم الخاسرون دائما.

حرب من أجل النفط

رغم تأكيد وزير الخارجية الأمريكيي كولن باول ومسؤولين أمريكيين آخرين بارزين مرارا بأن الحملة العسكرية الأمريكية التي شنتها الولايات المتحدة ضد العراق واحتلتها فى نهايتها، ليس هدفها النفط وإنما الهدف هو إزالة النظام العراقى وتجريد العراق من أسلحة الدمار الشامل إلا أن كثيرا من المراقبين بما فيهم موالون للحكومة الأمريكية ومروجين لأفكارها مثل توماس فريدمان يرون عكس ذلك بل إن فريدمان كتب مقالا فى منتصف يناير 2003 نشرته "هيرالد تريبون" قال فيه: "إن النفط هو أحد أسباب الإعداد للحرب ضد العراق وإذا حاول أى شخص أن يقنعنا بغير ذلك فإنه قطعا لا يحترم عقولنا" لكن المسؤولين الأمريكيين يصرون على عدم احترام عقول الجميع بما فيهم المروجون لسياساتهم التوسعية، فإذا كان الأمريكيون حريصين على نزع أسلحة الدمار الشامل فلن نقول إسرائيل ولكن كوريا الشمالية ودول كثيرة فى أمريكا الجنوبية ويوغوسلافيا السابقة، وعشرات من الدول الأخرى تمتلك أسلحة للدمار الشامل بعضها يجاهر به بل ويتحدى به أمريكا مثل كوريا الشمالية،أما اتهام النظام العراقى بالديكتاتورية فإن أمريكا هى صانعة معظم الأنظمة الديكتاتورية فى العالم وحاميتها وبالتالى فإن السؤال الهام والبسيط لماذا العراق؟

لأن الدراسات تشير إلى أن آخر نقطة نفط فى العالم ستكون فى العراق الذى يملك 112 مليار برميل كاحتياطى نفطى يمثل 11% من احتياطى نفط العالم، فيما تشير دراسات أخرى أمريكية صادرة عن إدارة معلومات الطاقة الأمريكية، إلى أنها تصل إلى مائتى مليار برميل، كما أن هناك الكثير من حقول النفط العراقى لم تُستغل حتى الآن وعدد الحقول المستغلة بسيط للغاية، وفيما لايزيد معدل الاحتياطى النفطى فى دول

مثل الولايات المتحدة وكندا عن عشر سنوات معدودة، فإنه يتجاوز المائة عام فى العراق، علاوة على ذلك فإن تكاليف استخراج برميل النفط فى العراق هى الأرخص بين دول العالم المنتجة ففى الوقت الذى يصل فيه فى بحر الشمال إلى أربع دولارات وفى بحر قزوين إلى ما هو أكثر من ذلك فإن تكلفة استخراج البرميل فى العراق تصل إلى حوالى 97 سنتا فقط ويباع بثلاثين دولارا أى أن الأرباح تصل إلى أكثر من 97 فى المائة، والولايات المتحدة التى لا تمتلك سوى 2% فقط من الاحتياطى العالمى ويستهلك الفرد فيها سنويا 28 برميلا لا يكفيها احتياطيها إذا توقفت عن استيراد النفط أو منع عنها لعشر سنوات فقط، مما يعنى انهيار أكبر دولة صناعية فى العالم، وقد أصدرت إدارة معلومات الطاقة الأمريكية بالاشتراك مع شركة بريتش بتروليم دراسة فى نهاية العام 2002 أشارت فيها إلى أن إنتاج النفط العالمى فى اليوم بلغ 77 مليون برميل عام 1997 أما فى عام 2010 فسوف يصل إلى 95 مليون برميل وسوف يرتفع فى عام 2015 إلى 104 مليون برميل أما فى عام 2020 فسوف يصل إلى 112 مليون برميل فى اليوم وستكون العراق من أكثر الدول قدرة على تلبية احتياجات السوق العالمى آنذاك تليها السعودية ثم الإمارات والكويت وإيران وفنزويلا وإذا لاحظنا نجد أن هذه الدول جميعها تدخل ضمن الهدف الأمريكى للسيطرة والهيمنة وإثارة الاضطرابات، ولهذا فكما ذكرت وكالة الأنباء الفرنسية فى تقرير لها نشرته فى 9 فبراير 2003 نقلا عن نشرة "بترو استراتيجى" أن هناك صراعا داخل الإدارة الأمريكية بين وزارتى الخارجية والدفاع حول من يسيطر على النفط العراقى بعد الحرب حيث ترى البنتاجون ضرورة سيطرتها على القطاع النفطى فيم ترى وزارة الخارجية ضرورة استمرار إدارة قطاع النفط العراقى من خلال الشركة الوطنية العراقية.

أما الخطط العسكرية فتقوم كلها على السيطرة أولا على مناطق النفط الغنية فى كركوك والموصل، وهيمنة أمريكا وفق المنظور الإمبراطورى على نفط العراق يجعلها تتحكم فى القوى الأخرى مثل اليابان وفرنسا وألمانيا والصين والهند وكل القوى التى بحاجة إلى النفط، فرغم إعلان الرئيس بوش فى خطاب حالة الاتحاد عن وجود خطة تهدف إلى الاستغناء عن النفط كمصدر للطاقة والاعتماد على الطاقة الهيدروجينية النظيفة إلا أن الأبحاث لا تجد فى المدى المنظور بديلا عن النفط من حيث رخص سعره وتوفره، حيث سيكون كل برميل تستهلكه أمريكا من النفط فى عام 2007 هو من

النفط المستورد أما إنتاجها فسوف تحوله بالكامل للمخزون الاستراتيجي، من هنا فإن الاتجاه إلى الإمبراطورية يعنى السيطرة والهيمنة والتحكم فى الآخرين، وإذا كان النفط هو السلعة التى نجح العرب عام 1973 فى استخدامها كسلاح فإن الإمبراطورية الأمريكية تسعى للهيمنة عليها الآن بعد سيطرتها على العراق، واستخدامها كسلاح ليس ضد العرب الذين يملكون النفط ولا يتحكمون فيه فحسب وإنما ضد كل القوى التى تسول لها نفسها أن تقف فى مواجهة الإمبراطورية الوليدة، إنه النفط سلاح الولايات المتحدة فى تحدى الآخرين.

باول يرتدى بزة الحرب

رغم أن الاستطلاعات الأمريكية التى نشرت فى شهر يوليو من العام 2002 كانت تؤكد على أن وزير الخارجية الأمريكى كولن باول يحظى بشعبية تفوق شعبية الرئيس الأمريكى جورج بوش نفسه حيث حصل فى استطلاعات الرأى تلك على نسبة تأييد وصلت إلى 85% مقابل 72% فقط للرئيس إلا أن السؤال الأساسى الذى كان يطرح على باول فى كل مؤتمراته الصحفية آنذاك هو عن حقيقة استعداده للاستقالة ومغادرة الإدارة الأمريكية بعد الانتخابات التشريعية التى كانت مقررة فى نوفمبر من العام 2002، فالرجل الذى قضى ما يقرب من عشرين شهرا فى منصبه حتى ذلك الوقت كان قد بدأ يشعر بعزلة شديدة داخل الإدارة التى أصبح يسيطر عليها التكتل اليمينى المتطرف فى الولايات المتحدة والذى من أبرز قادته نائب الرئيس ديك تشينى ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، ومستشارة الأمن القومى كوندليزا رايس، ووزير العدل جون أشكروفت، والمستشار السياسى الأكثر قربا من بوش كارل روف وريتشارد بيرل الذى يوصف بأنه زعيم الليكود الصهيونى فى الولايات المتحدة وهو كان وكيلا لوزارة الدفاع، وأصبح الآن مستشارا لها بعدما صعد مكانه أحد أجنحة اللوبى الليكودى فى الإدارة الأمريكية دوف زاكيم علاوة على نائب وزير الدفاع بول وولفيتز الذى تولى ملف تنفيذ المخطط الأمريكى ضد العراق.

وسط هذه العصابة -حسب وصف باول آنذاك- التى تعزف على وتر واحد هو وتر الانحياز الكامل لإسرائيل ومصالحها وتنفيذ المخطط الأمريكى للحرب على العراق وليذهب الشعب الأمريكى إلى الجحيم وجد باول نفسه يعزف وحيدا بعيدا عنهم فى الوقت الذى من المفترض أنه يحتل فيه فعليا المنصب التالى للرئيس من حيث الأهمية

حسب العرف الأمريكى الشائع عالميا منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن، لكن إذا راقبنا المهام الخارجية للولايات المتحدة خلال فترة العشرين شهرا الأولى التى قضاها باول فى منصبه نجد أن وزير الدفاع رامسفيلد ونائبه وولفينتز وكوندليزا رايس ورئيس وكالة المخابرات المركزية الأمريكية جورج تينيت ربما كانت تحركاقم الخارجية أكثر منه، الأكثر من ذلك أن معظم مقترحات باول لم تكن تحظى بأى اهتمام من بوش الذى كان يوجه وبشكل كامل من قبل فريق عمل فى وزارة الدفاع أصبح هو الذى يرسم السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية، ويكتب تقارير يومية للرئيس حول التصور الأمريكى للقضايا الدولية وتتولى مستشارة الرئيس للأمن القومى كوندليزا رايس تقديمها للرئيس، ولأن الرئيس كما يعلم الجميع ضعيف فى إلمامه بالسياسة الخارجية فأصبحت هذه التقارير هى التى توجهه بشكل مباشر، أما وزارة الخارجية فقد تم تهميش تقاريرها وتوصياقا حتى أن باول تلقى صفعتين متتاليتين خلال شهرى يونيو ويوليو من العام 2002 الأولى كانت فى خطاب الرئيس بوش الذى ألقاه فى يونيو من العام 2002 حول الرؤية الأمريكية لحل القضية الفلسطينية، حيث تبنى توجها مضادا لتوجه باول الذى كان يرى أن الحل يجب أن يكون من خلال الرئيس عرفات إلا أن الرئيس بوش طالب بتنحية عرفات مما دفع مسؤولين فى الخارجية الأمريكية إلى أن يدلوا بتصريحات صحفية عبروا فيها عن ذهولهم حينما كانوا يستمعون إلى خطاب بوش الذى تبنى موقفا مختلفا عما اقترحوه بشأن حل الأزمة، وقد عبرت صحيفة "هاآرتس" الإسرائيلية فى عددها الصادر فى الثلاثين من يوليو 2002 عن ذلك مشيرة إلى أن ملف القضية الفلسطينية قد سحب من الخارجية الأمريكية وشبهت باول بوزير الخارجية الإسرائيلى شمعون بيريز، حتى أنها قالت إن "نكتة الاسبوع فى واشنطن هى أن كولن باول وشمعون بيريز وصلا إلى المرحلة النهائية فى المنافسة على لقب وزير الخارجية غير ذى العلاقة الأكثر فى العالم " وقد أشارت صحيفة "يو إس إيه توادى" الأمريكية فى عددها الصادر فى اليوم التالى 31 يوليو 2002 أن " قرار بوش بالمطالبة بإقصاء ياسر عرفات عن رئاسة السلطة الفلسطينية جاء آنذاك إضعافا لمكانة باول الذى كان قد قال قبل ذلك بأسبوعين فى مقابلة صحافية أنه لا يوافق على موقف رئيس الوزراء الإسرائيلى أريل شارون الذى يرفض الاعتراف بعرفات كقائد للشعب الفلسطينى"، ورغم أن تكهنات كثير من المراقبين

آنذاك كانت تشير بل تؤكد أن باول شخص ليس سريع الاستسلام إلا أن آخرين كانوا يؤكدون أن باول فى طريقه فعلا للخروج من الإدارة الأمريكية نهاية العام 2002، لكن باول الذى كان ينتقل فى سياسته من فشل إلى فشل وكان يحب أن يظهر كمن يرتدى بزة "رجل السلام" والرجل الذى يعزف على وتر خاص بعيد عن دعاة الحرب فى الإدارة الأمريكية سرعان ما كشف عن سترته الحقيقية وهى سترة الحرب التى لم يخلعها.

فكولن باول الذى قضى حياته فى العمل العسكرى حتى وصل إلى أرفع منصب عسكرى وهو رئيس هيئة الأركان المشتركة للجيش الأمريكى، أظهر حقيقته حينما أصبح مع بداية العام 2003 الناطق باسم صقور الحرب داخل البيت الأبيض، فالرجل الذى غيَّر بزته العسكرية لبعض الوقت تحول أمام مجلس الأمن يوم الأربعاء 5 فبراير 2003 إلى مدع عسكرى رغم ضعف حججه وضحالة براهينه ليؤكد على أن الصورة التى حاولت بعض وسائل الإعلام أو بعض المخدوعين ترويجها عن شخصيته غير صحيحة، فالرجل فى النهاية أحد أفراد الطاقم الذى تهيمن عليه فكرة الحرب والهيمنة والإمبراطورية الأمريكية التى لا تقهر، وإعادة رسم خرائط الشرق الأوسط من جديد بما يخدم المصالح الأمريكية كما صرح يوم الخميس 6 فبراير 2003 فى أعقاب مرافعته أو بالأحرى ادعاءاته التى ألقاها أمام مجلس الأمن، حيث كرس مبدأً جديدا فى الصراعات الدولية هو إمكانية الاعتماد على معلومات دعائية حسب وصف الروائى البريطانى جون لوكار "لتبرير شن حرب وتدمير دول لها وجودها الرسمى فى المنظمة الدولية" وكولن باول الذى شغل منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة فى حرب الخليج الثانية تعود أصوله إلى جاميكا حيث كان جده من جهة والده يهوديا كما أنه ترعرع فى منطقة ذات كثافة يهودية عالية فى نيويورك وهو يتحدث اللغة اليديشية التى يتحدثها يهود نيويورك ورغم أنه استطاع أن يمثل دور حمامة السلام خلال عامى 2001 و2002 إلا أن الجميع يتذكر أنه حينما تولى منصبه تعهد بتشديد العقوبات على العراق وقد فعل، ورغم أن بعض المحللين يشيرون إلى أن باول يحمل الموقف الذى أظهره فى 5 فبراير 2003 فى مجلس الأمن من البداية، وأن ما ظهر به خلال العامين السابقين لذلك كان شكلا من أشكال توزيع الأدوار داخل الإدارة، إلا أن آخرين يشيرون إلى أن صقور الإدارة أحرجوه وجعلوه يدفع ثمن بقائه بعدما أضعفوا موقفه

ودوره فى وزارة الخارجية طيلة فترة وجوده فيها حتى ألهم همشوه كثيرا وقامت كونداليزا رايس بمهام عديدة كان من المفترض أن يقوم هو بها كوزير للخارجية لهذا دفعوه أن يكون هو رأس الحربة والمدعى الرئيسى فى موضوع كان يحاول أن يظهر بأنه معارض له، وأنه إذا أراد البقاء فعليه أن " يبتلع " كل تصريحاته وادعاءاته السابقة بإعطاء الجانب السلمى والسياسى الفرصة الأولى، وقد فعل الرجل ما طلب منه رغم أنه فى رأى كثير من المراقبين كان هزيلا فى طرحه وادعاءاته لكنها الولايات المتحدة التى وصلت إلى مرحلة من الغطرسة لم تتوقف فيها عن سماع الآخرين فحسب وإنما ترفض أن يُسمع صوت غير صوتها حتى لو كان يحتوى على استغفال وادعاءات وأكاذيب مفضوحة، ورغم أن الكاتب الأمريكى ستيفين وايزمان كتب فى 26 يناير 2003 نقلا عن ديبلوماسيين يعملون مع باول أن رؤيته غير واضحة فيما يتعلق بالحرب المرتقبة التى يمكن أن تخوضها الولايات المتحدة ضد العراق إلا أن باول ظهر بغير ذلك بعد أيام، بل إنه أكد على أن " الشرق الأوسط كله سوف يتم إعادة رسمه بما يتوافق مع المصالح الأمريكية " ورغم أن باول قد أشار فى مذكراته التى نشرها قبل سنوات وترجمت للعربية، وكذلك التصريحات التى كانت تنقل عنه عام 1991 بأنه كان ضد دخول بغداد أثناء حرب الخليج الثانية وإسقاط نظام الحكم فيها إلا أن الرجل الذى كان يرتدى البزة العسكرية آنذاك تبنى وهو يقود الديبلوماسية الأمريكية خطة إسقاط نظام بغداد ودخولها وإقامة نظام عميل فيها يحقق للولايات المتحدة مصالحها.

إن الذى تؤكده تلك التحولات فى أداء باول أنه لا يوجد ما يسمى بالصقور والحمائم داخل إدارة أمريكية متجانسة يعرف كل منهم فيها دوره، وأن الاعتماد على مبدأ الصقور والحمائم وهم يؤكده الصراع العربى الإسرائيلى، ومادام السيد باول قد ارتدى سترته العسكرية فقد أعلن بوضوح أنه أحد صقور الحرب الأمريكية ضد العراق.

بغداد.. قبيل السقوط

مشيت فى شوراع بغداد القديمة قبيل الحرب أطالع وجوه العراقيين المتعبة، والقلقة والمترقبة للحرب، الحياة تبدو شبه عادية كما كنت أراها فى مرات زياراتى السابقة لبغداد خلال السنوات الماضية غير أن المتاريس وأكياس الرمال والخنادق منتشرة هذه المرة فى شوارع المدينة بشكل كبير والكل يترقب الحرب فى أى لحظة كما قال لى أحد المسؤولين العراقيين، مبنى وزارة الإعلام تحول إلى ما يشبه الثكنة الإعلامية حيث نصبت عشرات الأطباق والخيام لمراسلى وكالات الأنباء والصحافة والتليفزيونات العالمية ، وعشرات الصحفيين والمصورين يجوبون الشوارع يصورون أى شيء وكل شيء حتى أن طفلا كان يغرس وردة فى كومة من التراب وجدت أكثر من مصور كل منهم يصوره من زاوية عله ينقل صورة من صور ترقب الناس فى بغداد للحرب عبر وردة يزرعها طفل فى كومة من التراب.

أسوأ شيء فى الحياة أن تنتظر مجهولا تعرف أنه سيئ بل ربما يكون أسوأ شيء فى الحياة، لكنك لا تستطيع أن تحدد حجم أو مقدار ما يحمله من سوء ودمار، وهل هناك أسوأ من الحرب؟! لقد قمت بتغطية ثلاثة حروب سابقة وأعرف الأهوال التى يعيش فيها الناس، قبل وأثناء وبعد الحرب، "فالحرب لا تحمل أى فأل حسن حتى لو كانت نتيجتها كما يدعى نظاما ديمقراطيا سيكون نموذجا لدول المنطقة لأن ما هو آت سيكون أسوأ مما هو قائم مهما كانت وعود بل أكاذيب الأمريكان" هذا ما قاله لى أحد العراقيين الذين كنت أناقشهم حول النتائج المرتقبة للحرب حسب ما صرح به الأمريكيون، لكنه قال لى بحماس: "ربما لم نكن كشعب متحمسين للحروب السابقة التى خاضتها حكومتنا لأنها كانت بخيارنا أما هذه المرة فإن الحرب مفروضة علينا،

ومن ثم فعلينا أن نحمل السلاح وأن ندافع عن أنفسنا" قلت له: لكن الأمريكيين يقولون بأنهم يستهدفون النظام؟ قال: "هم كذابون، وأنا حتى لو كنت على خلاف مع النظام ولا أقبل سياساته سوف أخرج لأقاتل، لأنى هنا أقاتل عن أرضى وعرضى وقد أصبح الشعب كله شبه مسلح الآن ولا يخلو بيت من قطعة سلاح أو أكثر والأمر لن يكون سهلا كما يروج الأمريكيون" قلت له إنهم يقولون إنكم سوف تخرجون بالورود والزهور لاستقبالهم، قال: "هم واهمون ياسيدى فأنا ربما لا أحب النظام لكنى لا أحب أمريكا ولن أرحب بأى من جنودها بل سأقاومهم" تركته والتقيت مع سيدة سألتها ما ذا تحمل قالت: هذا دواء استعدادا للحرب، فقلت لها: ماهى نوعية هذا الدواء التى تستعدين به للحرب؟ فتحت لى الكرتونة التى كانت معها وقالت: هذه كل أنواع الأدوية التى يمكن أن نحتاجها مثل أدوية الالتهابات والأنفلوانزا حتى أن هذه حبوب للوقاية من الجمرة الخبيثة تؤخذ حبتين مرتين صباحا ومساء فقلت لها:هل يمكن أن أراها؟ فأخرجت بعفوية شريطا منها وقالت: هى لك.

فشكرتها وقلت لها فقط أريد أن اعرف اسمها فوجدت اسمها سيبولكس وهى صناعة هندية، فقلت لها: وماذا بخصوص الطعام والشراب، قالت: قمنا بشراء كميات من المياه المعدنية خوفا من انقطاع مياه الشرب، كما حفرنا بئرا فى البيت وكذلك فعل كثير من العراقيين علاوة على أنه فى كل حى تقريبا تم حفر بئر لأهل الحى، أما بالنسبة للطعام فقد قامت الحكومة بتوزيع تموين ثلاثة أشهر على الناس مرتين أى عندنا تموين أساسى لستة أشهر، كما أن الميسورين خزنوا مواد تموينية إضافية اشتروها من الأسواق، قلت لها: وماذا بالنسبة للكهرباء؟ قالت: فى الحرب الماضية انقطعت الكهرباء واضطر معظم الناس إلى طهى اللحوم التى كانت فى الثلاجات خلال أيام قليلة وقد عانى الناس على مدى السنوات الاثنى عشر الماضية من انقطاع المياه والكهرباء وأصبحت لديهم وسائل عديدة لترتيب أمورهم بشكل أفضل، والاستعداد للشيء يوفر الكثير من العناء لكننا نتمنى عدم قيام الحرب، لكن إذا قامت فليس أمامنا سوى أن نعيش أحداثها.

غالبية العراقيين يعانون، وإن كانوا كما ذكر لى أحدهم بدأت أمورهم خلال السنوات الأربع الأخيرة تتحسن، ومعظم الذين يملكون المال يستطيعون الآن السفر إلى

خارج العراق، وهذا ما لاحظته حيث أنى لم أجد مكانا على طائرة العودة من بغداد إلى دمشق إلا بعد أسبوع من الموعد الذى أريده رغم أن الجميع يترقب اندلاع الحرب خلال ساعات وفى أى لحظة، الكل كان يتوقع أن معركة بغداد إذا وقعت لن تكون سهلة، لأن بغداد من المدن المنبسطة ذات الامتداد الأفقى والمبانى المرتفعة فيها نادرة وقليلة، ومن ثم فهى مترامية الأطراف وخلاف القصور الجمهورية، فالمدنيون فى كل أرجاء المدينة، وكل مبنى غير القصور يمكن أن يكون هدفا سوف يؤدى إلى عدد هائل من الضحايا المدنيين، وكنت وأنا أتأمل المبانى الحكومية وأرى مواقعها من الأماكن السكنية نظرت بتأمل إلى مبنى وزارة الأعلام حيث أصبح مقرا لكل وسائل الإعلام العالمية وقلت فى نفسى يمكن أن يكون هذا المبنى هو آمن مكان فى بغداد إذا نشبت الحرب لأن الأمريكيين سوف يترددون كثيرا فى قصفه، ثم ضحكت من تفكيرى وقلت: شر البلية ما يضحك، لكنى كنت واهما على ما يبدو فحينما رجعت إلى فندق الرشيد حيث كنت أقيم وجدت الصحفيين الغربيين فى حالة رعب وخوف وهلع شديدة بعدما جاءهم تحذير بإخلاء مواقعهم من مبنى وزارة الإعلام لأنه سيكون أحد الأهداف الأمريكية المباشرة فى القصف وقد كان بالفعل.

قصة سقوط بغداد

مثلى مثل كثير من المتابعين للأحداث فوجئت بالسقوط السريع للعاصمة العراقية بغداد بعد ثلاثة أسابيع من المقاومة فى المدن والمناطق الجنوبية من العراق، ورغم أن معظم المحللين العسكريين الذين كانوا يتابعون المعركة كانوا يسيرون فى اتجاه أثبتت النتائج النهائية للحرب أنه كان معاكسا لما كان يحدث على أرض الواقع إلا أن الحقائق تتكشف يوما بعد الآخر مؤكدة على أن ما حدث كان فيه خفايا وأسرار كثيرة ربما لن يكشف الكثير منها على المدى القريب، وبعد سقوط بغداد حاولتُ وعلى مدى عدة أسابيع فهم ما حدث من خلال التقارير والمقابلات الشخصية مع متابعين قريبين أو مراسلين حربيين ممن كانوا فى مناطق خطرة مثل الزميل محمد العبد الله الذى كان المراسل الصحفى الوحيد فى البصرة طيلة أكثر من أسبوعين من الحرب، أو من زملاء آخرين كانوا فى الجنوب أو فى بغداد، كذلك من مسؤولين سابقين فى النظام العراقى أو زعماء فى المعارضة كانت لهم صلات قوية فى الداخل قبل وبعد انتهاء معركة بغداد، أو من اتصالات وجلسات استماع ونقاش مع مهتمين ومتابعين ومختصين فى الشأن العراقى كذلك من خلال قصاصات صحفية كثيرة لمراسلين غربيين رافقوا القوات الأمريكية فى معركتها أو من خلال زيارتى لبغداد بعد سقوطها وحديثى مع كثير من العسكريين الذين تمكنت من اللقاء بهم بينهم ضباط فى أسلحة مختلفة من بينها الحرس الجمهورى، وأستطيع أن أوجز قصة سقوط العاصمة العراقية بغداد من خلال هذه المصادر المختلفة فيما يلى:

بداية فإن القائد العام للقوات المسلحة العراقية الرئيس العراقى السابق صدام حسين ليس لديه أى خبرة عسكرية محترفة فهو لم يقبل فى الكلية الحربية حينما تقدم لها بداية

فى بدايات حياته ورفض طلبه مرتين، وكانت عقدته الأساسية حينما كان نائبا للرئيس أن الرئيس الأسبق أحمد حسن البكر كان عسكريا محترفا بينما كان صدام دخيلا على العمل العسكرى لكن صدام استطاع أن يقضى على البكر وأن يتسلم منه مقاليد الحكم عام 1979 بوسائل مختلفة، لكن صدام حسين الذى كان دمويا ضد شعبه وضد خصومه السياسيين كان يحمل تاريخا عسكريا مليئا بالفشل مثل حربه مع إيران التى امتدت ثمانى سنوات من العام 1980 إلى العام 1988 والتى قضت على ثروات العراق وآماله فى بناء نفسه أو حرب الخليج الثانية عام 1991 التى دمر فيها مقدرات العراق ووضعها تحت الحصار هى والشعب العراقى الذى حاصره بأجهزة أمنية زرعت فيه الخوف، ولأنه فاشل عسكريا وغير محترف فقد وضع مجموعة من الفاشلين وشبه الأميين على رأس المؤسسة العسكرية وضرب بالتقاليد العسكرية العريقة عرض الحائط، فعين زوج ابنته السابق حسين كامل (الذى كان قد هرب إلى الأردن ثم عاد وقُتل) بعد ذلك عينه وزيرا لأخطر ثلاث وزارات فى الدولة هى وزارات الدفاع والتصنيع الحربى والصناعة، فى الوقت الذى كان فيه حسين كامل غير متعلم وشبه أمى وكل مؤهلاته أنه من تكريت وكان أحد جنود الحراسة الخاصة المخلصين لصدام فى فترة ما، فقام صدام بترقيته إلى أعلى المناصب متجاوزا كل الأعراف العسكرية وغير العسكرية، كذلك على حسن المجيد أو على الكيماوى كما كان يسمى والذى كان قائد المنطقة العسكرية الجنوبية فى العراق والذى قاد قوات غزو الكويت وقاد الحملة ضد الأكراد وغيرها من المهمات القذرة الأخرى حتى أنه كان يحمل لقب "رجل المهمات القذرة" لم يكن سوى ضابط صف لم يحصل على أى شهادة عسكرية، لكنه منحه رتبة فريق أول أركان حرب و"أركان الحرب"* ليست لقبا أو رتبة عسكرية وإنما هى شهادة يحصل عليها العسكريون بعد دراسة وامتحانات فى كليات الحرب العليا، وعادة ما يتقدمون إليها بعد الحصول على رتبة مقدم فى بعض أنظمة الجيش لكن المجيد لم يحصل حتى على الابتدائية العسكرية،ووضع فى أعلى المناصب وكان يقود رتبا عسكرية عالية قضت سنوات طويلة فى الدراسة والتمحيص العسكرى،حتى أنه كان أثناء الحرب قائدا

---

* درجة الماجستير فى العلوم العسكرية.

للفيلق الجنوبى الذى كان مقر قيادته مدينة البصرة يأمر لواءات وقيادات عسكرية ويدير المعركة وهو لم يتجاوز كونه ضابط صف حتى لو منحه صدام أعلى الرتب.

أما قادة الفيالق والمناطق العسكرية الأخرى أثناء الحرب مثل عزة إبراهيم أو طه ياسين رمضان فيقال أن الأول كان بائع ثلج قبل أن يترقى فى درجات الحزب ويصل إلى نائب رئيس الجمهورية ثم أحد القادة العسكريين الستة المسؤولين عن الدفاع عن العراق، وكونه بائع ثلج سابق لا يعيبه الأمر شيئا ولكن الحروب وقيادة المعارك العسكرية لها تقاليد ولها احترام لا يجب تجاوزه.

أما الثانى وهو طه ياسين رمضان فكان ضابط صف فى الجيش قبل قيام الثورة عام 1968 وتمت ترقيته بسبب ولائه الشخصى لصدام حسين حتى أصبح نائبا لرئيس الجمهورية يوجه كبار الضباط وهو لم يخرج من حياته كصف ضابط عمله أن يتلقى الأوامر من أقل الضباط رتبة حتى وإن أصبح نائب رئيس جمهورية، ولنا أن نتخيل أن بعض قادة الفرق العسكرية أو أجنحة الجيش العراقى، يدركون وهم يخوضون المعركة أن الذى يوجههم ويعطيهم الأوامر شخص أمى لا يعرف القراءة والكتابة أو كان حارسا للرئيس أو بائع ثلج سابق أو صف ضابط على أعلى تقدير، لذا فمن الواضح أن الولاء الشخصى والأمية والجهل كانت هى المؤهلات الأساسية التى كان صدام يجعلها معايير تضع الناس فى صفوف قيادة جيش يدافع عن دولة مثل العراق ولأن القهر والقتل كان الأسلوب الطبيعى الذى يستخدمه صدام ضد من يعارضونه فقد كان القادة العسكريون لايعرفون ولا ينفذون إلا ما يقوله الزعيم الملهم وقادة أركانه الأميين والجهلة وهذا ما أكده كثير من الضباط الذين تحدثوا بعد سقوط بغداد ووقوع العراق تحت الاحتلال الأمريكى ومنهم الجنرال ياسين محمد طه الجبورى وهو من كبار الضباط فى سلاح المدفعية العراقى الذى تحدث فى تقرير نشر على موقع "عراق نت" على شبكة الإنترنت فى 21 يوليو 2003 قال فيه "إنه استدعى إلى اجتماع مع الرئيس عام 1999 وأن الأخير طلب منه مساعدة وزارة الدفاع فى بناء أكبر قطعة مدفعية فى العالم وذلك بمساعدة بعض الأخصائيين، مدفعا قطره 210 مليمتر أى أكثر من ثمانى بوصات، لأن المدفع كان بهذه الضخامة فقد كانوا يعلمون أنه لن يعمل ومع ذلك واصل الجبورى إكمال التصميم" وقال ضباط عديدون أدلوا بشهاداتهم فى هذا التقرير

إن صدام كان يعتمد على "نظام الرشاوى" مع الضباط وهذا ما أفرخ جوا من الخديعة والتضليل جعل صدام يعتقد أن قواته أكثر قوة مما هى عليه، ونقلت عن الجبورى قوله: "لم يكن لأحد أن يخبره بأن فكرته لا تصلح، وكان يجود علينا بالجوائز والهدايا".

أما نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة فقد كان قصى صدام حسين الذى كان حديث عهد بالخبرة العسكرية، فقد امتازت قراراته أثناء الحرب بالتخبط الشديد وإرهاق القوات فى التنقل هنا وهناك مما جعلها هدفا سهلا للقوات الأمريكية كما أخبرنى بعض ضباط الحرس الجمهورى الذين التقيت بهم فى العراق بعد سقوط بغداد وقال أحدهم بأسى: "لم نكن نستقر فى موقع ونتمترس فيه إلا وتأتينا الأوامر بالتحرك لموقع آخر مما جعلنا هدفا سهلا للقوات الأمريكية وأذكر أنى فى لحظة واحدة فقدت أربعة وعشرين دبابة من أفضل الدبابات عندى مع أطقمها بسبب إصرار القائد الأعلى منى على أن أتحرك بقواتى وأجعلها هدفا مكشوفا للقوات الأمريكية، فوقفت أبكى مثل الأطفال من هول ما رأيت كما أن كل اتصالاتنا انقطعت مع قيادتنا ولم نكن نعرف أى هدف نضرب أو إلى أى مكان نتجه".

وقد أكدت صحيفة "سان فرانسسكو كرونيكل" الأمريكية فى عددها الصادر فى 25 مايو 2003 هذه المعلومات وأكدت فى تقريرها الذى نقلته صحيفة "الحياة" التى تصدر فى لندن فى 26 مايو 2003 أن أثنى عشر عسكريا عراقيا ممن لم يسلموا أنفسهم للقوات الأمريكية قد أدلوا بأحاديث للصحيفة قالوا فيها " أن أوامر قصى الذى عينه والده قائدا أعلى للقوات المسلحة بلا أى كفاءات عسكرية دفعت بالآلاف من الجنود خصوصا فرقة حمورابى التابعة للحرس الجمهورى، إلى مناطق مكشوفة خارج بغداد ليقعوا فريسة للضربات الجوية الأمريكية التى قضت عليهم وأشاروا إلى أن هذه الأوامر التى يعتقد أنها حظيت بموافقة صدام حسين نفسه أربكت القادة العسكريين العراقيين وجعلت العاصمة بغداد مكشوفة وبلا قوات دفاع لتفتح الطريق أمام القوات الأمريكية، ولاحظت الصحيفة من العسكريين العراقيين الذين التقى بهم مراسلها أنهم مازالوا مصدومين حتى الآن جراء ما حصل، إذا قال أحدهم: "إن الجنود كانوا منهكين فى الأيام الأخيرة للحرب ومتوترين لدرجة الجنون، نظرا لعدم توقفهم عن الانتقال من مكان إلى آخر وفقدانهم القدرة على النوم"، وقال ضابط كان ضمن

خط الدفاع قرب مدينة الكوت جنوب بغداد: "إن كل وسائل الاتصال بين المقاتلين فى الجبهات وقيادة الأركان العليا توقفت عن العمل كليا قبل أسبوع من سقوط بغداد"، وقال الجنرال علاء عبد القادر أحد قادة الحرس الجمهورى: "إن تعيين قصى على رأس الجيش لم يكن له مبرر واحد واتخذ بالفعل قرارات مصيرية بإرسال الحرس الجمهورى بعيدا عن العاصمة إلى مناطق قرب كربلاء وغرب الفرات ظنا منه أن القوات الأمريكية ستأتى من هناك، وعندما اكتشف خطأه أمر الجنود بالعودة إلى بغداد، فكان الوقت متأخرا جدا" وأضاف: "إن صدام وقصى أمرا قيادة الأركان فى الثالث من إبريل نيسان -أى قبل سقوط بغداد بستة أيام- بإبلاغ الجنود أن الأمريكيين نقلوا رسالة إلى العراقيين مفادها أن الأمريكيين سوف يضربون بغداد بالأسلحة النووية"، وقال: "بأن القادة العسكريين رفضوا فى البداية إطاعة هذا الأمر وحاولوا إقناع صدام وابنه بأن مثل هذا الإعلان سوف يحبط معنويات الجنود، لكن قصى الذى ظل طوال الوقت بملابسه المدنية مرتديا البدلة وربطة العنق، أصر على إصدار بيان بهذا الخصوص مما أثار حنق العسكريين، ووفقا لما ذكره الجنرال "عبد القادر" أدرك قصى أن العسكريين غير راضين عن قراراته فدعا لاجتماع موسع لتنفيس ذلك الغضب، وصب اللوم فى الهزيمة خلاله على العسكريين، وفى الاجتماع انهار أحد كبار القادة العسكريين وراح يبكى قائلا بأن خيرة جنوده قتلوا".

ونقلت الصحيفة عن الكولونيل خالد الطائى الذى حضر الاجتماع قوله: "إن شعورا بالغثيان ساد بين الحاضرين من تصرفات صدام ونجله، وأضاف أن العسكريين بدأوا يتهامسون سرا بأن من يرغب فى مواصلة القتال فليفعل ذلك على عاتقه الشخصى"، وأضاف: "إن جميع القادة العسكريين قرروا الانصراف إلى بيوتهم معلنين أنهم مستعدون للقتال من أجل مستقبل أبنائهم ووطنهم ولكن ليس من أجل صدام وعدى" هذا جانب من الصورة يبين كيف كان العسكريون يفكرون وكيف كان صدام وقصى -وهما أجهل الناس بالعسكرية- يقودون الجيش العراقى إلى حتفه، بقرارات كما يقول القادة العسكريون لا تمت للممارسة العسكرية بصلة ولنا أن ندرك أن هذا حدث قبل ستة أيام من سقوط بغداد حيث كان القتال لايزال مستعرا بعيدا عنها، حيث أجمع هؤلاء القادة العسكريون لمراسل الصحيفة أن هذا كان آخر اجتماع للقيادة العسكرية التى تفرق شملها بالفعل مساء الرابع من أبريل / نيسان وفى الخامس

منه شنت الدبابات الأمريكية هجمات سريعة ومتكررة على بعض أحياء بغداد بينما كان الصحاف يعلن عبر مؤتمراته الصحفية بأن القوات العراقية سوف تسحق "العلوج" فى الوقت الذى كان القادة قد يئسوا وتفرقوا حسب أقوالهم إلى بيوتهم، وفى السابع من إبريل تم احتلال القصر الجمهورى، وفى اليوم الثامن وصلت دبابتان إلى جسر الجمهورية ووقعت مذبحة الصحافة، وذلك من أجل التغطية على جانب خطير من القصة وهو تهريب الخونة الذين باعوا بغداد والعراق وذلك حسب تقرير مفصل نشرته أسبوعية "لو جورنال دودىماش" الفرنسية فى 25 مايو 2003 ونقلته عنها وكالة الأنباء الفرنسية حيث جاء فى التقرير "أن صدام حسين تعرض للخيانة من ابن عمه ماهر سفيان التكريتى الذى كان معاونا لنجله قصى فى قيادة الحرس الجمهورى، مشيرا إلى أن ماهر سفيان أمر قواته بعدم الدفاع عن بغداد إثر اتفاق عقده مع الأمريكيين، وقد أعلنت القوات الأمريكية فى 8 إبريل عشية سقوط بغداد وبعد الاستيلاء على مطارها موت ماهر سفيان التكريتى" وأشارت الأسبوعية فى تقريرها "أن الرئيس العراقى السابق صدام حسين كان قد أعلن فى جولته التليفزيونية التى قام بها فى بعض أحياء بغداد فى 7 إبريل أنه تعرض للخيانة" ونقلت "لو جورنال دودىماش" عن محطة "فرانس 2" التليفزيونية الفرنسية أن اللواء عبد الدليمى أحد المسؤولين العراقيين عن الدفاع عن بغداد قبل سقوطها قوله إنه "فى 4 إبريل تاريخ السيطرة على مطار صدام الذى أطلقت عليه القوات الأمريكية اسم "مطار بغداد الدولى" كنا قد فقدنا السيطرة على المدينة، فطلبنا الأوامر من اللواء ماهر سفيان التكريتى، فجاءت الأوامر بالأنسحاب وعدم القتال" ونقلت الأسبوعية عن "مصدر عراقى" أن التكريتى "عقد اتفاقا" مع الأمريكيين "قبل عام من ذلك" يقضى بعدم اشتراك مائة ألف عسكرى من الحرس الجمهورى فى القتال، وأنه اقتيد مع عائلته سرا فى 8 إبريل على متن طائرة "سى 130" إلى قاعدة عسكرية أمريكية، وبالتالى فإن نبأ موته ليس صحيحا".

وأشارت الأسبوعية الفرنسية إلى "خروقات" أخرى قام بها مسؤولون عراقيون بينهم قريب آخر لصدام حسين هو عبد الرشيد التكريتى الذى كان يطلع الأمريكيين على تحركات الجيش العراقى وتحركات قائد قوات "فدائيى صدام" عن صدام حسين، كما تشير إلى ضابط آخر فى الحرس الجمهورى سلم الأمريكيين معلومات عن مكان وجود صدام حسين ليلة 19 - 20مارس، تاريخ اندلاع الحرب على العراق، و7

إبريل فى حى المنصور، وقام الأمريكيون فى التاريخين المذكورين بقصف المكانين المحددين، إلا أن الرئيس العراقى نجا من الموت".

وقد روى لى عراقيون فى بغداد بعد سقوطها أن صدام كان يشك فى بعض من حوله، فاختبرهم واحدا تلو الآخر حتى أخبر هذا بأنه سوف يذهب إلى حى المنصور الذى قصف بعد خروج صدام منه، وأن صدام قد قام بتصفيته على الفور وبعدها فقد الأمريكيون أثر صدام.

وقد روت لى مصادر عراقية عديدة رواية قريبة من هذه وكانت أول خيوط لهذه القصة حصلت عليها من بعض العراقيين الذين التقيت بهم فى دمشق فى منتصف إبريل أى بعد أيام قليلة من سقوط بغداد.

كما نشر الزميل مصطفى بكرى فى صحيفة "الأسبوع" رواية قريبة فى بداية ما يو، كما نشرت صحف عربية وعالمية عديدة بعد ذلك تفاصيل حول قصة الخيانة هذه كان من أبرزها ما نشرته صحيفة "صوت العروبة" التى تصدر فى مدينة "باترسون" الأمريكية بعد أيام قليلة من سقوط بغداد ونقلته عنها صحيفة الشرق القطرية فى 19 إبريل 2003 والقدس العربى التى تصدر فى لندن فى 29 إبريل وأكدوا على أن ظهور وزير الدفاع الأمريكى دونالد رامسفيلد فى اليوم التالى للحرب ضد العراق وتأكيده على شاشات التلفزة بأن "هناك اتصالات بيننا وبين قيادات الحرس الجمهورى فى العراق ولن نكشف عنها حاليا، فانتظروا الأيام القادمة" لم يكن هذا الإعلان للدعاية حيث فسر آنذاك ولكن مجريات الأحداث أكدته فى النهاية، وأشارت إلى أن الطائرة التى هبطت فى مطار بغداد مساء ا لثامن من إبريل لم تحمل ماهر سفيان التكريتى وحده وإنما نقلت مائتى ضابط عراقى، وعلى موقع "عراق نت" على شبكة الإنترنت نقلت تفاصيل أخرى فى تقرير نشر فى 21 يوليو 2003، عبر لقاءات عقدت مع أكثر من عشرين من القادة العسكريين بينهم العميد حسن القبانى 46 عاما والذى كان يقود فرقة دبابات فى الحرس الجمهورى حيث قال: "إنه بعد 12 يوما من الحرب عندما كان الجنرالات الأمريكيون ما زالوا يتحدثون عن الحرس الجمهورى، كان هو قد فقد الاتصال مع قيادته، وبدأ الجنود يهربون فى موجات متلاحقة منذ 3 إبريل حيث تحولت دبابته إلى هيكل حديدى محروق بعد أن أصابتها القاذفات الأمريكية"، وأضاف

القبانى: "سبعون فى المائة من جنودى ذهبوا إلى منازلهم، وقد توصلت إلى أننا لا نملك أية فرصة فى النصر ولذلك سمحت لهم بالذهاب، فلم تكن هناك فائدة وكان الجميع يعرفون أننا سوف نخسر أمام الأمريكيين" ونقل التقرير عن الجنرال كريم سعدون قائد سلاح الجو العراقى قوله كيف كان صدام حسين يغدق الهدايا والعطايا على كبار الضباط ويطلب منهم أشياء لا تمت للعسكرية بصلة وكان الضباط لا يجرأون على مواجهته وقول الحقيقة، وأنه "فى أواخر شهر فبراير 2003 أمر السلاح الجوى بتفكيك طائراته وهو تمرين ظلت القوات الجوية العراقية تمارسه منذ حرب الخليج عام 1991 وكانت هذه الطائرات يتم إخفاؤها فى المزارع، وقد أصبح الطيارون العراقيون من المهارة إلى درجة قدرتهم فك أجنحة طائرة الميج ـــ 21 فى ساعتين فقط" ولعل هذا ما فسر حصول القوات الأمريكية على عشرات الطائرات العراقية سليمة أو مفككة وموزعة فى بعض المزارع، ونقل التقرير عن العقيد ديار عبد 36 سنة وهو قائد جناح بجنوب بغداد قوله: "لم تكن لدينا أوامر ظللنا باقين فى القاعدة، وفكرت أننا فقدنا بلادنا، لماذا لا يصدرون لنا الأوامر؟ لم يكن قادة القاعدة يعرفون" وقال الجنرال سعدون ماهو أخطر وأدهى: "أعطونا كلاشينكوف فقط لا غير، لم يعطونا أسلحة دفاع جوى، وقلنا لهم هل يمكن أن تعطونا قنابل تطلقها الصواريخ؟ وقبل أسبوعين فقط من سقوط بغداد كانت القاعدة الجوية قد فقدت اتصالها مع الرئاسة التى لا تبعد عنها أكثر من عدة أميال"، وقال: "كانوا يحضرون بعد كل يومين وفى يدهم رسائل مكتوبة، وأخرى شفهية عن أوضاع الحرب" وقال العقيد عبد الرزاق: "حينما وصل الأمريكيون إلى بغداد واقتحموا المطار بدأ الجنود فى الهرب، وقد هرب نصف رجالى أما النصف الثانى فقد اختبأ فى مبان كانت قريبة من المطار"، وأضاف عبد الرزاق: "هرب كثيرون من اللواءات، وكان ذلك أمرا مزعجا، الحرس الجمهورى لم يكن راغبا فى القتال" وفى النهاية جمع عبد الرزاق جنوده، وطلب منهم أن يقرروا ما يفعلون "لم نكن مقتنعين، ولذلك لم نقاتل، وذهب الجميع إلى منازلهم" واختتم الرجل شهادته قائلا: "إننى أشعر بالعار والمهانة، كضابط لا أستطيع أن أكشف ما شعرت به للجنود، وحتى الآن لا أستطيع أن أصف ذلك الشعور".

هذه بعض الشهادات التى تؤكد كيف أن صدام يتحمل المسؤولية الأساسية عن صناعة جيش كرتونى فى النهاية ووضع رجال أميين وجهلة الذين كانوا يدينون له بالولاء الشخصى والذين خانوه فى النهاية على رأس جيش العراق.

أيضا لم تكن هناك خطة محددة للدفاع عن بغداد أو العراق بشكل عام، وقد اتضح لى ذلك حينما كنت فى بغداد قبيل اندلاع الحرب بأيام حيث بقيت فى بغداد إلى 15 مارس 2003 فيما اندلعت الحرب فى 19 مارس حيث شاهدت بعينى أنه باستثناء بعض الخنادق التى حفرت فى المدينة لم يكن هناك أى مظاهر تدل على أن المدينة تترقب المعركة سوى تسريب إشاعات بأن هناك سبعة ملايين مسلح سوف يأكلون الأمريكيين ويسحقونهم حينما يقتربون من أبواب المدينة كما أكد لى العراقيون بأنه ليس هناك أى حشد إعلامى مثل الذى سبق "أم المعارك" فى العام 1991 على سبيل المثال حيث كان التليفزيون يبث الأغانى الحماسية والتعبئة الجماهيرية وهذا ما لم يحدث قبيل الحرب الأمريكية على العراق، وأذكر أنى صليت الجمعة الأخيرة قبل نشوب الحرب وكانت تصادف يوم 14 مارس فى المسجد الكبير المواجه لشارع المتنبى فلم يتطرق خطيب المسجد للحشود الأمريكية أو التهديدات بالحرب وكأنى أصلى فى "بوركينا فاسو" وليس فى بغداد التى كانت الحشود الأمريكية على أطرافها وغيوم الحرب المظلمة تغطى سماءها، وقد أكد العسكريون الذين تحدثوا لصحيفة "سان فرانسسكو كورنيكل" الأمريكية فى 25 مايو 2003 أن "صدام حسين" امتنع عن اتباع خطط عسكرية أعدت قبل الحرب لشن حرب شوارع للدفاع عن بغداد، على رغم البيانات المتكررة التى أعلنتها القيادة بأن الجيش العراقى سيقاتل من بيت إلى بيت دفاعا عن العاصمة، وفى المقابل اقتصرت الدفاعات العراقية على الخطوط الثلاثة المستديرة حول بغداد التى كان أضيقها على بعد 30 ميلا عن المدينة.

وكشف الجنرال عبد القادر أن "خطط ما قبل الحرب تضمنت تكتيكات دفاع اعتمدت على تلغيم الجسور والطرقات ومطار بغداد الدولى، الذى كان من المفترض نسفه على نحو يجعل القوات الأمريكية تتطاير فى الهواء بعد احتلاله لكن أيا من هذه التكتيكات لم يتم اتباعه أو تنفيذه" وألقى عبد القادر باللائمة على "العسكريين العراقيين ذاتهم وأشار إلى أن شعورا كان سائدا فى أوساطهم بأن بغداد عصية ولن

يستطيع الجيش الأمريكي دخولها" فيما قال ضابط فى الاستخبارات العراقية قرر عدم ذكر اسمه أن "العراقيين تأخروا كثيرا فى الإعداد للحرب، على رغم المؤشرات الخطيرة إلى الاستعدادات الأمريكية لها، وأكد ذلك الضابط حيدر أحمد الذى كان مسؤولا عن 250 جنديا فى منطقة الفاو جنوب العراق بقوله إن قواته تسلمت صواريخ أرض ـــ أرض و لم يكن الجنود قد دربوا على استعمالها من قبل لاستخدامها فى صد الهجوم فقط فى الأيام الأخيرة قبل نشوب الحرب، وبالفعل لم تستعمل عند بدء الهجوم".

وعلاوة على ذلك كانت الجبهة الداخلية للعراق ممزقة للغاية، ولا يمكن لأى قائد أن يخوض معركة خارجية وجبهته الداخلية ممزقة وكارهة له ولنظامه وهذا ما لم يدركه صدام، فقد بلغت كراهية شعبه له مبلغا لا يوصف تمثل فى التاسع من إبريل حينما أسقط التمثال الأول فى ساحة الفردوس تبعه تدمير شامل لكل تماثيله بل وتصفية لرجال نظامه بلغت أشكالا دموية شنيعة بسبب ما ارتكبه بحق شعبه.

أما عن مسار معركة بغداد فإننا لا نستطيع أن نقول بأن القوات العراقية لم تقاتل فى معركة بغداد بشكل نهائى ولكن جانبا منها قاتل دون شك ولكنه قتال المنهزم لأن القيادات العراقية بدت منهزمة من البداية كما ظهر فى أقوال القادة الذين تحدثوا إلى بعض وسائل الإعلام بعد ذلك وهو ما سبق الإشارة إليه، وهذا ما حدث فى المناطق الجنوبية التى صمدت أكثر من أسبوعين ليس بفضل صمود القوات العراقية ولكن بفضل صمود الفدائيين والمتطوعين من عراقيين وعرب، فالفرقة 51 التى كانت مكلفة بالدفاع عن البصرة انسحبت من المدينة فى اليوم الرابع للقتال ومباشرة بعدما ظهر قائد الفرقة اللواء خالد الهاشمى على شاشة "قناة الجزيرة" ليعلن نبأ عدم استسلام قواته حيث كان قد أصدر أوامره لقواته بالانسحاب -كما أكد لى الزميل محمد العبد الله الذى أجرى معه الحوار وكان ربما المراسل الصحفى الوحيد الذى سمح له بالتواجد فى البصرة فى ذلك الوقت- فى نفس الوقت كان البريطانيون يتفاوضون مع زعماء العشائر وقادة باقى القوات غير النظامية حتى أخليت لهم المدينة تماما ودخلها البريطانيون دون مقاومة إلا من متطوعين عرب خاضوا معهم معركة دامية قرب جامعة البصرة أشاد بها القائد البريطانى نفسه وقال: "لقد سببوا لنا إزعاجا شديدا" وكان عددهم خمسة عشر مقاتلا فقط ينتمون حسبما أشار مراسل وكالة الأنباء

الفرنسية الذى شاهد جثثهم بعد المعركة البطولية الدامية التى خاضوها ضد القوات البريطانية بأنهم كانوا مصريين وفلسطينيين ولبنانيين وسوريين وعراقيين.

أما مدينة الناصرية التى خاضت قتالا عنيفا وأعاقت تقدم القوات الأمريكية طيلة أسبوعين فقد ظهر فى النهاية كما ذكر مراسلون مرافقون للقوات الأمريكية أن الذين خاضوا المعارك الضارية ضد القوات الأمريكية لم يكونوا يزيدون عن مائة وخمسين مقاتلا، وبينما كان الأمريكيون فى طريقهم إلى بغداد ظلوا يخوضون معارك ضارية طيلة يومين كان المحللون العسكريون يتحدثون فيها عن فرق الحرس الجمهورى وعن المعارك التى تخوضها لكن الحقيقة كما ذكرها المراسلون المرافقون للقوات الأمريكية كانت تعود لكتيبة من المقاتلين العرب قوامها مائتى مقاتل هى التى أخرت تقدم القوات الأمريكية طيلة يومين بل إنها نجحت فى تراجع القوات الأمريكية وتقهقرها بعدما سيطرت على المطار فى المرة الأولى، وقد قضى على هؤلاء وأسر بعضهم وانسحب آخرون إلى بغداد يحملون بعض شهدائهم كما نقلت ذلك وكالات مصورة عديدة ولا يستبعد أن يكون هؤلاء الذين بدا أنهم مدربون تدريبا عاليا من هؤلاء المقاتلين العرب الذين فروا من أفغانستان بعد هجوم القوات الأمريكية عليها حيث نجح أربعمائة منهم من الوصول إلى جبال كردستان.

وقد أجرت مجلة "تايم" الأمريكية تحقيقا مطولا قام به فريق من صحفييها للبحث فى معركة سقوط بغداد ونشرته مترجما صحيفة "الراية" القطرية فى 19 مايو 2003 أكدت فيه على فرار الكثير من جنود الحرس الجمهورى بعدما وجدوا أنفسهم هدفا سهلا للقوات الأمريكية، وقالت "تايم" إنه "عندما زحفت القوات الأمريكية من الكويت نشرت القيادة العراقية أربع فرق هى بغداد والمدينة وحمورابى ونبوخذ نصر جنوب العاصمة فى خطين دفاعيين على شكل نصف قوس، كان الخط الأول "الخارجى" متحصنا بشكل جيد من كربلاء إلى الكوت ولمسافة طولها 160 كيلوا مترا، أما الخط الخلفى "الداخلى" فطوله تقريبا 48 كيلوا مترا يمتد من اليوسفية وحتى الصويرة"، غير أن عدد القوات المنتشرة فى هذه المناطق كان غير معروف، أما على الورق فيبلغ تعداد كل فرقة حوالى عشرة آلاف رجل، وحسبما أوردته مصادر الاستخبارات الأمريكية فقد تم تقويض كافة هذه القوات، وحسب تقديرات المسئولين

فى البنتاجون والخبراء الأجانب أن قوات الحرس الجمهورى التى اصطفت خارج بغداد والتى تواجهت مع القوات الأمريكية تروحت بين 16 و24 ألف جندى، وفى معظم الوقت كانت الولايات المتحدة تضرب هذه القوات من الجو وفى أغلب الأحيان استخدمت الطائرات المسيرة لتحديد مواقع الدروع العراقية، ومن ثم تبدأ عمليات القصف الجوى لتدميرها، ومن الغارات الجوية التى تقدر بحوالى 28 ألف غارة والصواريخ التى أسقطها الطيارون الأمريكيون خلال الحرب والتى كان 70 % منها ذكية نصفها تم توجيهه إلى الحرس الجمهورى.

فى هذه الأثناء كانت القيادة الأمريكية قد قررت إنهاء معركة بغداد بأى ثمن بعدما أصبحت صورتها سيئة أمام جنودها وأمام الرأى العام الأمريكى والعالمى فمن الناحية العسكرية قررت استخدام أسلحة جديدة غير مسبوقة فى تدمير كافة أماكن تواجد القوات العراقية حول بغداد منها ما كان يشير إليه المراقبون وحتى الصحاف أعلن فى مؤتمراته الصحفية من أنها قنابل صوتية لا تدمر ولكنها تحدث صوتا عاليا اتضح من خلال بعض التقارير أنها قنابل جديدة كهرومغناطيسية تصيب دائرة قطرية صغيرة وتسبب تعطيل الحواس الخمس وكافة أشكال الحياة ومن ثم الوفاة السريعة لكل الموجودين فى دائرتها.

وقد أبلغنى أطباء عراقيون فى مستشفى الفلوجة بأنهم رأو كثيرا من القتلى العراقيين وقد تحولت أجسادهم إلى اللون الأزرق ونزلت الدماء من أنوفهم وعيونهم وآذانهم ولعل هذه هى آثار استخدام صواريخ "هل فاير" التى اعترف وزير الدفاع الأمريكى دونالد رامسيفيلد فى جلسة عقدها الكونجرس الأمريكى فى 14 مايو 2003 ونقلت تفاصيلها وكالة الأنباء الفرنسية باستخدامها فى الحرب ضد العراق وقال: "إن هذه الصورايخ تتميز بقدرتها التدميرية الهائلة وتتسبب فى نشوب جدار نارى يستهلك الأوكسجين فى المكان بحيث يموت الضحايا اختناقا من دون أن يؤثر ذلك على الأماكن القريبة" وأوضح رامسفيلد "أن الصواريخ والقنابل الحرارية باستطاعتها أن تدمر الطابق الأول على سبيل المثال من البناء المستهدف من دون أى إلحاق أضرار بالطوابق الأخرى، كما أنها مثالية للقضاء على العناصر المعادية المختبئة فى المغاور أو الملاجيء المحصنة".

كما أبلغنى اللواء أركان حرب صلاح الدين سليم الأستاذ بأكاديمية ناصر العسكرية العليا فى حوار أجريته معه أنه تأكد استخدام الأمريكيين لقنابل محرمة دوليا لها خاصية القنابل النووية غير أن تأثيرها يمتد إلى دائرة صغيرة قطرها لا يزيد عن كيلومتر واحد.

مصادر أخرى أشارت إلى بعض القنابل التى ألقيت على قطاعات عسكرية كانت تؤدى إلى تسييل أجساد الجنود بحيث لا يبقى إلا الهياكل العظمية وقد سألت بعض الأطباء العراقيين عن ذلك فقالوا إنهم فى المستشفيات لم تصل لهم إلا الجثث التى كان يعتقد أن أصحابها ربما كان هناك أمل أن يكونوا على قيد الحياة كما أنهم سمعوا عن هذه الحالات من بعض الجنود، وتحدث العراقيون عن قنابل أخرى كانت تؤدى إلى تحجر أجساد الجنود أو الذين يتواجدون فى دائرتها، وذكر الأطباء فى مستشفيات بغداد أنهم صادفوا حالات صعبة التشخيص ولايعرفون أسبابا لكيفية إصابتها بالشكل الذى جاءت عليه.

وإذا كانت التقارير لازالت تتحدث حتى الآن عن اكتشافات جديدة لنوعيات من الأسلحة المحرمة دوليا والتى استخدمها الأمريكيون فى حرب كوريا بداية الخمسينيات وفى حرب فيتنام فى الستينيات والسبعينيات فما بالنا بحرب العراق التى لم تنته من الناحية العملية رغم إعلان بوش عن نهاية العمليات فى أول مايو 2003 كما أنه لم يعلن حتى الآن عن عدد الضحايا بشكل عام والعسكريين منهم بشكل خاص.

فى هذه الأثناء كان الأمريكيون قد رتبوا آخر أوراق التفاوض مع الخونة، وكان القادة الجهلة قد فروا هم الآخرين وتركوا الضباط والجنود المخلصين لبلدهم يواجهون الحرب وحدهم حيث دخل الأمريكيون إلى بغداد دون مقاومة وبثمن بخس، وقد أكدت مجلة "تايم" الرواية السابقة ونقلت عن ضابط رفيع المستوى فى الحرس الجمهورى قوله: "إن الجنود قد وجهوا إلى ترك أماكنهم فى السادس من إبريل أى قبل سقوط بغداد بثلاثة أيام، وأنه قد شاهد بأم عينه أثناء جولته من أجل إعادة تجهيز قادة متخلفين فى العاصمة بغداد بمجموعة من الضباط الكبار يتحركون عبر مختلف الوحدات يطلبون منهم ترك أسلحتهم جانبا والعودة للبيوت وأنه رأى بأم عينه عميد ركن وعقيد ركن لم يستطع معرفتهم يخبرون وحدات مقاومة الطائرات بعدم استخدام

أسلحتهم ضد طائرات العدو" وهذا يؤكد أن الخيانة لم تكن عند حد ماهر سفيان التكريتي وحده وإنما من آخرين أيضا، ولعل هذا يكشف جانبا من قصة سقوط بغداد دون مقاومة.

إن قصة سقوط بغداد ليست سوى قصة حاكم ظالم مستبد جمع حوله مجموعة من الجهلة والخونة حكم بهم شعبه بالحديد والنار وما ذكرته ربما ليس سوى سطر واحد من سطور هذه القصة "قصة سقوط بغداد".

سقوط بغداد بين هولاكو وبوش

2003 - 1258

حينما سقطت بغداد فى التاسع من إبريل عام 2003 كان الذهول يحيط بالجميع، لكنى تركت الواقع وعدت إلى كتب التاريخ لأقرأ عن سقوط بغداد على يد هولاكو عام 655 للهجرة - 1258 للميلاد وأحاول أن أقدم قراءتين قراءة لم نعشها وقراءة عشناها لحدث واحدة ولمدينة واحدة.

فحينما وصل هولاكو إلى أسوار بغداد كان قد دان له كثير من أمراء المسلمين الذين مر بهم فى طريقه من بلاد التتار حتى أصبح كثير منهم مستشارين له وكان منهم حسام الدين الفلكى الذى نصح هولاكو بعدم التعرض للخلافة وبغداد إلا أن نصير الدين الطوسى شجع هولاكو على المضى إلى بغداد بل وانطلق يقود جانبا من الجيش لمحاصرة عاصمة الخلافة من ناحية المشرق، وكان قصر الخلافة قد امتلأ بالرافضة والباطنية مثل الوزير ابن العلقمى الذى اجتمع مع هولاكو، وكان فى نفس الوقت وزيرا لدى الخليفة المستعصم، فلما استشاره الخليفة نصحه ابن العلقمى بمصانعة التتار ولعب هذا الوزير دورا خطيرا فى دعم التتار وسهل لهم قتل العلماء والأمراء والحجاب والكبار، وقد خرج الخليفة إلى هولاكو قبل ذلك فى محاولة للاستسلام دون إراقة الدماء ومعه ثلاثة آلاف من الفقهاء والعلماء والأعيان، فدخل الخليفة إلى خيمة هولاكو فطلب منه هولاكو أن يأمر أهل بغداد بإلقاء السلاح، وما أن أصدر الخليفة أمره لأهل بغداد بإلقاء السلاح حتى استباح جند هولاكو المدينة، فمارسوا القتل والسلب وارتكاب المنكرات، وأخذوا يقتلون الجميع نساء وأطفالا وشيوخا وشبابا حتى بلغ عدد من قتل خلال أربعين يوما ألف ألف أى مليون مسلم، حتى كانت

الميازيب تجرى بدماء الناس فى الشوارع كما يقول ابن كثير فى تاريخه، ثم سير هولاكو الخليفة إلى بغداد ومعه نصير الدين الطوسى وابن العلقمى، حتى يدلوا جند هولاكو على أماكن الذهب والمجوهرات والنفائس، بعدها عاد الخليفة فقتلوه رفسا، وأصبحت بغداد بعد أربعين يوما خاوية على عروشها، لكن التتار ركزوا على تخريب القصور وإتلاف الكتب حتى أنهم ملئوا نهر دجلة بالكتب وجعلوها جسورا لخيلهم فتحولت مياه النهر إلى اللون الأسود من اختلاطها بالمداد ولنا أن نتخيل حجم هذه الكتب التى كانت كلها من المخطوطات فى عصر من العصور الذهبية للأمة، وهذا الوضع البائس ربما هو الذى جعل ابن الأثير صاحب كتاب الكامل فى التاريخ يقول "لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها، فكنت أقدم رجلا وأؤخر أخرى فمن الذى يهون عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمى لم تلدنى، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا".

ما حدث فى 1258 يكاد يكون شبيها بما حدث فى 2003 فلولا دعم أمراء المسلمين لهولاكو ما سقطت بغداد، ولولا دعم دول عربية وإسلامية لبوش ما سقطت بغداد فى 2003، ولولا الخونة فى بلاط الخليفة وعلى رأسهم وزيره ابن العلقمى لبقيت الخلافة، ولولا الخونة فى صفوف النظام العراقى لطالت المعركة على الأقل ولم تسقط بغداد وتسلم دون قتال بثمن بخس، وبشكل مريع، وكما كانت القصور والمكتبات والنفائس هدفا لهولاكو وجنوده فنهبوها ثم دمروها وحرقوها فقد كانت كذلك لبوش وجنوده فقد دخلوا القصور أولا فأخذوا ما فيها من نفائس وتذكارات كما أشار كثير من التقارير ثم تركوا بعضها نهبا للغوغاء وهى تراث شعب وثروات أمه وليست ملكا لصدام ونظامه، ثم أتلفت كل ثروة العراق التاريخية والثقافية فأحرق المتحف الوطنى العراقى بعدما نهب وكذلك المكتبة الوطنية التى تضم الوثائق ومكتبة الأوقاف التى تضم نفائس المخطوطات وعشرات من مراكز العلم والثقافة والتاريخ فى البلاد، أما الثروات وعلى رأسها النفط فقد فرضت الحراسة على وزارة النفط ولم يسمح لأحد بالاقتراب منها.

إن تخريب بغداد وتراثها وثقافتها وقصورها ومتاحفها، ومكتباتها كان مقصودا عام 1258 وكان مقصودا كذلك فى عام 2003، ومن عاد لكتب التاريخ لن يجد فارقا بين ما فعله هولاكو وما فعله بوش سوى الفارق فى وسائل الحرب ومدتها لكن الصورة تكاد تكون متطابقة فى كثير من الشواهد والمعطيات والمقصود فى الحالتين هو تدمير هوية العراق أرض الرسالات ومهد الحضارات ومفتاح المنطقة.

حرب الأكاذيب

من راقب المؤتمرات الصحفية التى كان يعقدها وزير الدفاع الأمريكى دونالد رامسفيلد بدقة يجد نفسه أمام رجل زائغ العينين، مضطرب، مهزوز ومتضارب ومشوش فى معلوماته التى يتحدث بها إلى الصحفيين، وأتمنى من كل قارئ لم يكن يلاحظ هذه الملاحظة أن يسعى لرصدها من الآن، وأعتقد أن رامسفيلد قد ورط الإدارة الأمريكية كثيرا من خلال هذه المؤتمرات الصحفية التى كان يعقدها قبل وأثناء وبعد الحرب التى يبدو فيها زائغ العينين ودائما ينظر إلى رئيس الأركان ريتشارد مايرز كلما وجه إليه سؤال من أحد الصحفيين وكأنه لا يدرى ماذا يقول أو أنه ليس لديه معلومات، والرجل فى النهاية لا يقول شيئا حتى أنه فى أحد مؤتمراته الصحفية أراد أن يرد على انتقاد الصحفيين له بأنه لا يقول شيئا بحجة الأسرار العسكرية، فبدأ حديثه لهم قائلا: "أعرف أنكم تواقون لمعرفة معلومات وأننى سوف أكون دقيقا فى معلوماتى معكم هذه المرة" لكن الرجل واصل أكاذيبه كما كان يفعل كل يوم، وحرب الأكاذيب هذه لم تبدأ عند المؤتمرات الصحفية التى كان يقعدها رامسفيلد أو مايرز أو فيكتوريا كلارك أو غيرهم وإنما بدأت قبل فترة طويلة من شن الحرب وكانت على كل مستويات الإدارة الأمريكية وعلى رأسها الرئيس بوش نفسه الذى وقف يخاطب الأمريكيين فى 31 أكتوبر من العام 2002 ليقول لهم "إنهم يكرهوننا ويكرهون إسرائيل، ويهددون أصدقاءنا جيرانهم فى المنطقة" وكانت هذه واحدة من المبررات التى ساقها الرئيس بوش من أجل شن الحرب على العراق، دون حاجة لموافقة مجلس الأمن الدولى الذى كان قد وجه إنذارا أخيرا له فى خطابه هذا بأن يعطى قرارا نهائيا خلال أسبوع، وهنا أقر بوش مبدأ جديدا فى مبررات شن الحروب وتدمير الدول ومقدرات الشعوب هو مبدأ ا لحب والكراهية، وكما كان الكذب ذريعة للولايات المتحدة فى

الحرب التي شنتها ضد فيتنام، حيث ادعت الولايات المتحدة بأن الفيتناميين اعتدوا على سفينة أمريكية ثم اتضح بعد ذلك أن هذا الادعاء لم يكن سوى أكذوبة تماما مثل أكذوبة أسلحة الدمار الشامل التي كانت مبررًا لشن الحرب على العراق و لم يظهر أي دليل حتى الآن رغم مرور عدة أشهر على احتلال الولايات المتحدة للعراق، وكما كانت الحرب على أفغانستان نتيجة أكذوبة وأدت في النهاية إلى مقتل ما يقرب من مليون فيتنامي وستة وثمانين ألف أمريكي حسب بعض التقديرات، فقد سعى بوش مع رجاله للبحث عن أكاذيب لشن الحرب على العراق.

من هذه الأكاذيب ما ادعاه نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني في خطاب ألقاه أمام المحاربين القدماء الذين شاركوا في حروب أمريكا الخارجية وذلك في 26 أغسطس 2002 حيث أعلن دون أي إثباتات أن "صدام حسين يمتلك أسلحة نووية" كما سخر من عملية إرسال المفتشين التابعين للأمم المتحدة آنذاك للعراق مرة أخرى، وكان بوش قد سبقه في الخطاب الذي ألقاه في كلية "وست بوينت" في الأول من يونيو من العام 2002 وأكد فيه على أن الولايات المتحدة سعت منذ عقود للعب دور دائم في الأمن الأقليمي في منطقة الخليج، كمقدمة لتدخل عسكري أمريكي في العراق وكان بول ولفويتز أحد أبرز المحافظين الصهاينة في إدارة جورج بوش وأحد أصحاب المخطط الأمريكي في العراق وهو نائب وزير الدفاع قد ألقى خطابا في العام 1998 أمام لجنة الأمن القومي أي في عهد الرئيس السابق بيل كليتون حدد فيه نواياه تجاه العراق التي ساهم في تنفيذها بعدما أصبح أحد أركان إدارة بوش الحالية حيث قال في العام 1998 "إن الولايات المتحدة غير قادرة أو غير راغبة في اتباع سياسة جادة تجاه العراق، سياسة تهدف إلى تحرير الشعب العراقي من قبضة صدام الاستبدادية وتخلص العراق من تهديدات صدام الإجرامية" وهذا ما يفسر الدور الخطير الذي يلعبه ولفويتز في سياسة واشنطن الحالية تجاه العراق.

ومن الأكاذيب الكبرى التي سوقتها إدارة بوش كمسوغات لشن الحرب على العراق، ما ذكره ريتشارد بيرل الذي ذكرت تقارير مختلفة أنه يحمل الجنسية الإسرائيلية إلى جوار الجنسية الأمريكية وكان يشغل في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق ريجان منصب مساعد وزير الدفاع ثم رأس لجنة السياسات الدفاعية في البنتاجون ثم أقيل من

رئاسة اللجنة بعد فضيحة تعرض لها لكنه بقى عضوا فيها وهى اللجنة التى قامت بترتيب أوارق وملفات الحرب ضد العراق، بيرل هذا الذى أقيل بسبب فضيحة مالية لم يستح أن يسوق كذبة كبرى لتبرير الحرب ضد العراق نقلتها عنه وكالة الأنباء الفرنسية فى 8 سبتمبر 2002 عن حوار أدلى لصحيفة إيطالية قال فيه: "إن محمد عطا الذى يعتقد بأنه قاد هجمات الحادى من سبتمبر اجتمع مع صدام حسين فى بغداد قبل 11 سبتمبر ولدينا الأدلة على ذلك.." هكذا يتم استغفال العالم من واحد من أرفع المسؤولية فى إدارة بوش بعدما أكد الرئيس التشيكى فلاكوف هافل بأن "ادعاء الإدارة الأمريكية بأن محمد عطا قد التقى فى براغ بأحد المسؤولين العراقيين لا أساس له من الصحة ولا دليل عليه".

أما وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، فقد نقلت صحيفة القدس العربى فى 26 أكتوبر 2002 أنه شكل وحدة مخابراتية خاصة عملها الرئيسى هو البحث عن أدلة تثبت وجود علاقات بين العراق وتنظيم القاعدة، وذلك بعدما فشلت السى أى إيه فى تقديم أى دليل على ذلك منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر وحتى الآن، ولعل هذا ما دفع فينسينت كانسترا مدير السى أى إيه الأسبق بأن يصرح بأن أيام المدير الحالى للمخابرات جورج تينيت أصبحت معدودة حيث قال: "إن البنتاجون يقوم بتسييس المخابرات،ويقومون بحملة لدفع الإدارة الأمريكية لعزل جورج تينيت من منصبه لأنه لا يقول الشيء الذى يريدونه حول العراق" وهذا ما حدث بالفعل حيث تم تحميل تينت مسؤولية عدم تأكيد المعلومات التى أشارت إلى امتلاك العراق أسلحة دمار شامل وهو المبرر المعلن الذى شنت من أجله ا لحرب، وهذا يؤكد أن بوش واللوبى الصهيونى حوله كل ما يريدونه هو تقديم مزيد من الأكاذيب لتبرير الحرب حتى لو كانت على مستوى أن صدام قد لقى محمد عطا.

وكما تم ترتيب حملة من الأكاذيب استمر مسلسل الأكاذيب أثناء الحرب أيضا ففى تكذيب مهذب لوزير دفاعه دونالد رامسفيلد، أكد الجنرال فنسنت بروكس الناطق الرسمى باسم القيادة المركزية الأمريكية بقاعدة السليلة فى قطر يوم الأثنين 31 مارس أن القوات الأمريكية الغازية للعراق آنذاك لم تحصل على أية أجهزة للمعدات أو الرؤية الليلية لدى الجانب العراقى، ذلك ردا على سؤال حول اتهام وزير الدفاع

الأمريكى دونالد رامسفيلد لسوريا بأنها ساعدت على إمداد العراق بأسلحة من بينها أجهزة رؤية ليلية، حيث أطلق رامسفيلد ومن بعده باول تهديدهما لسوريا بناء على تلك المعلومات التي كذبها في اليوم التالى أحد جنرالاتهم.

وزير الدفاع الأمريكي رجل مشهور بأنه يكذب كما يتنفس وكما شنت الولايات المتحدة حربها ضد فيتنام من خلال كذبة فقد شنوا حربهم على العراق أيضا من خلال كذبة أثبت المفتشون الدوليون ألا وجود لها، ثم يمهدون باتهامات لسوريا وإيران، ومن يدرى بعد ذلك إلى من سوف توجه الاتهامات؟.

فهؤلاء الحكام الجدد الذين يقودون العالم، الآن يمارسون الكذب حتى على أنفسهم وشعوبهم، بشكل مفضوح، فرئيس الوزراء البريطاني تونى بلير أعلن فى لقائه مع الرئيس بوش فى واشنطن فى بداية إبريل 2003 فى منتجع كامب ديفيد أن العراقيين قتلوا الأسرى البريطانيين لكن شقيقة أحد القتلى البريطانيين قررت مواجهة رئيس الوزراء البريطاني وإثبات أنه كاذب فأكدت أن شقيقها قد قتل فى المعركة وأن قائده قد أكد لها ذلك، وخرج وزير الدفاع البريطاني جيف هون فى اليوم التالى ليعلن اعتذار الحكومة عن تصريحات بلير غير الصحيحة. كما أن وزير الدفاع البريطاني هون يمارس الكذب كل يوم سواء أمام البرلمان أو خلال مؤتمراته الصحفية، حيث أعلن فى البداية أن قواته استولت على ميناء أم قصر، ثم اتضح أنه بعد دخول الحرب أسبوعها الثالث لم يكن البريطانيون قد تمكنوا من السيطرة سوى على بعض قطاعات الميناء، كما أعلنوا أنهم دخلوا البصرة وأسروا قائد الفرقة العراقية العسكرية 51 فى البصرة، فخرج الرجل على شاشة قناة "الجزيرة" ليؤكد كذبهم، وأن البصرة حتى ذلك الوقت لم تقع فى أيديهم، ثم اتضح أنهم يكذبون فيما يتعلق بعدد قتلاهم وجرحاهم ليس خلال المعركة فحسب وإنما حتى كتابة هذه السطور.

وقد عانى الصحفيون الذين كانوا يقيمون فى قاعدة السيلية فى قطر بأنهم لم يكونوا يحصلون سوى على معلومات شحيحة أثناء الحرب، أما الصحفيون الذين كانوا يرافقون القوات الأمريكية والذين كانوا يحاولون الخروج من إطار الحصار المضروب عليهم فإنهم كانوا يتعرضون للطرد مثل، جيرالدو ريفيرا أحد كبار المراسلين فى محطة "فوكس نيوز" اليمينية الأمريكية التي قامت -حسب رأى معظم المراقبين- بتغطية

منحازة للحرب لصالح وزارة الدفاع، وذلك لمجرد أنه أعطى معلومات عن المكان الذى كان فيه، والأهم منه هو بيتر أرنيت مراسل محطة سى إن إن الشهير أثناء حرب العام 1991 والذى كان يعمل حتى يوم الأثنين 31 مارس 2003 لمحطة "إن بى سى" الأمريكية وناشيونال جيوجرافيك، لمجرد أنه أدلى بحديث للفضائية العراقية تحدث فيه عن إخفاق قوات التحالف فى مخططها العسكرى حتى ذلك الوقت رغم أن محطة "إن بى سى" الأمريكية دافعت عن أرنيت فى البداية إلا أنها تحت الضغوط فصلته، لكن صحيفة "الديلى ميرور" أبرز صحف التابلويد البريطانية أعلنت فى اليوم التالى أن أرنيت فصل لأنه يقول الحقيقة وقررت "الديلى ميرور" أن تعين أرنيت مراسلا لها حتى يبقى الناس يعرفون الحقيقة كما ذكرت فى عنوانها الرئيسى وكذلك فعلت محطة تليفزيون "العربية " وعينت هى الأخرى أرنيت مراسلا تليفزيونيا لها.

ومن يشاهد ويستمع إلى تقارير المراسلين الغربيين المرافقين للقوات الغازية يجد أن معظمها ليس سوى ترديد لصدى الأكاذيب التى يروجها العسكريون الأمريكيون حتى أن هؤلاء المرافقين للقوات يعاملون كما يقول الصحفى البريطانى فيليب غيبس مثل الجنود، ولا بد عليهم أن يلتزموا بأوامر الضباط وبعضهم منح رتبة عسكرية مما جعل ماليزيا على سبيل المثال تقرر بعد أسبوعين من بداية الحرب أ ن ترسل فريقا من ثلاثين صحفيا ليقوموا بتغطية الحرب بأنفسهم حتى يعرف الشعب الماليزى حقيقة ما يحدث من خلال الصحفيين وليس من خلال الإعلام الغربى الذى تحول إلى بوق للأكاذيب يردد ما يروجه القادة العسكريون والسياسيون الغربيون.

وتدار حملة الأكاذيب الأمريكية من خلال "مركز التأثير النفسى والخداع" التابع لوزارة الدفاع الأمريكية والذى سبق لوزير الدفاع الأمريكى أن نفى وجوده لكن اتضح فيما بعد أن نفيه لم يكن سوى إحدى أكاذيبه، وحينما شعر الأمريكيون أن بعض وسائل الأعلام والصحفيين قد فضحوا أمريكا وكذبوا مسؤوليها وجهت الإدارة الأمريكية تحذيرات وتهديدات، للمؤسسات والصحفيين الذين يريدون العمل بحرية، حتى لا تنقل الحقيقة للناس وكان التهديد علنيا من كريغ كويغلى نائب مساعد وزير الدفاع الأمريكى الذى قال " إن المراسلين الذين يختارون ملاحقة الأخبار فى الجانب العراقى سيكونون عرضة للقصف الأمريكى.. فإذا كان هناك هدف مشروع إلى

جانب مركز للتسهيلات الإعلامية فإن ذلك لن يعوق صواريخنا عن الوصول للهدف المشروع بغض النظر عما قد ينتج هذا عن هذا القصف " وهذا ما حدث بالفعل، فقد قصف مقر المراسلين فى وزارة الإعلام العراقية مرتين خلال الأسبوع الأول من إبريل حتى يفر الصحفيون الغربيون منه، كما قصف مقر قناة الجزيرة فى البصرة وبعدها قصف مقر قناة الجزيرة فى بغداد فى 8 إبريل ودمر جانب منه واستشهد الزميل طارق أيوب كما قصف فى نفس اليوم المركز الصحفى فى فندق ميرديان فلسطين وقتل صحافيان وجرح آخرون.

إن هذه المعطيات تؤكد أننا أمام أكبر حرب أكاذيب فى التاريخ حيث يمارس الكذب علنا وعلى الهواء وعلى شاشات التلفزة ومن أراد أن يتابع هذه الأكاذيب فما عليه إلا أن يتابع ويتأمل المؤتمرات الصحفية التى يعقدها السياسيون والعسكريون الأمريكيون لاسيما وزير دفاعهم رامسفيلد ويتابع تعبيرات وجهه وحجم الأكاذيب التى يتفوه بها والتى ربما تزيد عن عدد أنفاسه.. ومن بين الذين برزوا فى الأكاذيب أثناء الحرب كانت فكتوريا كلارك الناطقة باسم وزارة الدفاع الأمريكية والتى كانت تطل على الناس فى أنحاء العالم بشكل دائم فى المؤتمر الصحفى الذى كانت تعقده فى مقر وزارة الدفاع لكنها فى النهاية دفعت ثمن الأكاذيب التى كانت تروجها.

مصير فيكتوريا كلارك:

"أترك هذه الوظيفة بحزن، لأنها كانت أهم وأفضل تجربة مهنية فى حياتى.. كان شرفا عظيما لى أن أعمل فى خدمة أفراد القوات المسلحة الأمريكية" بهذه الكلمات المختصرة والتى تعبر عن حالة من الألم ودعت فيكتوريا كلارك الناطقة باسم وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون "وظيفتها مساء السادس عشر من يونيو 2003، ومن المؤكد أن كل من تابع الحرب الأمريكية على العراق قد تعرف على فيكتوريا كلارك من خلال المؤتمر الصحفى اليومى الذى كانت تعقده فى البنتاجون مع العميد جون روزا المسوول فى غرفة العمليات حيث كانت تبدو كلارك بملابسها المزركشة والغريبة وكأنها شخصية معقدة غريبة الأطوار، وقد كنت أحب متابعتها لا لشيء إلا لأن المرأة كانت تكذب أمام الصحفيين مثلما تتنفس على غرار وزير دفاعها، كما كانت شخصيتها تطغى على شخصية العميد روزا، وكنت مع بعض الزملاء نتأمل أداءها

ونقضى الوقت فى تحليل شخصيتها المتسلطة ونحلل أكاذيبها الفجة والمفضوحة حيث كانت تكذب حتى الصور التى ينقلها الصحفيون ومن أشهر أكاذيبها ما أعلنته فى المؤتمر الصحفى مساء الثامن من إبريل 2003 والذى كان مذبحة الصحافة والصحفيين فى بغداد حيث قصف مقر قناة الجزيرة وفندق فلسطين واستشهد الزميل طارق أيوب وقتل وجرح عدد من الصحفيين فى فندق فلسطين ونقلت وسائل الإعلام العالمية على الهواء ما حدث إلا أن كلارك بكل صفاقة ووقاحة واجهت الصحفيين مساء ذلك اليوم فى مقر البنتاجون قائلة: "بشأن هذه الحادثة التى تذكرونها، أنا لم أكن متواجدة هناك، ولا أدرى إذا كان وصفكم لما حدث صحيحا بالفعل، وفهمى لما حدث هو أننا فى حرب، وأن هناك قتالا فى بغداد، قواتنا عرضة للنيران، وهى تمارس حقها اللازم فى الدفاع عن نفسها" هكذا كانت كلارك تدلس وتضلل وتكذب دون أن يرف لها جفن، واتضح بعد ذلك أن هذه المرأة التى وصفها دونالد رامسفيلد وزير الدفاع بأنها "الناطقة الموهوبة" مشيدا بجهودها فى "إبلاغ الأمريكيين جميعا عن قصص قواتنا المحاربة على الجبهات وعن شجاعة هذه القوات وتصميمها وقدراتها القتالية" اتضح لكل من تابع الحرب وتصريحات كلارك أنها لم تكن سوى سلسلة من التضليل والأكاذيب التى احترفها وزير الدفاع الأمريكى وجمع حوله مجموعة من المضللين يروجون الكذب ويحترفون الخداع للأمريكيين وللعالم.

فكريستيان وسترمان الموظف الاستخباراتى فى وزارة الخارجية الأمريكية اعترف بأنه خضع لضغوط من أجل تعظيم مخاطر الترسانة العراقية من أسلحة الدمار الشامل، وقال وسترمان بأن نائب الوزير باول لشؤون التسلح والأمن جون بولوتون مارس ضغوطا شديدة عليه لتعديل تقاريره حتى تتسق مع تصور الإدارة للخطر العراقى قبل الحرب، وفى 17 يونيو2003 أى يوم استقالة المضللة كلارك اتهم السناتور الديمقراطى كارل ليفين مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية "سى آى إيه" جورج تينت بأنه كذب فى شهادته أمام الكونجرس المتعلقة بأسلحة الدمار الشامل العراقية مشيرا إلى وجود وثائق تثبت حجب واشنطن معلومات جوهرية عن مفتشى الأمم المتحدة.

أما فضيحة رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير فإنها "بجلاجل" كما يقول المثل العامى، حيث اعترف مستشاره المقرب جدا منه اليستر كامبل والذى أجبر على

الاستقالة فى 30 أغسطس 2003 بأنه ارتكب خطأين الأول هو سرقة تقرير أعده أحد الطلاب العراقيين ونسبته لأجهزة الأستخبارات البريطانية، والثانى هو سوء الصياغة المتعمد للتقرير، وكان وزير الخارجية البريطانى جاك سترو قد ألقى بالتهمة على كامبل بعدما وجد نفسه تحت المساءلة، وقد وجهت اللجنة البرلمانية البريطانية إلى كامبل تهمة "الخداع للبرلمان وللسيد بلير معا عندما نشر ملفا عن أسلحة الدمار الشامل العراقية اعترف هو نفسه أمام اللجنة بأن بها "أخطاء" ثم جاء انتحار خبير الأسلحة البريطانى الدكتور ديفيد كيلى ليضع بلير وحكومته فى محك خطير.

وإذا رجعنا إلى المضللة الأولى فيكتوريا كلارك نجد أن لها تاريخا كبيرا فى التضليل والكذب، فالمرأة كانت ناطقة رسمية خلال الحملة الانتخابية التى خاضها الرئيس السابق جورج بوش الأب، وتتهيأ الآن من أجل أن تتولى الحملة الانتخابية القادمة لجورج بوش الابن، ومن ثم فإن المعطيات تشير إلى أن الذين يحكمون سواء فى أمريكا أو بريطانيا ليسوا سوى خليط من الكذابين والمضللين لمؤسساتهم وشعوبهم وللعالم أجمع، ولأن رامسفيلد أشهر من يكذب فى الإدارة الأمريكية فقد أثنى على كلارك " وقال إنها طورت طرقا لأبلاغ الرأى العام الأمريكى بما يقوم به البنتاجون " ومن يرجع إلى المؤتمرات الصحفية لكلارك وما كان يقال فيها يستطيع أن يكشف فى ظل المعطيات الحالية حجم الأكاذيب التى كانت تروجها تلك المرأة.

لقد ذهبت كلارك وسوف يذهب كل الذين خدعوا شعوبهم وكذبوا على العالم وضللوه إلى مكان واحد سوف يستقرون فيه جميعا هو "مزبلة التاريخ".

حينما أفاق وولفويتز:

بعد زيارته التى كانت سرية فى البداية ثم كشف عنها فور بدئها، لم يجد بول وولفويتز نائب وزير الدفاع الأمريكى بعدما اطلع على حقيقة وضع القوات الأمريكية فى العراق فى النصف الثانى من يوليو عام 2003 سوى أن يبحث عن كبش فداء ليحمله مسئولية وضع قواته الذى وصفه الكاتب الأمريكى كريستوفر ديكى فى عدد مجلة "نيوزويك" الأمريكية الذى صدر فى 28 يوليو 2003 بأنه "قد يكون أسوأ من فيتنام"، وكان وولفويتز قد اعترف فى لقاء جمعه مع صحفيين أمريكيين فى الثانى

والعشرين من يوليو 2003 بعد أربعة أيام ونصف قضاها فى العراق، بأن بعض الافتراضات المتعلقة باحتلال الولايات المتحدة للعراق كانت خاطئة، وأوجز وولفويتز تلك الأخطاء فى أن المسؤولين العسكريين الأمريكيين فى مرحلة التخطيط لما بعد الحرب توصلوا إلى ثلاثة افتراضات هى أن "إقصاء صدام حسين عن السلطة سوف يؤدى إلى القضاء على التهديد الذى يمثله النظام البعثى، أما الافتراض الثانى فهو أن وحدات كبيرة من الجيش العراقى والشرطة سوف تنضم بسرعة كبيرة للقوات الأمريكية وشركائها المدنيين فى إعادة إعمار العراق، وثالثها أنه لن توجد هناك مقاومة للاحتلال بعد الحرب" ويأتى هذا الأعتراف الذى وصفه كل من سلفين ودانا برست فى صحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية بأنه "اعتراف باهت" فى الوقت الذى كان فيه مسؤولون آخرون فى إدارة بوش يعترفون بأخطاء وأكاذيب روجوا لها لا تقل فداحة عن الأخطاء والأكاذيب التى كان قد روج لها وتحدث عنها وولفويتز فقد وقف جورج تينيت مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية سى آى إيه ليعتذر عن كونه لم يوقف الرئيس بوش عن الإعلان فى خطاب حالة الاتحاد بأن العراقيين كانوا يحاولون شراء اليورانيوم من إفريقيا، بعدما تبين أن أكبر وكالة استخبارات فى العالم، قد ضللت العالم وضللت بوش وإدارته بمعلومات استخباراتية أفضل تعبير لوصفها أنها "غير صحيحة"، وجاء بعد تينيت نائب كوندليزا رايس ستيف هادلى الذى اعترف للصحافيين وهو مرتبك فى نهاية يوليو 2003، بأن وكالة الأستخبارات المركزية كانت قد حذرت البيت الأبيض فى أكتوبر2002 من تقارير استخباراتية بريطانية عن العراقيين واليوارنيوم الأفريقى، وأنه قد نسى كل ما يتعلق بالأمر حين جاء وقت كتابة مسودة رسالة الرئيس حول حالة الأتحاد،، ثم جاء الدور على المرأة الحديدية فى إدارة بوش مستشارة الأمن القومى كوندليزا رايس، التى حاولت أن تدافع عن موقف ضعيف وأكاذيب مفضوحة أصبحت تلف الإدارة كلها وعلى رأسها الرئيس فقالت: "إن الصفعة المتعلقة بالمبالغة فى المعلومات الاستخباراتية كانت تفوق الحد"، وهناك انتقادات حادة وجهت لرايس التى من المفترض أنها تنسق بين كل من رجال الخارجية والدفاع حتى لا يتغلب طرف على الآخر، لكن المراقبين يقولون إن رايس كانت غير فاعلة فى قيادة قطعان من المسؤولين يتملكهم الغرور من الطرفين، حتى أن رجال رامسفيلد كثيرا ما قاطعوا اجتماعات دعت لها رايس بشأن العراق، لذا لم تجد رايس

بدا فى حوار أجرته معها إذاعة "بى بى إس" الأمريكية مساء الأربعاء 30 يوليو 2003 من أن تعترف – بعد محاولات سابقة للتهرب – بمسؤوليتها الشخصية عن قصة شراء العراق يورانيوم من النيجر، وقالت: "بالقطع أشعر بمسؤولية شخصية عن هذه القصة برمتها" وأضافت: "ما أشعر به حقا هو أننى مسؤولة لأن هذه المزاعم أقل من القضية القوية جدا التى كان يعرضها الرئيس"، وبهذا فإن الكل يعترف ويتحمل المسؤولية، لكن نائب وزير الدفاع وولفويتز المسؤول الأول عن المخطط الأمريكى فى العراق، وأحد أبرز دعاة الخطط الحربية الاستباقية والذى شعر بفشل ذريع فى مخططات ما بعد الحرب عبر عنها فى لقائه مع صحفيين أمريكيين حاصروه حتى أنه وصف أخطاء ما بعد الحرب بأنها أخطاء "غبية"، يصر على البحث عن كبش فداء يحمله مسؤولية أخطائه وأكاذيبه وأكاذيب وأخطاء إدارته للتغطية على الخسائر الهائلة التى تتكبدها القوات الأمريكية كل يوم فى العراق ولم يجد سوى أن يشن هجوما متكررا وعبر أكاذيب مغلوطة على بعض وسائل الأعلام العربية التى تقوم بتغطية أحداث العراق متهما إياها بنشر "تحقيقات كاذبة ومواقف متحيزة تحرض على العنف ضد قواتنا" ولا ندرى هل المطلوب من وسائل الإعلام العربية التى تنقل جانبا من الصورة وليس كل الصورة وأؤكد مرة أخرى ليس كل الصورة، لما يحدث فى العراق أن تتحول كلها إلى قناة "فوكس نيوز" لقد استطاع العرب أن ينافسوا القنوات الغربية لأول مرة فى تاريخ الإعلام المرئى العالمى وأن يفرضوا صورتهم حتى على الغرب، وهذا هو الذى يزعج الذين يحرصون على تغطية أخطائهم وخططهم التى وصفوها بأنها "غبية" وقد وصل الأمر بوولفويتز إلى تهديد الحكومات التى تقف وراء هذه القنوات قائلا: "على الحكومات أن تتوقف وتدرك أن الأمر ليس لعبة وأن ذلك يهدد حياة القوات الأمريكية" ليت السيد وولفويتز يعترف بالحقيقة فقط كما اعترف تينيت ورايس وكبار مسؤولى الإدارة وأن يعترف بخطئه هو الآخر ويقر بأنه هو والمسؤولين فى إدارة بوش قاموا بأكبر حرب أكاذيب فى العصر الحاضر لكن جاء الوقت عليهم لتفضح هذه الأكاذيب وربما على ألسنتهم سوف يفضحون أنفسهم وليس بألسنة الآخرين.

شهداء الصحافة

الحرب الأمريكية على الصحفيين فى بغداد

وقفتُ على نهر دجلة قبيل الحرب الأمريكية على العراق بأيام قلائل أو ربما ساعات أتأمل طيور النورس التى شعرت أنها خائفة مثل المدينة وأنها مثل الجميع كانت تدرك حجم الخطر المحدق ببغداد، حيث كان على مقربة منى مبنى وزارة الإعلام العراقية الذى كنت أتخيل أنه آآمن مكان فى بغداد من خطر القصف عند قيام الحرب بسبب كونه مقرا لمعظم وسائل الإعلام العالمية، لكنى وجدت الهلع على وجوه الجميع حينما عدت إلى فندق الرشيد حيث كنت أقيم، فقد أبلغ الصحفيون لاسيما الأمريكيون منهم أن وزارة الإعلام ستكون أحد الأهداف الرئيسية للقصف وربما أولها، وعليهم إخلاء أجهزتهم وأطباقهم اللاقطة والبحث عن مكان بديل، لكن ما هو المكان الآمن فى تلك المدينة التى كانت تترقب حربا آنذاك أشبه ما تكون بحرب انتقامية غير متكافئة أكثر منها مواجهة بين طرفين، كانت المتغيرات لحظية والآراء متباينة والرؤية ضبابية لدى الجميع، فكل واحد يسأل الآخر عما يمكن أن يحدث حتى أنى أنا الزائر للمدينة والذى لم يمض لى فيها سوى بضعة أيام رأيت من قضوا فيها أسابيع وربما أشهرا من المراسلين والصحفيين بل حتى من الزملاء العراقيين يسألونى وكأنى كبير الخبراء عما يمكن أن يحل بالمدينة وما يمكن أن يحدث فى حالة اندلاع الحرب، مما أكد لى حجم الهلع وضبابية الرؤية التى كانت تسيطر على الجميع، ولأنى كنت أتعامل مع ما حولى بهدوء شديد فقد قفزت كيرل كروزنسى منتجة الأخبار فى محطة "إن بى سى" الأمريكية من مكانها حيث كنت أجلس بين عدد من المراسلين وقالت لى: مالى أراك غير خائف وغير عابئ بما يجرى؟ قلت لها: يكذب من يدعى أنه غير خائف ولكن هناك فرق بين أن نظهر الخوف والهلع وأن نتعامل معه بشكل آخر؟ ثم قلت لها: هل

هي المرة الأولى لك في تغطية إحدى الحروب؟ قالت لي:"أنا محترفة تغطية حروب قمت بالتغطية في أفغانستان ولبنان ورواندا والبوسنة والهرسك، وأماكن أخرى عديدة من العالم لكن الحرب هذه المرة لن تكون حربا، إنها ستكون مجزرة إنهم سيدمرون كل شيء، وبعيدا عن الدعاية التي تقوم بها وزراة الدفاع الأمريكية فإنهم بالفعل وعبر مصادر أمريكية مؤكدة سيقومون بتدمير كافة وسائل الاتصال في بداية الحرب حتى إننا لن نستطيع استخدام الأجهزة التي معنا والتي تعمل بالأقمار الصناعية، وبالتالي فإن بقاءنا هنا لا قيمة له، لأنه ليس من المعلوم إلى أي مدى يمكن أن تبقى الاتصالات معطلة وإلى أي مدى سوف ينجح الجيش الأمريكي في تنفيذ خطته، فكل شيء مجهول، وهناك أسلحة فتاكة لن تميز بين هذا وذاك كما أن أحدا لن يستطيع أن يضمن لنا أمننا، إنني لست خائفة فحسب بل إنني مرعوبة هذه المرة، لأنها حرب من نوع جديد، وإني أفكر جديا في الرحيل قبل بداية الحرب".

مخاوف كيرل كانت تنطبق على عشرات غيرها من الصحفيين والمراسلين الغربيين الذين كان عددهم في بغداد يزيد قبيل بداية الحرب على ثلاثمائة وخمسين مراسلا، فقد كان كل منهم يشعر أنه سيتعامل مع شيء مجهول لا يعرف كيف سيقوم بتغطيته لاسيما وأن خطة الحكومة العراقية التي أعلنتها قبل الحرب قائمة على أنه مع بداية الحرب سيتم إعلان حظر التجول وفقط تبقى القوات الخاصة هي التي سوف تتحرك، ولديها أوامر بإطلاق الرصاص على كل من يتحرك في الشارع دون تصريح مسبق، أما المراسلون فلن يصولوا ويجولوا كما يريدون وإنما سوف يتحركون من خلال حافلات خاصة بوزارة الإعلام ولن يكون لأحد خصوصية في التحرك، ولأن بعضهم بلغته معلومات بأن فندق الرشيد قد يكون هدفا هو الآخر، فقد سعى الكثيرون لحجز غرف وصلت إلى ثلاثين لبعض المحطات مثل "سي إن إن" في فنادق أخرى مثل "فندق فلسطين" -والذي أصبح بالفعل مقرا للصحافة العالمية كلها أثناء الحرب- لكنه أيضا مواجه للقصر الجمهوري مما يؤكد أنه لن يكون هناك مكان آمن في بغداد، أحد منتجي المحطات الأمريكية قال لي: "لقد أبلغ الأمريكون محطتنا وقالوا لنا إننا لن نضمن حياة أحد ولن نعمل حسابا لأحد لذلك عليهم الخروج الآن من بغداد والعودة مع قواتنا حينما تدخلها" هكذا خططت الإدارة الأمريكية ألا ينقل أحد ما سوف تفعله ببغداد، لأن تغطيات بيتر أرنيت مراسل "سي إن إن" في حرب الخليج الثانية والذي

التقيت به على الفطور فى فندق الرشيد حيث يغطى كمراسل حر لمحطات أمريكية عديدة على رأسها "سى إن بى سى" -التى فصلته أثناء الحرب بسبب تغطيته التى اعتبرت معادية للسياسة الأمريكية وبسبب مقابلة ظهر فيها فى التليفزيون العراقى- قد أزعجت الأمريكيين دون شك، وليس من مصلحتهم أن يكون أحد على الطرف الآخر يعكس أو يصور أو ينقل أى شكل من أشكال الصورة لأن ما سيحدث سيكون فظيعا حتى أن الرئيس بوش نفسه فى خطاب الحرب طلب من المراسلين الصحفيين الغربيين الخروج من بغداد، وهذا يعكس حجم الحرب النفسية التى مارستها الإدارة الأمريكية على المراسلين الغربيين حتى تبقى الصورة التى تنقل للعالم هى الصورة الأمريكية الرسمية فقط، ورغم حالة الرعب التى سعى الأمريكيون لبثها فى نفوس المراسلين حتى يرحلوا قبل الحرب ولا يقدموا صورة للعالم عما يمكن أن يحدث فى بغداد، فإن هناك كثيرين أصروا على البقاء وعلى أن ينقلوا للعالم ما يمكن أن يحدث من فظائع فى بغداد حتى لو دفعوا حياتهم ثمنا لهذه المهمة، وبالفعل ارتكبت القوات الأمريكية مجزرة بحق الصحفيين فى الثامن من إبريل حيث قصفت مقر قناة الجزيرة الفضائية واستشهد الزميل طارق أيوب، كما قصفت فندق فلسطين وقتل اثنان من المراسلين وأصيب آخرون كما حوصر الزملاء فى مبنى تليفزيون أبوظبى لعدة أيام، أما مقر وزارة الإعلام فقد قصف بالفعل عدة مرات وتم تصوير ذلك ونقله على الهواء أثناء الحرب، وبلغ عدد الصحفيين الذين قُتلوا فى الحرب سبعة عشر صحفيا وذلك حتى الخامس والعشرين من أغسطس 2003 وقد نشرت وكالة الأنباء الفرنسية فى 18 أغسطس 2003 تقريرا عن الصحفيين الذين قتلوا أثناء تغطيتهم للحرب والذين بلغ عددهم سبعة عشر صحفيا، فى 22 مارس 2003 قتل المصور الاسترالى بول موران العامل فى شبكة التلفيزيون الأسترالية "أستراليا برود كاستنج كوربوريشين" فى كردستان شمال العراق فى انفجار سيارة مفخخة، وقتل فى اليوم نفسه كوى لويد الصحفى فى شبكة "آى تى ان" البريطانية إثر تعرضه لنيران القوات البريطانية الأمريكية كما اعتبر اثنان من أعضاء فريقه فى عداد المفقودين وهما مصور فرنسى ومترجم لبنانى، فى 30 مارس 2003 عثر على الصحافى جابى رادو الذي يقوم بتغطية الحرب لحساب شبكة التلفزيون البريطانية "آى تى إن" ميتا فى مرآب فندقه فى السليمانية شمال العراق، فى 2 إبريل قتل كافيه جولستان المصور الإيرانى العامل لحساب تليفزيون "بى

بى سى" البريطانى فى انفجار لغم فى كيفرى فى شمال العراق، فى 4 إبريل 2003 قتل مايكل كيلى الصحفى فى صحيفة واشنطن بوست فى حادث تعرض له وهو يرافق القوات الأمريكية، وهو أول صحفى أمريكى يقتل منذ اندلاع الحرب، فى 6 إبريل 2003 توفى الصحفى الأمريكى ديفيد بلو الصحفى فى شبكة "إن بى سى" الأمريكية قرب بغداد إثر إصابته بانسداد رئوى، فى 7 إبريل قتل صحافيان ألمانى وأسبانى فى هجوم بالقذائف الصاروخية استهدف موقعا للجيش الأمريكى جنوب بغداد، يعمل الصحفى الألمانى كريستيان ليبيج الذى يعمل لحساب الأسبوعية الألمانية فوكوس، وزميله خوليو أنجيتا باراتاو لحساب صحيفة الموندو الأسبانية، فى 8 إبريل قتل مراسل قناة الجزيرة الفضائية الزميل طارق أيوب جراء قذيفة أصابت مكتب القناة فى بغداد فى اليوم نفسه قتل المصور تاراس بروتسيوك والمصور الأسبانى خوسيه كوزو الذى يعمل لحساب تليفزيون تلى سينو الأسبانى الخاص بقذيفة أطلقتها دبابة أمريكية على فندق فلسطين، فى 14 إبريل قتلت الصحفية الأرجنتينية فورونيكا كابريرا فى حادث سير أدى أيضا إلى مقتل زميلها ومواطنها ماريو بوديستا، وكان الاثنان يعملان لحساب التلفيزيون الأرجنتينى "أمريكا تى فى"، فى 5 يوليو قتل المصور البريطانى المستقل ريتشارد وايلد الذى كان يعمل لحساب شبكة "آى تى إن" البريطانية برصاصة أثناء وجوده أمام جامعة بغداد، فى 17 أغسطس قتل المصور الفلسطينى مازن دعنا الذى كان يعمل لحساب وكالة رويترز قرب سجن أبوغريب الذى يحرسه الجيش الأمريكى غرب بغداد.

الصـــــورة...
حينما فضحت أكاذيب بوش ورجاله

بدا الرئيس الأمريكى جورج بوش مكفهر الوجه وهو عائد من إجازته الأسبوعية من كامب ديفيد الأسبوع الأخير من مارس وكذلك ظهر وزير دفاعه رامسفيلد ووزير خارجيته شبه المختفى باول وكل الناطقين باسم البنتاجون فى واشنطن والدوحة والكويت، فقد كانوا جميعا واجمين وغاضبين ومكفهرى الوجوه بعدما ظهرت صور القتلى والأسرى الأمريكيين على شاشات التلفزة العالمية نقلا عن قناة الجزيرة والفضائية العراقية فى 23 مارس 2003، فقد عرت الصور وكشفت حجم الأكاذيب التى كانت تروج عن القوة التى لا تقهر وحجم الانتصارات التى تتحقق دون خسائر وأكذوبة السيطرة على العراق خلال ساعات، ونسى الناس كل الكلام الذى تم الترويج له والعنجهية والصلف وغطرسة القوة، وبقيت هناك الصورة.. صور القتلى وصور الأسرى الأمريكيين وهم خائفين مذعورين، وتذكر الأمريكيون هنا فقط اتفاقية جنيف، وحقوق الأسرى وظهر وزير الدفاع رامسفيلد ملك الأكاذيب ليهدد وسائل الإعلام التى يمكن أن تنقل الصور، بأنها يمكن أن تقاضى لأنها تخالف المواثيق الدولية وباستثناء بعض وسائل الإعلام الأمريكية المحلية فقد أحجمت معظم الشبكات التليفزيونية هناك عن بث الصور وكذلك معظم الصحف، لكن شبكات التلفزة فى كثير من الدول الأوروبية ودول العالم المختلفة بثت الصور، أما المتحدثون الرسميون الذين كانوا يصولون ويجولون بالأكاذيب فقد صبوا جام غضبهم على وسائل الإعلام التى بثت الصور بدلا من الحديث عن الحقائق عما يحدث على ساحة المعركة، وبدا أن الضربة الأولى للغطرسة الأمريكية كانت فى بث تلك الصور التى بثت الرعب فى نفوس أكثر من مائتين وخمسين ألف عائلة أمريكية لها مقاتلين يشاركون فى الحرب

كما هزت أركان الإدارة الأمريكية الذين ظهروا مصدومين أمام شاشات التلفزة، وقد أثبتت هذه الصور أن المعارك الكبرى لم تعد تعتمد فى العصر الحديث على الآلة العسكرية وحدها،وغطرسة القوة والدعاية الكاذبة، وإنما أثبتت الصورة أنها ربما تكون أمضى من قوة السلاح فى الـتأثير على سير المعارك وعلى تأليب الرأى العام من المؤتمرات الصحفية وتقارير المحللين والإذاعات الموجهة والدعاية الزائفة.. إنها الصورة التى تقدم الحقيقة وتكشف الأكاذيب،وتغير خطط الحروب ولذلك سعت الولايات المتحدة من البداية للسيطرة على الصورة التى سوف تصل إلى الناس عن المعركة من خلال وسائل عديدة من أبرزها استضافة أكثر من خمسمائة صحفى ليكونوا مرافقين مع القوات الأمريكية التى ستدخل من الكويت أو على ظهر البوارج الحربية كتب عنهم جوناثان آلتر تقريرا مفصلا فى عدد 11 مارس 2003 من مجلة "نيوزويك" الأمريكية تحت عنوان "الشراكة بين الإعلام والبنتاجون" وهؤلاء كما رأيناهم خلال الحرب لم يكونوا يبثون إلا ما تسمح لهم القوات المرافقة ببثه ورغم أن ثمانين فى المائة منهم من الأمريكيين إلا أنهم جميعا تحولوا تقريبا إلى ناطقين باسم القوات التى يرافقونها حتى أنهم كانوا يطلقون على العراقيين لقب "الأعداء" وذلك من خلال تقاريرهم التى بثتها أو نشرتها المؤسسات التى يعملون بها مما جعلهم يخرجون خلال فترة الحرب من دائرة الموضوعية أو المهنية ليصبحوا أبواق ومقاتلين وراء الكاميرا أو القلم مع القوات التى يتحركون معها، وعلاوة على هؤلاء هناك ما يقرب من ستمائة صحفي آخرين معتمدين لدى القوات الأمريكية فى قاعدة السيلية فى قطر يترقبون أى تصريح يصدر عن المسؤولين العسكريين الذين أصابوا معظم الصحفيين بالإحباط بعدما أبقوهم عدة أيام دون تصريحات، ثم ظهروا عليهم بتصريحات لا ترقى لمستوى ما كانوا يطمحون إليه، أما الذين كانو فى بغداد فقد مورست عليهم كافة وسائل التأثير والحرب النفسية حتى يخرجوا من بغداد قبيل الحرب حتى أن الرئيس بوش نفسه وجه لهم تحذيرا حتى يخرجوا فخرج كثيرون منهم بالفعل و لم يبق هناك إلا القليل، كما أن هناك أكثر من ثلاثمائة صحفى رفضوا الدخول مع القوات الأمريكية ودخلوا على مسؤوليتهم قتل عدد منهم وتعرض خمسة وعشرون آخرين لمخاطر وقد تحدثت إلى بعضهم فى الكويت ورووا لى كيف أن القوات الأمريكية كانت ترهبهم وترعبهم وتروعهم طوال الوقت حتى لا ينقلوا إلا الصورة التى تريدها أمريكا، ورغم نجاح الأمريكيين فى السيطرة على

الصورة التى يراها العالم طوال السنوات الماضية، إلا أن كثيرا من وسائل الإعلام الأوروبية بل والعالمية أصبحت تتعامل بشك وريبة مع ما تبثه وسائل الإعلام الأمريكية، وأصبحت الصورة التى كانت تبثها قنوات فضائية عربية مثل الجزيرة وأبوظبى والعربية خلال فترة الحرب تتصدر شاشات معظم شبكات التلفزة العالمية بما فيها الأمريكية من خلال تفردها بالصورة التى لاترى إلا من خلالها فأصبح العالم يشاهد الصورة الآن بعيون عربية أزعجت دون شك الأمريكيين، وجعلتهم يستخدمون وسائل بعضها يمكن أن يصل إلى أعلى مستويات القذارة حتى لاتهزمهم الصورة فى النهاية وبالفعل جعلوا الثامن من إبريل 2003 يوما داميا على الصحافة والصحفيين فى بغداد ودفعت الجزيرة الثمن ثمن الصورة.. التى أصبحت بحق الجانب الأقوى فى المعركة.

قصة استشهاد طارق أيوب

انهمرت الدموع من عيني حينما أخذني الدكتور طارق طهبوب صهر الزميل الشهيد طارق أيوب من يدي وقال لي: تعال لأريك وجهه بعد مضي ثلاثة أيام على وفاته بين حر بغداد والطريق، نظرت إلى وجه الشهيد طارق أيوب فوالله لكأنما أراه نائما دون أي تغيير على وجهه فهذا وجه طارق الذي أعرفه كأنما أراه حيا ولكنه نائم قرير العين مطمئنا، ناديت الأستاذ محمد جاسم العلي المدير العام لقناة الجزيرة والزميل إبراهيم هلال لمشاهدة وجه طارق فاجتمع الناس على الجثمان فلم يغضب صهره وإنما قال للناس وكأنما يتباهى بزوج ابنته: انظروا إلى وجهه ليس عليه أي تغيير أو تبديل نفسه كيوم جاء لخطبة ابنتي كما أنه بعد ثلاثة أيام من الحر ولم يوضع في ثلاجة ليس له أي رائحة غير طيبة، وقد دفعني هذا الأمر إلى ملازمة الجثمان حتى المقبرة فقد ركبت السيارة التي أقلته بعد الصلاة عليه، وحملت نعشه حتى أنزل إلى المقبرة، وحينما أنزل إلى القبر نزع عنه الغطاء البلاستيكي الذي كانوا قد وضعوا الجسد فيه في بغداد حتى يدفن بملابسه التي استشهد فيها ولأن الشظية التي أصابته من الصاروخ الذي أطلق على مكتب الجزيرة في بغداد أصابته في قلبه كما أخبرني صهره ووالده من بعد، فحينما وضع في القبر كانت الدماء تغطي قميصه وكان الدم ينضح من جرحه كأنما أصيب في هذه اللحظة فلم يكن الدم قد جف حتى على جواربه، أما قميصه فقد كان مخضبا بالدماء التي كانت لاتزال تترف وحينما طلبت من أخيه الأصغر خليل الذي كان يسجي جثمانه في القبر مع آخرين أن يديره على جانبه الأيمن فأمسكه خليل ثم رفع إلى يده وإلى الناس فإذا بها مخضبة بدم أحمر قان رطب كأنه من جرح حديث فوجدت الناس يحاول كل منهم أن يمس يد أخيه خليل المخضبة بدماء الشهيد حتى يعلق بيده شيء من دماء الشهيد في الوقت الذي ارتفع فيه التكبير من الوقوف،

فالدماء عادة ما تجف بعد ساعة أو أقل أو تتجلط أما بعد ثلاثة أيام والجرح ينزف كأنما أصيب الآن فهذا والله ما رأيته ورآه الناس، وأثناء دفنه قال لى شقيقه الأكبر خالد الذى كان يقف إلى جوارى وهو يزيح الناس عن قبر ملاصق لقبر طارق: انظر إلى هذا القبر الصغير فكان هناك شاهد على القبر يحمل اسم نادية طارق أيوب توفيت فى 19 مارس 2002 فقال لى هذه ابنة طارق كانت توأما لأختها فاطمة التى يبلغ عمرها الآن عاما ونصف العام تقريبا، وقد توفيت نادية وعمرها اثنان وخمسون يوما فقط وحينما دفناها هنا فى هذا القبر الصغير قال طارق من حبه لها أود أن أدفن بجوارها، وهذا كما ترى أمر صعب فى هذه المقبرة المزدحمة لكنى أمس جئت إلى المقبرة وفى ذهنى أمنية طارق التى كنت أرى أنها شبه مستحيلة وحينما جئت إلى قبر نادية وجدت هذا القبر الملاصق لها محفورا وأخبرنى المسؤولون عن المقبرة أنهم حفروه منذ أشهر لشخص كان من المقرر أن يدفن فيه لكنه ربما دفن فى مكان آخر وبقى القبر خاليا طوال هذه المدة حتى يشاء قدر الله أن يدفن فيه طارق بعد عام واحد فقط من أمنيته أن يدفن إلى جوار رضيعته الصغيرة نادية.

أما زواجه فقد كان له قصة طريفة أيضا فقد كان طارق يعمل مع وكالة "أسوشيتد برس" التليفزيونية العالمية، وحينما وقعت حادثة عضو البرلمان التركى المحجبة مروة قاوقجى وأثارت ضجة كبيرة اندلعت مظاهرة كبيرة قامت بها المحجبات فى الأردن احتجاجا على سياسة الحكومة التركية بمعاداة الحجاب، وكلف طارق من الوكالة بتصوير المظاهرة، وأخذ رأى إحدى المحجبات على أن يكون بالإنجليزية، وحينما سأل أيهن تتقن الإنجليزية بطلاقة فدلوه على ديمة طهبوب التى ما أن أنهت تصريحها حتى أخذ طارق يبحث عن أهلها حتى يتقدم لخطبتها، وبالفعل تقدم طارق لأهلها فرحبوا به ولم يعيبوا عليه شيئا سوى أن أصوله تعود إلى نابلس بينما هى من الخليل وأهل الخليل لهم عادات من بينها ألا يزوجوا بناتهم إلا لأبناء جلدتهم، أى من الخلايلة أما أهل نابلس فيعتبروا فى عرفهم أغراب رغم أن الجميع كانوا أغرابا فى الأردن بعد ذلك، وكان المتصدر لها هو جدها لأن والدها الدكتور طارق طهبوب لم يكن يمانع فى الزواج لكن رأى الجد كان لا يهمل ولا يكسر، لكن طارق لم يكف عن البحث عن كل وسائل التأثير لتغيير رأى جدها ولم يترك واسطة يمكن أن تغير رأى الجد فى الموضوع إلا وسلكها وكان الجد يقول أنا لا أعيب على الشاب شيئا

سوى أنه ليس خليليا، وفى النهاية ذهب للجد أحد أصدقائه وظل يستدرجه، ويستعطفه حتى وافق الجد بصعوبة بالغة وتزوج طارق أيوب من دعة طهبوب.

أما جنازته التى خرجت من مسجد الجامعة الأردنية بعد ظهر الخميس 10 إبريل 2003 فتحولت إلى تظاهرة حاشدة ضمت الآلاف من المشيعين وكأنما خرجت الأردن جميعها لوداع الشهيد طارق أيوب حيث مثل الحضور الدولة على كافة مستوياتها الرسمية والشعبية والطلابية، وقد ظلت الهتافات المعادية لأمريكا وإسرائيل ترددها الجموع ما يقرب من الساعة حتى أن السيارة التى تحمل الجثمان لم تستطع أن تشق الطريق بين الناس إلا بعد تدخل العديد من كبار ضباط الأمن الذين كانوا يملئون المكان لفتح الطريق للسيارة ومن ثم عشرات السيارات التى تبعتها إلى المقبرة، وعند المسجد وقفت والدته بين عشرات من السيدات ثم تكلمت فى الجموع بكلمات قليلة احتسبت فيها ولدها عند الله ثم أخذت تدعو على الأمريكان ويؤمن الناس من ورائها مما أهاج المشاعر وأبكى العيون، وعندما وقفت عائلته لتلقى عزاء المشيعين عند المقبرة وقفتُ إلى جوار والده وإخوانه وصهره فوجدت معظم الناس لا يقدمون العزاء بالشكل المعتاد فى الجنائز وإنما كان أغلب الناس يهنئونهم على استشهاده وكأنما نحن فى عرس ولسنا فى جنازة، ثم قال لى والده: والله رغم حزنى عليه إلا أن فرحى يكاد يعادل حزنى ويكفى أنى تحسست جرحه فوجدته ينزف كأنما أصيب لتوه، وخضبت زوجته كذلك يدها من دمائه، وهى فرحة وتقول لى: ياعمى إن دمه أخضر كأنما أصيب الآن وليس قبل ثلاثة أيام، وطارق أيوب الذى اتخذه الله شهيدا له قصة عجيبة مثل كل الشهداء، حيث أنه ما من شهيد يتخذه الله إلى جواره إلا وله قصة عادة ما تكون قصة عجيبة مثل قصة طارق أيوب الذى عرفته من خلال زياراتى لعمان خلال السنوات الماضية وقد كانت جلساتنا حينما نلتقى لاسيما فى المساء فى منزل الزميل محمد العجلونى مدير مكتب قناة الجزيرة تدور عادة حول شجاعة وإقدام ومغامرات طارق لا سيما مع جهاز أمن الدولة فى الأردن الذى كان طارق ضيفا دائما عليه شأنه فى ذلك شأن معظم الصحفيين الأحرار المستقلين.الذين لا يعملون إلا لحساب الحقيقة، ففى المظاهرات التى كانت السلطات الأردنية تمنع تصويرها كان طارق يغامر ويصور ويهرب الأشرطة ويدخل فى مغامرات ويختفى ويقبض عليه وحينما أغلق مكتب الجزيرة كان يتواصل مع الجزيرة بإمدادها بالأخبار عبر البريد الإلكترونى وحينما أعيد

متاح المكتب قبيل الحرب الأمريكية على العراق، كلف بتغطية الأخبار من منطقة الرويشد على الحدود الأردنية العراقية، وكان يرسل تقاريره من هناك حتى أعلن محمد سعيد الصحاف وزير الإعلام العراقى أن الطائرات الأمريكية قصفت حافلة تضم عددا من الدروع البشرية فى منطقة "الرطبة" على الطريق بين بغداد والرويشد، فكلف طارق من الجزيرة بالذهاب إلى منطقة الرطبة لتصوير الحافلة والمصابين الذين قيل أنهم فى مستشفى الرطبة، وحينما ذهب إلى الرطبة لم يجد الحافلة ولم يجد المصابين وإنما وجد المخابرات العراقية التى صادرت منه الأجهزة التى كانت معه والكاميرا وطلبوا منه الذهاب إلى بغداد لاستخراج تصريح بالتصوير، وفشلت محاولاته فى إقناع المسؤولين بإعادة الكاميرا والأجهزة إليه على أن يعود إلى موقعه فى الرويشد دون تصوير لكنهم رفضوا ولم يجد بدا من الذهاب إلى بغداد للحصول على تصريح من السلطات حتى يحصل على الأجهزة والكاميرا مرة أخرى، ودخل بغداد تحت القصف، وبعد مفاوضات شاقة مع العراقيين وتدخلات وتهديدات من إدارة الجزيرة منحوه رسالة لإعادة الكاميرا والأجهزة إليه دون تصوير لكن أحداث بغداد أغرته وهو المحب العاشق للمغامرة الصحفية بأن يطلب من إدارة الجزيرة أن يبقى فى بغداد لمشاركة الزملاء فى تغطية أحداث الحرب، لكن السلطات العراقية طلبت منه المغادرة للحصول على ترخيص مزاولة من السفارة العراقية فى عمان، عاد بالفعل إلى عمان يوم الأربعاء 2 إبريل 2003 فحصل على الترخيص وعلى بعض الحاجات الأساسية والأدوية التى كان زملاؤه بحاجة إليها يوم الخميس، وعاد إلى بغداد مع خطورة الطريق والقصف يوم الجمعة 4 إبريل 2003 لكنه لم يبق فى المكتب مثل معظم الزملاء الذين كانوا يغطون الأخبار فى مكتب الجزيرة حيث كانوا يكتفون بالتعليق على مايرد من أخبار دون احتكاك فعلى بالشارع والأحداث، لكن طارق نزل إلى الشارع من أول يوم وكان حيث يكون القصف ينقل آلام الناس وأوجاعهم ويكشف بالكاميرا والكلام حجم الجرائم والانتهاكات التى تعرض لها المدنيون فى بغداد، فأضفى روحا جديدة فى تغطية الجزيرة للأحداث وخلال ثلاثة أيام فقط أعد أربعة تقارير ميدانية حيث أعد تقريرين فى يوم واحد وهو أمر غير عادى وكان هذا فى اليوم الذى سبق استشهاده وذلك علاوة على مناوبته فى التعليق المباشر وأذكر أنى كنت فى نقاش مع المدير العام للجزيرة الأستاذ محمد جاسم العلى وبعض الزملاء مساء الاثنين 7 إبريل أى ليلة

استشهاده حول أداء الزملاء فى مكتب بغداد وأشاد الجميع بأداء طارق وإضافته المميزة فى التغطية الميدانية رغم أنه لم يذهب إلا قبل ثلاثة أيام فقط فى الوقت الذى يلازم فيه معظم الزملاء المكتب إيثارا للسلامة واكتفاء بالتعليق المباشر، وفجر الثلاثاء كانت مناوبته فى التعليق المباشر حيث كان آخر تعليق مباشر له فى الساعة الخامسة وعشر دقائق صباح الثلاثاء 8 إبريل 2003 وبقى حتى طلع النهار فبدأ القصف فاحتمى بين أكياس الرمال ويشاء القدر أن يصوره المصور وهو يحتمى بأكياس الرمال وهى الصور التى ظهرت فى الجزيرة وتناقلتها وكالات الأنباء العالمية بعد استشهاده، وكأنه كان يودع الدنيا بها ولتكون شاهدا على لحظاته الأخيرة فى الحياة، وحينما اشتد القصف طلب منه الزملاء أن ينزل من على السطح هو والمصور، لكن كادر الكاميرا كان بحاجة إلى أن يضبط على مواقع القصف فقط طلب الزملاء فى الدوحة من مكتب بغداد أن يضبط المصور الكاميرا على مواقع القصف وإلى حيث تقف الدبابات الأمريكية على جسر الجمهورية، وعادة ما يقوم المصور بهذا الأمر دون حاجة للمراسل ولكن طارق أشفق على المصور أن يذهب وحده وسط هذا القصف المخيف فذهب أمامه يتقدمه، فيشاء قدر الله أن تطلق طائرة أمريكية صاروخا على مكتب الجزيرة فى هذه اللحظة حتى أن المصور قال لقد رأيت الصاروخ لكنى لم أكد أكمل الجملة لطارق لأخبره بالصاروخ إلا وكان الصاروخ قد ضربنا فلا أدرى ما ذا حدث، حينئذ هرع الزملاء الذين كانوا فى المكتب يشاركهم الزملاء الذين هرعوا من مكتب قناة أبوظبى المجاور، فأخرجوا المصور أولا وقد وجدوه أصيب بجرح بسيط فى رقبته، أما طارق فلم يجدوه إلا بعد بحث وقد أصيب رحمه الله بشظية فى قلبه، فاتخذه الله شهيدا، ليكون ذلك شرفا لكل الصحفيين العرب والإعلام العربى الذى أصبح له تأثيره المباشر فى الإعلام العالمى الآن ليس فقط بالصورة ولكن أيضا بالدماء التى سطرها طارق أيوب فى بغداد.. ومادام الموت حقا على جميع البشر فإن موتة فى سبيل الحق والحقيقة فى ساحة الشرف ونقل الحقيقة إلى الناس تكون موتة شريفة وتكون بحق عرسا وليست جنازة كما أراد لها أهل الشهيد طارق أيوب.

بغداد.. تحت الاحتلال الأمريكى

كنت أقوم بزيارة لأحد الزملاء الصحفيين فى أحد ضواحى بغداد، فوجدت عنده أحد الأشخاص الذى احتفى بى، وأخذ يتحدث معى حول برامجى التلفزيونية فأشعرنى بشيء من القرب والألفة جعلتنى أقول له بعد امتداد الحديث: لم أتعرف عليك بعد هلا عرفتنى على نفسك؟ تغير وجه الرجل فجأة، وذهبت ابتسامته وبشاشته وأصبح كأنه لا يعرفنى وقال لى بوجه قلق صارم: أنا آسف، ربما من الأفضل ألا تعرف من أكون؟ قلت له وأنا أبتسم حتى أستعيد ثقته لماذا؟ أنا لست شخصا مخيفا، نظر الرجل إلى مرافق كان معه وإلى صديقى وقال بقلق: يبدو أن أحمد سوف يدخلنى فى دائرة تحقيقاته واستدراجه للناس لذا يجب على أن أذهب وربما أعود فى وقت آخر، ثم وقف مستأذنا وقال لى وهو يسلم على بقلق: ربما تعرف من أكون فى ظروف أفضل من هذه، وقبل أن يمشى قال لصديقى بصوت مسموع: ربما أعود إليك بنفس الطريقة التى جئت بها دون موعد ودون اتصال، قلت لصديقى: من هذا الرجل وماهى قصته؟ قال: أما من يكون فأنا مثلك لا أعرفه وهذه هى المرة الثالثة التى يتردد فيها علىّ، وحينما لقيته فى المرة الأولى قال: لا تسألنى من أكون ولا من أين حصلت على ما سوف أعرضه عليك، كل ما ينبغى أن تعرفه أن لدى وثائق هامة، وأريد فيها هذا المبلغ، ولا شيء آخر، وسأمنحك فرصة للتفكير وسوف أعود إليك فى الوقت الذى أراه مناسبا لى، قلت له: ما هى أهمية الوثائق التى عرضها عليك، قال صديقى: إنها بحاجة إلى خبراء ليقدروا قيمتها غير أنها هامة دون شك، لذلك فهو يطلب مبلغا باهظا، ويبدو أنه أحد المسئولين الكبار فى النظام السابق وربما يكون عسكريا أو كان يعمل فى المخابرات، وكثير من هؤلاء باعوا النظام بل باعوا البلد، منهم من باعها دون حرب للأمريكان وقبض الثمن ومنهم من يتاجرون حتى الآن بكل ما لديهم من وثائق

ومعلومات، ومنهم من يغازل الأمريكان، فهؤلاء لم يكن لهم ولاء لا للنظام ولا لبلدهم وإنما كان ولاؤهم لمصالحهم، وكل يوم يأتيني من أمثال هذا يعرضون عليَّ وثائق ومعلومات ويذهبون لغيرى وأصبحوا محترفين فى عرض ما لديهم على ما يرونه مناسبا من وسائل الإعلام والأمر وصل إلى الخداع فى كثير من الأحيان غير أن هناك وثائق حقيقية وهامة فى أيدى الكثير من الناس، وكما أن للحرب تجارها وإفرازاتها فللوضع الراهن أيضا تجاره وإفرازاته، ولو أوليت هذا الأمر بعض اهتمامك لاطلعت على كثير من الوثائق ولحصلت أيضا على الكثير.

أهاج الموقف قريحتى الصحفية، وشاهدت وسمعت من الناس الكثير وأذكر هنا أنى حينما تركت بغداد قبيل الحملة العسكرية الأمريكية عليها فى العشرين من مارس الماضى كانت القبضة الحديدية للنظام لا تزال تتحكم فى أنفاس الناس وحركاتهم وسكناتهم، فحملات الاعتقال والمداهمة لم تتوقف حتى قبيل الحرب حتى أنى التقيت أثناء زيارتى لبغداد -فى 21 يوليو 2003- مع آخر الذين اعتقلهم النظام العراقى بتهمة التآمر، وهى التهمة الثابتة على كل من يخالفون النظام أولا ينتمون إلى حزب البعث وهو مهندس من مدينة الفلوجة أخبرنى أنه كان من أواخر الذين اعتقلوا على يد النظام قبيل الحرب بأسبوع واحد حتى أنه كان يترقب أن يتم إعدامه فى أى لحظة ودون محاكمة كالعادة، لكنه فجأة لم يجد نفسه خارج ا لمعتقل فحسب، ولكنه وجد النظام كله قد زال وكان كل همه مثل كثيرين هو أن يحصل على ملفه الأمنى من أجهزة الاستخبارات حتى يعرف من الذى كان يشى به ويرشد عنه.

بغداد التى غادرتها قبيل الحرب وهى تحت حكم عشرين جهازا أمنيا دخلتها بعد الحرب، وهى لا يحكمها أحد فالأنظمة الأمنية لم تنته فحسب وإنما زالت منظومة دولة الرعب كلها، وأصبح الذين كانوا يصولون ويجولون فى عهد النظام السابق ويعذبون ويرعبون الناس ويفتكون بهم يبحثون عن مأوى أو حتى عن لقمة خبز تسد جوعتهم، وتحولت العراق فى يوم وليلة من جمهورية الخوف إلى جمهورية الفوضى، كل شيء فى الحياة فوضى، افعل ما تريد ابتداء من مخالفة اتجاه السير والسير بسيارة لا تحمل لوحات أرقام ولا تقف عند إشارات المرور ولا تحفل بها واصدم من شئت من الناس أو السيارات، وقم بما شئت من سطو مسلح وسرقة وحتى قتل من تريد فلا أحد هنا

يلاحق أحدا أو يدافع عن أحد أو يحمى أحدا أو ينهاك عن شيء، أو يأمرك بشيء، أمام عينى وعلى بعد لايزيد عن مائة متر وفى شارع الكرادة الذى يعتبر من أكثر شوارع بغداد ازدحاما وقبيل حظر التجول الذى فرضته قوات الاحتلال الأمريكية والذى يبدأ فى العاشرة ليلا بحوالى ساعة حيث بدأ الشارع يفرغ من زحامه هاجم مسلحون رجلا وزوجته للاستيلاء على سيارته من طراز "بى إم دبليو" حاول الرجل المقاومة فكان اللصوص به رحماء فلم يقتلوه وإنما فقط أطلقوا الرصاص على رجله وتركوه يترف ويصرخ مع زوجته دون أن يتدخل أحد من المارة لفعل شيء، وخطفوا السيارة واختفوا فى لمح البصر، وقبل أن أفيق من ذهولى قال لى السائق الذى كان يرافقنى وهو يشد يدى إلى السيارة: أستاذ هيا أسرع قبل أن نتعرض للسطو وربما القتل نحن الآخرين، لم تكن هذه حالة السطو الوحيدة التى شاهدتها وكثيرا ما كنت أسمع على مدار اليوم طلقات رصاص متفرقة من شارع السعدون أشهر شوارع بغداد التجارية فكان الشباب العراقيون المرافقون لى يصيحون بصوت واحد: سطو مسلح وينطلقون بالكاميرات فى محاولة لتصوير ما يحدث، فى وضح النهار وعلى قرب أمتار من أحد أهم مراكز تجمع القوات الأمريكية كذلك تعرضت السيارة التى كانت تسير خلفنا فى الطريق بين عمان وبغداد إلى عملية سطو مسلح قرب الفلوجة، حيث يترقب قطاع الطرق السيارات التى تمشى وحدها لقطع الطريق عليها والاستيلاء على ما يحمله الركاب، وإذا كانوا رحماء يتركوا لهم السيارة، أما إذا كانوا غير رحماء فإنهم يتركوهم على قارعة الطريق، بملابسهم فقط، وبدم بارد يمكن أن يقتلوا كل من يقاوم أو يعترض.

وقد روى لى السائقون قصصا لا تحصى حول قطاع الطرق وما يقومون به، لاسيما فى الطريق بين بغداد وعمان، حيث أن كثيرا من العراقيين إما عائدين من الغربة يحملون معهم أموالهم سائلة لعدم وجود بنوك يقومون بالتحويل عبرها، أو خارجين من العراق يحملون المال لشراء سيارات أو ما شابه حيث لا توجد جمارك ولا رقابة على أى شيء يدخل العراق.. على أى شيء، وسأروى هنا أطرف ما سمعت من قصص السطو المسلح، فقد سطا اللصوص على سيارة باص صغيرة، وحينما شاهد ركابها الكمين قاموا بإخراج ما لديهم من مال وأخذوا يخفونه بين مقاعد السيارة وتحتها وفى الفتحات، وحينما توقف السائق أمام الكمين بدأ اللصوص بتفتيش

الركاب فلم يجدوا مالا مع أول من قاموا بتفتيشهم، وأخذوا يتجهون إلى الركاب فى الخلف لكن رجلا كان يجلس فى الخلف قال لهم قبل أن يصلوا إليه: أنا أستطيع أن أدلكم على الأماكن التى أخفى فيها هؤلاء الناس المال دون أن ترهقوا أنفسكم بتفتيش أحد لأنكم لن تعثروا على المال فى جيوبهم، فقال له زعيم اللصوص: إذن قل لنا أين المال؟ فأخذ يرشدهم بالفعل على الأماكن التى أخفى فيها الناس المال، فاستولى اللصوص على أموال الناس جميعا بسهولة وسط دهشة ركاب الباص الذين كانوا جميعا ناقمين على الرجل الذى دل اللصوص على أموالهم وقرروا جميعا أن يفتكوا به فور ذهاب اللصوص، وحينما وجد اللصوص أن الرجل قد دلهم على كل شيء، قرروا مكافأته فقالوا له: مكافأة لك لن نفتشك ولن نأخذ شيئا من مالك، وترك اللصوص الركاب وتحرك الباص وقبل أن يقوم الركاب للفتك بالرجل الذى دل اللصوص على مالهم، قام الرجل وقال لهم: أرجو أن تطمئنوا فسوف أعيد لكل واحد منكم ما أخذ منه دون نقصان وأرجو ألا تغضبوا، قالوا له كيف، قال: أنا تاجر وكنت أجلس على مليونى دينار فى هذا الكيس، وإذا وصل اللصوص إلى فكانوا سوف يأخذون مالى فاحتلت عليهم بما رأيتم، وقلت إن مجموع ما معكم لايساوى إلا مبلغا صغيرا مما معى، فحميت أموالى، وسأدفع لكم ما أخذ اللصوص منكم.

والعجيب فى الأمر أن الأمر لا يتوقف عند قطاع الطرق العراقيين بل إن كثيرا من العراقيين يتهمون الجنود الأمريكيين أنهم يستغلون نقاط التفتيش والسيطرة أحيانا للسيطرة على الأموال التى يجدونها مع ركابها ويصادرونها ومن يعترض يهدد، كما يتهمهم كثير من العراقيين الذين تفتش منازلهم بأنهم يصادرون أموالهم ومجوهراتهم وكل شيء ثمين لهم، حتى أن دوار زمردة الشهير فى بغداد وهى خادمة على بابا حيث تحيط بها جرار الأربعين حرامى ربما يرمز إلى واقع جديد فى بغداد وأصبح اسم على بابا يتردد يردده الجميع فى العراق.

عشرات الناس يقتلون كل يوم فى العراق الآن دون أن يكون القاتل مجرما أو القتيل ضحية، فلا دوائر للمواليد أو الوفيات ولا ملاحقات للقتلة، أو متابعة للصوص، وكل من له ثأر يأخذه، فلا يوجد فى العراق دولة ولا يوجد نظام لا يوجد سوى الفوضى وقوات الاحتلال.

وثائق الدولة تباع على قارعة الطريق

من خلال هذه الصورة فإن كل شيء يباع على قارعة الطريق فى بغداد، كل شيء بكل معنى الكلمة وأهم شيء هو أن منظومة الدولة العراقية يتم بيعها، كل منظومتها من وثائق ومعلومات وعلاقات دولية، وداخلية وخارجية وجوازات سفر وبطاقات هوية، وكل ما كان يتم دمغه فى ظل نظام مغلق وقمعى تحت ختم "سرى للغاية" يمكنك الحصول عليه الآن إذا دفعت الثمن المطلوب، فالتاسع من إبريل الماضى لا يمثل تاريخ سقوط نظام صدام حسين فى العراق فحسب ولكن الأخطر من ذلك أنه يمثل تاريخ سقوط منظومة الدولة العراقية بكل ما تحمله من مقومات وتاريخ وثقافة، وعادة حينما تسقط الأنظمة تبقى مقومات الدولة ومنظومتها لمن يأتى ليبنى عليها أو يضيف أو يعدل، ولكن ما حدث فى العراق كان شيئا آخر، فعلاوة على محو هوية الدولة وتاريخها وثقافتها وحضارتها عبر نهب وحرق المتاحف والمكتبات، نهبت وثائق الدولة وأوراق النظام وعلاقاته الداخلية والخارجية، وأصبح كل شيء يباع إما على قارعة الطريق فى أسواق يطلق عليها العراقيون "أسواق الحرامية" أو عبر سماسرة إذا كانت أشياء ثمينة أو عبر اللصوص أنفسهم الذين يقومون بعرض ما لديهم بشكل مباشر أو غير مباشر على المهتمين، فوسائل الإعلام العربية والعالمية فى العراق تتلقى كل يوم عروضا من سماسرة إما لأشرطة يمكن أن يشكلوا لها سبقا صحفيا أو إعلاميا، وكذلك لمواد يمكن نشرها أو حوارات مع شخصيات يمكن أن يترقب الناس مشاهدتها أو سماعها، المهم أن تدفع الثمن المطلوب والذى عادة ما يكون بالدولار ويتوقف على براعة كل من البائع والمشترى وقيمة المعروض وأهميته.

كل أنواع السى دى والأشرطة تباع فى "سوق الحرامية" لكن أطرف ما وجدته كان سى دى "الراقصة ورجل الأعمال المصرى" يباع فقط بنصف دولار، فكل الممنوعات التى فى الدنيا بدأت تفتح لها أسواق العراق، فالجنود الأمريكيون لهم مطالب خاصة لاسيما لشهواتهم وحياة اللهو التى افتقدوها، هناك من يحققها لهم مقابل أن يدفع وإن كانت عمليات المقاومة والخطف للجنود قد حدت كثيرا من خلطة الجنود بالناس لكنهم فى النهاية يعيشون وسط شعب كامل ومطالب حياتية ولا يعيشون فى الثكنات طوال الوقت.

وثائق الدولة:

كانت الولايات المتحدة الأمريكية هى أول المستفيدين من منظومة الدولة فقد استولت على مايزيد على ثلاثين شاحنة من الوثائق السياسية والأمنية والعلمية من النظام العراقى السابق وهى بحاجة إلى سنوات طويلة لفرز ما وقع تحت يديها، كذلك قامت العصابات المنظمة التى ربما يتبع معظمها أجهزة عالمية أو دولا بنهب كثير من الوثائق المحددة والمطلوبة عن جوانب معينة تهمها عن العراق، أيضا قام كثير من موظفى الدولة بالاستيلاء على كثير من الوثائق وهؤلاء إما أناس مخلصون لوطنهم ودولتهم أخفوا هذه الوثائق فى أماكن ما انتظارا لمجيء حكومة وطنية يقدموا لها ما لديهم وأبرز هؤلاء الذين احتفظوا بسجل الأحوال الشخصية أو ما يطلقون عليه هناك "دائرة النفوس" وإما ألهم تجار انتهزوا الفرصة لبيع ما تحت أيديهم للحصول على ما يمكنهم الحصول عليه من مال، وإما أفراد عاديون حصلوا فى ظل الفوضى التى عمت البلاد على كثير من الوثائق ويقومون بعرضها على من يدفع، لكن الأطرف كان هؤلاء المعارضون السياسيون الذين كان الهم الأكبر للواحد منهم أن يحصل على ملفه الأمنى من جهاز الأمن أو الاستخبارات ليعرف ما فيه ولن أخوض هنا فى الموضوع بشكله العام وإنما سأتوقف على ما شاهدته ورأيته كشاهد عيان.

سوق الحرامية:

فى "سوق الحرامية" كل شيء يباع من الإبرة للصاروخ غير أنك إذا كنت غريبا لا بد أن تدخل مع مسلحين لحمايتك وتعمل وفق قوانين اللصوص، أما إذا دخلت

وحدك فيجب أن تكون على استعداد لكى تفقد حتى حياتك إذا خالفت قانون اللصوص الذى يفرضوه على السوق، هناك أماكن أخرى ووسائل عديدة لعرض الوثائق من بينها أن يقوم حملة الوثائق الهامة بعرض ما لديهم على مايرون أن الوثائق تهمهم مثل الصحفيين ومحطات التلفزة، ووسائل الإعلام المختلفة، وهؤلاء عادة لا يمكن أن يعطوك أسماءهم، أو عناوينهم، أو أى تفصيلات عنهم يعرضون عليك ما عندهم ويمنحوك فرصة للتفكير إذا طلبت فرصة ولا يعطونك موعدا للعودة، وإنما يأتون فى وقت لا تتوقعه، وبطريقة لا تساعدك على أن تدبر لهم شيئا، وإذا حصلوا على زبون جاهز فلا يترددون فى بيع ما لديهم له.

وبمجرد أن وضعت موضوع الوثائق فى أجندتى اطلعت وحصلت وقرأت ورأيت ما لم أكن أتوقعه فمن وثائق رئاسة الجمهورية إلى المخابرات العامة إلى المخابرات العسكرية، إلى الحرس الجمهورى إلى وزارة الخارجية إلى السفارات وماكانت ترسله عن العملاء، وعلى الصعيد الداخلى تقارير أجهزة أمن حزب البعث عن أئمة المساجد وعن أشخاص عاديين، وتقارير الأمن العام عن الأنشطة السياسية للأفراد المعادين لحزب البعث والإسلاميين والشيوعيين وغيرهم.

وثائق العلاقات الدولية:

لن أستطيع هنا أن أذكر كل ما اطلعت عليه من وثائق أو أشير إليه ففى بعض الأحيان أجلسنى الذين سمحوا لى بالاطلاع على ما لديهم من وثائق بين أكوام من الوثائق تحتاج إلى أيام وليال لتفحصها والاطلاع على مافيها وهى تتعلق بعلاقات العراق بجيرانها وأسلوب متابعتها وتعاملاتها الاستخباراتية معهم ولأن العراق وإيران كانا حتى اليوم الأخير على علاقة متوترة فإنى سوف أشير إلى بعض ما اطلعت عليه بخصوص العلاقات الإيرانية وكيف كانت الاستخبارات العراقية تتابع كل تحركات الساسة الإيرانيين وكل ما يدور داخلها.

- تقرير موقع من الفريق الركن مدير الاستخبارات العسكرية إلى رئاسة الجمهورية مرفوعا فى 18 نيسان -إبريل- 2001 تحت رقم م6096/5/35/7 حول النشاط النووى الإيرانى.
- وثيقة تضم معلومات تفصيلية وممهلة بتوقيع الفريق الركن الدكتور عبد حميد الخطاب سكرتير رئيس الجمهورية تحت رقم 4776/ك بتاريخ 2001/4/26 حول زيارة الرئيس الإيراني محمد خاتمى إلى روسيا فى الفترة من 12 إلى 15 مارس آذار 2001.
- وثيقة من الفريق الركن كمال مصطفى عبد الله أمين السر العام للحرس الجمهورى تحت رقم م ش 394 بتاريخ 2001/3/4 حول زيارة وزير الدفاع الروسى إيكور سير جييف إلى إيران فى الفترة من 26 إلى 2000/12/29.
- وثيقة استخباراتية مرفوعة من جهاز المخابرات إلى رئاسة الجمهورية بتاريخ 3 تشرين الأول 2000 تحت رقم 2374/3/1/2/140 حول المنشآت الكيماوية الإيرانية.

ولأن هدايا الرئيس العراقى صدام حسين كانت تغمر الجميع فهناك وثائق تتحدث عن هدايا السيد الرئيس القائد صدام حسين إلى بعض المسؤولين فى بعض الدول وعن معلومات كان يدلى بها هؤلاء المسؤولون إلى أجهزة الاستخبارات العراقية التى كانت تتولى تحت غطاء دبلوماسى تسليم الهدايا ونقل المعلومات.

كذلك اطلعت على وثيقة كانت تتحدث عن تعاون عسكرى بين إحدى الدول المجاورة للعراق وإسرائيل والمخاطر التى يمكن أن يسببها ذلك التعاون على العراق.

مخطط أمريكا تجاه العراق بعد 11 سبتمبر:

كذلك وثائق تتحدث عن معلومات كان يدلى بها دبلوماسيون من دول شرقية إلى دبلوماسيين عراقيين حول ما تعده أمريكا وترتبه للعراق وذلك من خلال علاقة هؤلاء بالأمريكيين من بينها وثيقة تتضمن ما نقله مسؤول صينى إلى مسؤول عراقى حول المخطط الأمريكى تجاه العراق بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر وقد أعدها جهاز

المخابرات العراقى فى 2001/9/23 تحت رقم 2991 لرئاسة الجمهورية ثم وجهت منها صور موقعة من الفريق د. عبد حميد الخطاب سكرتير رئيس الجمهورية فى 9/24 /2001 إلى كل من الرفيق عزة إبراهيم والرفيق طه ياسين رمضان والرفيق طارق عزيز والرفيق على حسن المجيد تحت رقم 9535/ك.

العلاقات العراقية الروسية:

وحول العلاقات العراقية الروسية التى بقيت نشطة إلى آخر يوم فى عمر النظام هناك وثائق وتقارير كثيرة تتحدث عن التعاون الثنائى بين البلدين منها وثيقة تحت رقم ط ج /15324 مؤرخة فى 2002/11/10 وموقعة من وزير الدفاع العراقى الفريق الركن سلطان هاشم أحمد حول زيارة وفد من وزراة الدفاع العراقية إلى روسيا فى الفترة من 21 /2002/9 إلى 2002/10/2 تحتوى على تفصيلات دقيقة وتفصيلية لما تم فى الزيارة والوثيقة مرفوعة إلى المشرف على الحرس الجمهورى وأمين سر القيادة العامة للقوات المسلحة تحت رقم 11952/22/3/13 مؤرخة فى 13 تشرين الثانى نوفمبر 2002.

اختراق للأكراد:

على صعيد الأكراد كان واضحا من بعض الوثائق أن هناك اختراقا حكوميا استخباراتيا لبعض الجوانب فهناك وثيقة مرفوعة من الفريق الركن رئيس الاستخبارات العسكرية العامة إلى رئاسة الجمهورية مرفوعة بتاريخ 6 أيلول سبتمبر 2001 حول تفاصيل اجتماع عقد بين زعيمى الحزبين الكرديين الرئيسيين جلال الطلبانى ومسعود البرزانى.

الأنشطة الاستخباراتية للسفارات:

لأن النظام البعثى فى العراق كان لديه ربما أكبر نسبة من المعارضين فى الخارج فقد كانت عمليات التجسس على المواطنين العراقيين فى الخارج تأخذ أشكالا عديدة وكان هناك تعاون فى هذا المجال بين وزارة الخارجية والأجهزة الأمنية المختلفة وقد اطلعت على وثائق كثيرة وملف ممل من الرسائل المتبادلة بين أطراف أمنية مختلفة حول

تأسيس مكتب للترجمة ومطعم فى العاصمة اليمنية صنعاء ليكون مركزا لرصد أنشطة العراقيين فى اليمن وأذكر أثناء زيارتى لليمن قبل أسبوعين أن الرئيس على عبد الله صالح قد أبلغنى فى إحدى لقاءاتى به أن العراقيين يمثلون الأغلبية العربية المقيمة فى اليمن وقد التقيت فى شوارع صنعاء بكثير من هؤلاء كما تعرفت على بعض أماكن تجمعهم وربما لا يعرف كثير من هؤلاء أن مراكز تجمعهم ربما كانت مراكز لرصد تحركاتهم، وما يحدث فى اليمن يحدث فى معظم دول العالم حيث استطاع النظام أن يصنع حجما كبيرا من العداوات والمعارضين من أبناء شعبه ومن ثم ينفق الكثير لمتابعة هؤلاء والعجيب أن معظم هذه الوثائق الاستخباراتية كانت حديثة ومعظمها فى العام 2002.

الملفات الأمنية للأفراد:

لأن العراقيين كانوا يُلاحَقون أمنيا من كثير من الأجهزة من أهمها الجهاز الأمنى لحزب البعث الذى جعل من كل المنتمين للحزب -وهم سبعة ملايين حسبما يذكر البعثيون- جواسيس على باقى الشعب، كما أنه هناك عشرات الأجهزة غير الأمن العام التى كانت تلاحق كل طبقات المجتمع ويكتبون عنهم التقارير ويعدون الملفات الأمنية، لذا فقد كان كثير من الأفراد لاسيما الذين كانوا يعتقلون بشكل دائم أو يتعرضون لمضايقات من النظام حريصين على الحصول على ملفاتهم الأمنية ليس فقط لمعرفة ما كان يكتب عنهم فيها ولكن أيضا لمعرفة من هم الواشين بهم والذين كانوا عادة إما جيرانهم أو الأطباء الذين يعالجونهم أو أقاربهم الذين يأكلون ويشربون وينامون معهم والأهم من ذلك ألا يكون لهم أى ملف أمنى لدى أى نظام جديد يحكم العراق وقد سمعت من القصص فى هذا المجال ما يشيب له الإنسان، حيث كان الرجل يفقد ثقته حتى بزوجته وابنه أو أبيه، أو أعز أصدقائه.

طبيبه يتجسس عليه:

فى مدينة المقدادية فى محافظة ديالى المجاورة للحدود الإيرانية من ناحية الشمال قضيت يوما كاملا والتقيت مع كثير من أهلها وهى منسوبة إلى الصحابى الجليل المقداد بن عمرو، وهى من الأماكن النشطة فى المقاومة هى وعاصمة المحافظة مدينة بعقوبة التى قُتل فيها أربعة من الجنود الأمريكيين فى عملية واحدة يوم السبت 27 يوليو

2003، وقد ألفت من بين من لقيتهم أحد التجار أشيب الشعر واللحية لكنه كان ينضح بالشباب والنضارة والمودة، ودار بيني وبينه حديث به ألفة حيث أخبرني أنه عرفني قبل سنوات من خلال برامجي رغم أن الأطباق اللاقطة كانت ممنوعة في عهد النظام السابق لكنه كان يجازف بتركيب طبق ومتابعة ما يدور في العالم، وقد اعتقل عدة مرات وقضى سنوات طويلة في سجون صدام حسين، قلت له: هل كان يوم سقوط النظام يوما سعيدا بالنسبة لك؟ قال: كان هناك ما هو أسعد منه بل إني سأبلغك بأسعد يوم في حياتي، قلت متشوقا ماهو هذا اليوم؟ قال: يوم حصلت على الملف الأمني الخاص بي فالنظام يلاحقني منذ خمسة وعشرين عاما قضيت منها سنوات طويلة في السجون، قلت له: كيف حصلت عليه؟ قال: أول شيء شغلني بعد سقوط النظام هو أن أحصل على الملف وقد بحثت في مقر المخابرات في مدينة بعقوبة عاصمة الولاية ديالي، ولكني علمت أنه في المقر الرئيسي للمخابرات في بغداد فاتصلت على معارف لي هناك وقلت لهم لابد أن تحصلوا على ملفي الأمني فبحثوا عنه وسط ملايين الملفات، ثم قال وهو يبتسم: كل عراقي له ملف في الأمن والمخابرات، فقد كنا نعيش في دولة الأمن والمخابرات، المهم أنهم حصلوا عليه وحينما أبلغوني بالحصول عليه قلت لهم: لا بد أن ترسلوه لي فورا، والمسافة كما رأيت لا تقل عن ساعتين بالسيارة وكانت المخاطر كثيرة مع بداية دخول القوات الأمريكية للعراق، لكنهم أرسلوه لي. وكان أول شيء فعلته هو أني قضيت اليوم والليل حتى الصباح أقرأ ما فيه، ورغم أن حجمه كان يزيد عن ثلاثمائة صفحة إلا أني لم أتوقف عن قراءته حتى أنهيته، لكن المفاجأة التي صدمتني هو أني اكتشفت أن الطبيب الذي كان يعالجني والذي كان يتظاهر بصداقته لي ويناقشني دائما في السياسة والفكر والنظام ومفاسده كان هو الواشي الرئيسي عني، ومعظم التقارير التي كانت تكتب عني كان هو الذي يكتبها، قلت له: ماهو موقفك منه؟ قال: لقد كنت أشك فيه أحيانا، لكني لم أتخيل أنه هو الذي يفعل ذلك، قلت له: هل تريد الانتقام منه؟ قال: كلا إن الله ينتقم من كل ظالم، هؤلاء الآن يبحثون عن من يؤويهم، ويتجرعون مرارة ما اقترفوه، إني أشعر الآن أني إنسان مولود من جديد، فلا ملاحقات من الأمن ولا مطاردات ولا تاريخ أمني ولا سياسي، وأفعل ما أريد بحرية، ويكفي أني أصبحت أحد الذين يديرون شئون المدينة الآن ومن مقر الأمن الذي كنت أطارد منه.

تقارير أمن حزب البعث:

جلست بين كومة من ملفات الرفاق كل ملف كان مكتوبا عليه ملف الرفيق فلان، كانت كلها تتحدث عن تحركات الناس العاديين، ابتداء من خروجهم من بيوتهم إلى عودتهم ونومهم، ومن جاء لزيارتهم والسيارات التي توقفت أمام بيوتهم، والأشخاص الذين يمكن أن يكونوا قد زاروهم أو ترددوا على بيوتهم، وكانت الصدمة لكثير ممن وقعت فى أيديهم ملفاتهم الأمنية أن جيرانهم أو أصدقاءهم هم الذين يكتبون التقارير عنهم،وفى هذا الإطار أذكر أنى جلست بين عدد من شيوخ سامراء، وهى أبرز مدن محافظة صلاح الدين، ودائما حينما أذكر شيوخ هنا فأنا أقصد شيوخ العشائر، وأبلغنى أحدهم أن ابنه إكراما له، أخذوه أثناء التجنيد فى عهد صدام حسين إلى الحرس الجمهورى، وقبل بداية تدريبه طلبوا منه أن يملأ استمارة تشمل كل شيء عن حياته وأقربائه وأصدقائه ومعارفه، وكل شاردة وواردة فى حياته، وكان هناك خانة عن عضويته فى حزب البعث، فكتب أمامها أنه ليس عضوا فى البعث وأنه مستقل، فوجيء باستدعائه من ضابط الاستخبارات، وسؤاله الاستنكارى له: مامعنى مستقل؟ ليس هنا أحد مستقل لابد أن تكون بعثيا حتى تكون جنديا فى الحرس الجمهورى، فقال له: أنتم الذين اخترتمونى وأنا لا أومن بفكر البعث، وكانت هذه هى الطامة الكبرى التى حولت حياته إلى جحيم بعد ذلك حيث قضى سنوات فى السجون وطورد فى رزقه وحياته بعد ذلك، ووضعوا له من يعد عليه أنفاسه، وحينما سقط النظام، ذهب وأحضر ملفه الأمنى وقرأ مافيه، فوجدته ثائر ثورة عارمة، لأنه فوجئ أن أقرب أصدقائه كان يكتب عنه التقارير وكذلك أحد جيراننا فوجدته يحمل سلاحه وقرر أن يقتلهم متهما إياهم بأن تقاريرهم كانت أحد أسباب شقائه خلال السنوات الماضية من حياته لكنى أجلسته وأقنعته أن الله قد من عليه الآن بأن عرف الحقيقة وعرف عدوه من صديقه ويكفى أنهم هاربون يبحثون عن مأوى مثل كثير من البعثيين بينما هو آمن وبصعوبة أذهبت عنه غضبه، لكنى أقول لك بصدق وأمانة: لقد قتل الكثير من البعثيين والمخبرين انتقاما من الذين حصلوا على ملفاتهم الأمنية، وكل عراقى الآن أصبح لديه ملفه إنها وثائق تدل على كيف أن هذا النظام كان يدمر آدمية الناس.

ملف أئمة مساجد الفلوجة:

كان من أطرف الوثائق الأمنية التى اطلعت عليها ملف أئمة مساجد مدينة الفلوجة، ومدينة الفلوجة المشهورة بأنها أبرز مدن مقاومة الاحتلال الأمريكى هى مدينة المآذن فى العراق بها أكثر من ستين مسجدا ومعظم مساجدها لها مآذن عالية وكثير منها له مئذنتين وأذكر وأنا فى طريقى من عمان إلى بغداد وأنا على الطريق الدولى أشار لى السائق من بعيد إلى الفلوجة وقال هل ترى هذه المآذن الكثيرة؟ قلت: نعم: قال: هذه هى الفلوجة بلد المآذن.

حينما ذهبت إلى الفلوجة بعد ذلك، شاهدت أشياء كثيرة، لكنى حينما وأنا أبحث فى وثائق النظام السابق، أخرج لى أحد أهلها ملفات أمنية كثيرة كان من بينها ملف طريف هو ملف أئمة المساجد، حيث أن كل إمام مسجد كان له ملف صغير داخل الملف الكبير يحوى كل شيء عنه وعن حياته حتى دخله وراتبه لكن أطرف فقرة وجدتها كانت تلك التى تتحدث عن موقف كل إمام وخطيب من حزب البعث ومن "السيد الرئيس القائد صدام حسين" حيث كان تصنيف الأئمة إما أنهم بدرجة نصير لحزب البعث أو معاد للحزب والدولة، أو مؤيد أو يدعو للسيد الرئيس أو يدعو للسيد الرئيس ولحزب البعث، أو لا يدعو للسيد الرئيس وقد تم إبلاغه بالدعاء للسيد الرئيس لكنه لا يمتثل وكان أطرف إمام: هو أنه لا يدعو للسيد الرئيس وله نشاط مشبوه معاد للحزب وقد تم فصله من الخطابة لكنه بعد وساطة العشائر عاد مرة أخرى وهو شخص معاد للحزب وللدولة، وعلى الجانب الآخر كان هناك إمام: يدعو للسيد الرئيس بطول العمر والانتصار على الأعداء.

هذا كان وضع أئمة المساجد تحت نظام حكم صدام حسين، ومثله فى دول عربية أخرى كثيرة تقوم الأجهزة الأمنية بتقييم الناس بهذه الطريقة، لكن الذى لا يخطر على البال هو أن يأتى اليوم الذى يقرأ فيه كل إنسان ملفه الأمنى، ويشعر أن كابوس الأمن والرعب والخوف قد زال، وأنه يتحرك بحرية دون أن يكون هناك من يكتب عليه تقريرا كل يوم.

ولعل أطرف ما حدث حينما سقط سور برلين وسقطت دولة المخابرات فى ألمانيا الشرقية أن فتحت الملفات الأمنية للناس ليقرأ كل إنسان ما كتب عنه وأذكر أنى

التقيت بأحد هؤلاء الذين حصلوا على ملفاتهم الأمنية رغم أنه كان عربيا يقيم فى ألمانيا الشرقية وقال لى: إن ملفه كان فى ثلاثة آلاف صفحة، وأنه كان يشعر بالملل والقرف والقذارة ممن يقومون بهذه الأعمال، وهو يقرؤها، وهذا هو الحال فى العراق الآن.

جواز السفر العراقى فقط بـ 200 دولار:

أذكر حينما وصلنا مرهقين إلى الحدود العراقية الأردنية فى طريق عودتنا من بغداد وبعد معاناة السفر برا والخوف من عصابات السطو المسلح، وجدت عشرات من العراقيين ينتظرون إنهاء إجراءات جوازات سفرهم وأبلغنى بعضهم أنه ينتظر منذ أربع ساعات، وعلمت أن مندوبى جهاز المخابرات وليس الجوازات فى الأردن هم سبب تأخر الجوازات العراقية، فسألت عن مكتب مسئول المخابرات وذهبت إليه فاستقبلنى بحفاوة وترحاب واحترام أشكره عليه، وسألنى عن حاجتى فقلت له أنا جئت إليك لحاجة هؤلاء الناس البسطاء الذين استجاروا بى وطلبوا منى أن أساعدهم فى إنهاء طول انتظارهم فهم ينتظرون لساعات طويلة حتى يتم إنهاء إجراءاتهم وبعضهم تردونهم ليواجهوا مخاطر العودة، فقال: أرجو أن تعذرنا فى هذه المسألة، إننا نكتشف كل يوم أكثر من مائتى جواز سفر عراقى مزور من بين المئات الذين يعبرون الحدود كل يوم، والمشكلة أن عملية اكتشاف الجوازات صعبة للغاية، لأن الجوازات حقيقية لكنها مزورة، قلت له: كيف؟ قال: وحتى أفك لك هذا اللغز فإنه وبعد سقوط النظام أخذ بعض موظفو الجوازات العراقيون الجوازات والأختام والأحبار وكل شيء إلى بيوتهم، وصاروا يصدرون الجوازات لمن يريد مقابل مبالغ تتروح بين مائة ومائتى دولار للجواز الواحد والناس لأنهم يريدون أن يخرجوا يدفعوا، فأصبحت تجارة وأصبح من الصعب علينا كشف الأمر لأن التوقيع سليم والجواز سليم غير أنه ليس له مستندات يمكن الرجوع إليها، وفى هذه الأثناء انتهز آخرون الفرصة وطبعوا جوازات جديدة فى ظل الفوضى وأخذوا يتاجرون بها هم الآخرون لكن هذه النوعية يمكن كشفها إلى حد ما، والعجيب أن الناس يعترفون حينما نواجههم بأن هذه الجوازات اشتروها من بعض الضباط الذين كانوا يعملون سابقا فى الجوازات، ومع ذلك فبعضهم ينجح ويدخل، وهذا ما يجعلنا نفحص كل الجوازات بدقة فيودى فى بعض الأحيان إلى تأخر أصحابها،

إنها مأساة ومع ذلك فأنا أعدك بأن نعمل قصارى ما نستطيع كى نتجاوز مشكلة تأخر الناس على الحدود لأنهم إخواننا ولا نحب لهم المعاناة. شكرت الرجل لكنى اكتشفتُ شيئا آخر هو أنك تستطيع أن تحصل على جواز سفر عراقى رسمى يحمل كل صفات الرسمية وأختامها بنسبة شكوك بسيطة فقط بمائتى دولار ولو أدركت هذا الأمر فى بغداد لاستخرجت جواز سفر عراقى حتى يبقى معى للذكرى وحتى أضمه إلى هذه الوثائق، إنها الدولة حتى هوياتها تباع على قارعة الطريق.

إن النظام لم يسقط فى العراق فحسب ولكن سقطت معه كل منظومة الدولة، وسقطت معه وثائق الدولة، وتراثها الاستخبارى والأمنى وأصبح الآن يباع على قارعة الطريق لمن يدفع.. وهذا دون شك هو مصير كل الأنظمة المستبدة، مصيرها ومصير كل ما قامت به هو مزبلة التاريخ وهذا ما آل إليه حال بغداد تحت الاحتلال الأمريكى.

المقـــــاومة
جحيم القوات الأمريكية فى العراق

فى طريقى إلى مدينة الرمادى عاصمة ولاية الأنبار وأشهر مدن المقاومة فى العراق، توقفت قبيل مدخل المدينة أمام تجمهر كبير للناس كان يسد الطريق، وحينما أرخيت زجاج السيارة لأسأل أحد الأطفال عن سبب التجمهر أجابنى بابتهاج كبير قائلا "ضربنا الأمريكان" كانت هناك حفرة ليست عميقة فى "الأسفلت" عرفت أنها نتيجة لغم وضع فى كيس قمامة على جانب الطريق وفجر عن بعد فى سيارة عسكرية أمريكية، وحينما يقع انفجار أو هجوم ضد قافلة أمريكية يغلق الطريق من كل جوانبه ويرفع القتلى والجرحى والحافلة أو الدبابة المحطمة بأقصى سرعة وهذا ما يجعل معظم مصورى وسائل الإعلام لا يستطيعون تصوير إلا العدد القليل من العمليات، وتبقى حقيقة الأرقام للقتلى والمصابين من الجنود لدى الأمريكان أنفسهم، فمنذ بداية المقاومة فى أعقاب السيطرة على بغداد فى التاسع من إبريل من العام 2003 لم تزد أعداد القتلى من جنود الاحتلال حسب تصريحات المسئولين الأمريكيين فى أى يوم عن ثلاثة، ودائما هناك قتيل واحد أو اثنين أو ثلاثة على أكثر تقدير فى الوقت الذى يتحدث فيه العراقيون عن أعداد كبيرة للغاية مقارنة بما يتحدث عنه الأمريكيون وأقرب مثال على ذلك هو أن الأمريكيين لم يتحدثوا عن قتلى فى العمليات التى تمت فى مدينة الفلوجة يوم الجمعة الأول من أغسطس 2003 والتى أسفرت عن تدمير عدد من الآليات بعد معركة استمرت 90 دقيقة وهذه معركة طويلة بكل معايير الاشتباكات التى وقعت بين الجنود الأمريكيين ورجال المقاومة حتى الآن، فيم ظهر شاهد عيان على شاشات التلفزة ليتحدث عن أحد عشر قتيلا أمريكيا غير أعداد المصابين، وفى الوقت الذى يتحدث فيه أهل مدينة الفلوجة عن عشرين قتيلا أمريكيا

فى عملية تفجير مركز شرطة الفلوجة التى وقعت فى العاشر من شهريونيو 2003 والذى شاهدت آثار دماره قائمة حتى الآن أثناء زيارتى للمدينة والتى كان من نتائجها المباشرة إعلان الأمركيين خروج جنودهم من المدينة وتمركزهم خارجها، فإن الأمريكيين لم يتحدثوا سوى عن قتيلين، هذا التضارب كان أحد الأسباب التى دفعتنى لقضاء عدة أيام فى الأماكن الأساسية للمقاومة لمحاولة فهم حقيقتها ومن يقف وراءها،وكذلك دراسة مستقبلها، ورغم صعوبة الأمر وتحفظ رجال المقاومة حتى الآن فى التعامل مع وسائل الإعلام، إلا أن معرفة كثير من أهل العراق بى من خلال برامجى التليفزيونية لاسيما بعد سقوط النظام وانتشار الأطباق اللاقطة، سهلت لى ما يمكن أن يكون صعبا على غيرى، ولأن المقاومة لا توجد الآن إلا فى مناطق السنة وتحديدا فى ولاية الأنبار وولاية صلاح الدين وولاية ديالى علاوة على بغداد والموصل، فقد زرت عدة ولايات وتابعت مع أهل مدن أخرى طبيعة ما يحدث عندهم.

أماكن المقاومة:

الفلوجة والرمادى وبعقوبة والمقدادية وبلد والضلوعية وبلد روز وسامراء والموصل، وغيرها مدن يسمع الناس أسماءها تتردد عبر وسائل الإعلام العالمية كل يوم بعدما أصبحت رمزا لمقاومة الاحتلال الأمريكى البريطانى للعراق، أما الفلوجة والرمادى فإنهما يقعان فى محافظة الأنبار أكبر محافظات العراق حيث تبلغ مساحتها 31 % من مساحة العراق، ومعظم إن لم يكن كل أهلها من السنة، ويتميز أهلها بالكرم والطباع العشائرية كما أن لها تدينا عاما حيث تكثر المساجد ذات المآذن العالية بها، حتى أن عدد المساجد فى مدينة الفلوجة وحدها يزيد عن ستين مسجدا ترتفع مآذنها من مسافات بعيدة وأذكر وأنا فى طريقى من عمان إلى بغداد أشار لى سائق السيارة من على الطريق الدولى وقال لى: هل ترى هذه المآذن العالية والكثيرة قلت: نعم، قال: هذه هى الفلوجة بلد المآذن، ولا يوجد فى محافظة الأنبار كلها بار واحد منذ عهد صدام وليس الآن فأهلها كانوا يهاجمون البارات ويدمروها فى كثير من الأحيان، وآخر بار حولوه إلى مسجد منذ سنوات حتى أن أحد أهل الرمادى قال لى: الآن أصلى فى المسجد الذى كان حانة أحتسى فيها الخمر من قبل، ورغم أن دور السينما تنتشر فى معظم المدن إلا كل مدن الأنبار لا توجد فيها أى دور للسينما سوى سينما

واحدة مغلقة الآن فى مدينة الرمادى، صورة التدين العام هذه تعتبر بيئة خصبة لظهور مقاومة ضد الاحتلال من أطياف التدين المختلفة أو من أناس بسطاء ليسوا بالضرورة أن يكونوا تابعين لهذا التنظيم أو ذاك، ورغم أن المقاومة فى الفلوجة يمكن أن تكون إسلامية بأطيافها المختلفة إلا أن الرمادى ربما يكون التنوع فيها أكبر، فقد اطلعت أثناء زيارتى لها على بيانات لأكثر من ثلاثين تنظيما كل منها يعلن مسئوليته عن عمليات ضد الأمريكان ومن المؤكد أن معظمها ليس سوى بيانات لجماعات لا وجود لها أو تجمعات ربما لا تزيد عن أصابع اليد الواحدة وكثير منها مكتوب بلغة ركيكة وملىء بالأخطاء المطبعية.

يكاد أهل الرمادى والفلوجة والأنبار بشكل عام أن يعرفوا أبناء المقاومة حتى أنهم فيما بينهم يتهامسون بأسماء الذين ينفذون العمليات، لكن الولاية التى عرفت حتى فى عهد صدام بعدم رضاها عن نظام حكمه يأبى أبناؤها أن يدلوا الأمريكيين أو يرشدوهم عن أى مقاوم، كما أن المستوى الاجتماعى والعشائرى يعزز من ذلك وقد روى أحدهم أن أحد المقاومين الأبطال لجأ إلى أحد البيوت فأرشد صاحب البيت الأمريكيين عنه حيث كان المقاوم جريحا، فقام بعض رجال المقاومة بعد ذلك بتصفية هذا الرجل حتى يكون عبرة لأى شخص يبلغ الأمريكيين عن أى مقاوم، كما يتحدثون عن أبطال استشهد بعضهم، أشهرهم نور الدين الزوبعى الذى أسقط الهليكوبتر الأمريكية فى الفلوجة فى 27 مايو 2003 بعد معركة كبيرة، وكيف اختطفته المقاومة من المستشفى بعد إصابته وكيف قاد عشرات العمليات ضد الأمريكيين وانتهت باستشهاده فى سيارة مفخخة كان يعدها لقافلة فانفجرت فيه قبيل وصول القافلة فى مدينة هيت فى 20 يوليو 2003 وتناقلت الخبر وقتها وسائل الإعلام العالمية.

أما أهل محافظة صلاح الدين فإنهم أخذوا يتباهون بأن المقاومة فى محافظتهم أكبر من حجم المقاومة فى الرمادى والفلوجة ومحافظة الأنبار بعمومها ولكن لا يوجد لديهم صحفيون ووسائل إعلام لتعكس حجم العمليات التى يقوم بها رجال المقاومة هناك، ووسط مجموعة من شيوخ العشائر فى مدينة سامراء التى تبعد حوالى مائة وعشرين كيلوا مترا عن العاصمة العراقية بغداد، أخذ أهل سامراء يفخرون بتاريخها حيث

كانت عاصمة للدولة العباسية وإليها ينتمى الإمام البخارى، ومنها انطلقت معركة عمورية الشهيرة، وانبرى لى أحدهم قائلا: كيف يكون هذا تاريخ مدينتنا وميراث أجدادنا ثم نرضى بالاحتلال أو نقبله فالعمليات العسكرية ضد الاحتلال الأمريكى يومية وعددها كبير ومنتشرة فى سامراء والضلوعية ويثرب ولو بقيت معنا لشاهدت بنفسك الكثير منها.

أما فى محافظة ديالى التى يصل عدد سكانها إلى حوالى مليون ونصف المليون نسمة وتمتد مساحتها من ضواحى بغداد ا لشمالية الشرقية إلى الحدود مع إيران فإن أهلها يفخرون بأن بداية عمليات المقاومة كانت منها، والآن فإن العمليات فى بعقوبة والمقدادية وبلد روز وأماكن أخرى كثيرة هناك شبه يومية وأذكر وأنا فى طريقى من بعقوبة إلى المقدادية أننا وجدنا الطريق مغلقا فأخبرنى مرافقى أن الطريق عادة ما يغلق إذا كانت هناك عملية ضد الأمريكيين والأفضل أن نعود ونذهب من طريق آخر لأن الطريق سوف يبقى مغلقا إلى أن يحملوا آلياتهم وجرحاهم وقتلاهم ولا يتركوا أثرا لأى شيء وأحيانا يمتد هذا لعدة ساعات.

فى مدينة بعقوبة التى يطلقون عليها مدينة البرتقال لكثرة مزارع البرتقال بها خسر الأمريكيون عشرات القتلى والجرحى خلال الأسابيع الأولى من الاحتلال، ولأن أشجار النخيل ومزارع البرتقال تملأ كل جوانب المدينة وطرقها فإن رجال المقاومة سرعان ما يتبخرون فيها ورغم أن طائرات الهليكوبتر تجوب سماء المدينة والبساتين كدوريات عامة وكانتشار مكثف فى أعقاب كل عملية، إلا أنها من الصعب أن ترصد ما تحت أشجار النخيل الباسقة لاسيما إذا كان من هناك مجرد أناس عاديين.

أما مدينة المقدادية ثانى أهم مدن محافظة ديالى فإن أهميتها تنبع من جانبين الأول أنها مقر للفيلق العسكرى الثانى وبها معسكر المنصورية الذى كان يحتوى على أكبر مخازن للسلاح فى العراق حيث بناها البريطانيون أثناء احتلالهم للعراق فى الجبال مما يجعلها حصينة إلى حد كبير ويقع بها أحد أكبر وأهم سدود العراق وهو سد حمرين الذى يحتجز خلفه واحدة من أهم بحيرات العراق وهى بحيرة سد حمرين التى تعطى مع لونها الأزرق مع خلطة الجبال الحمراء التى تحيط بها واحدا من أجمل المناظر الطبيعية التى رأيتها فى حياتى.

أصبح مقر الفيلق الثاني هو مقر رئيسي للقوات الأمريكية في المنطقة، ولأن المنطقة سقطت بعد سقوط بغداد بمدة فقد تمكن أهلها من السيطرة على كميات كبيرة من السلاح والذخائر بعد فرار الجنود من الفيلق غير أنهم يقولون بأن قوات مجاهدى خلق تمكنت من السيطرة على كميات كبيرة من الأسلحة الثقيلة، ومع ذلك فبقيت هناك كميات أخرى لاسيما من الأسلحة الثقيلة والصواريخ والدبابات التي وضع الأمريكان يدهم عليها.

وتنتسب المقدادية في اسمها إلى الصحابي الجليل المقداد بن عمرو الذى يقع قبره بها وعلاوة على ذلك فإنها مشهورة بالرمان حتى أن أهلها قالوا لى: إن أجمل رمان على وجه الأرض لا يؤكل إلا هنا في المقدادية، وأذكر أنى أكلت بها نوعا من الخوخ الأصفر اللون لم آكل مثله في حياتى، حتى أنى من حلاوته طلبت منهم أن يحملوا الطبق بعيدا عنى حتى لا يقتلنى بعدما صعب علي مقاومته.

من يقف وراء المقاومة:

كنت حريصا في كل زياراتى أن أعرف من الذى يقود المقاومة أو يقف وراءها، ورغم أن معظم الذين التقيت معهم لم يفصحوا لى عن علاقتهم بالمقاومة إلا أنهم على الأقل كانوا يعرفون رجالها، بل إنى كنت أشعر أن من بين الذين كنت أتحدث إليهم لاسيما الشباب كانوا على علاقة مباشرة بالمقاومة رغم أنهم حينما كانوا يتحدثون لى كانوا يظهرون وكأنهم يتحدثون عن أناس آخرين، وأستطيع من خلال قراءة تحليلية لما رأيت وسمعت أن أجزم بأن المقاومة حتى الآن لا يربط بينها رابط واحد أوأنها تتحرك بشكل كبير منظم وإنما هى مجموعات صغيرة لاتزيد أكبر مجموعة كما ذكر لى أحد الذين على دراية بها عن خمسة عشر مجاهدا كما يطلقون على أنفسهم، وهناك مجموعات لاتزيد عن خمسة مثل مجموعة نور الدين الزوبعى التي اشتبكت في معركة طاحنة مع الأمريكيين وأسقطت طائرة هليكوبتر في الفلوجة في 27 مايو 2003 وهذه المجموعة تحديدا تشير على عنصر هام في المقاومة هى أنها كانت تتكون من ثلاثة عراقيين وسعودى ويمنى مما يعنى وجود مجاهدين عربا ضمن صفوف المقاومة العراقية، كذلك المجموعة التي اشتبكت يوم الجمعة الأول من أغسطس 2003 في الفلوجة أيضا في معركة استمرت ساعة ونصف مع القوات الأمريكية وكانوا عشرة مجاهدين

استشهد منهم أربعة كما اشارت كل التقارير وشهود العيان كذلك، ومعظم المقاومين من الشباب، وأستطيع أن أقسم المقاومة إلى ثلاثة تيارات:

التيار الأول:

وهو تيار الأغلبية من الإسلاميين ومن التيارات المختلفة والمستقلين ومتعاطفين وبين هؤلاء غير عراقيين حيث استشهد مع نور الدين الزوبعي يمنى وسعودى.

التيار الثانى:

هو التيار الوطنى العام ومعظمهم من ضباط الجيش السابقين الذين آلمهم ما حدث من خيانة وإهانة للجيش العراقى، وهؤلاء هم الأكثر تدريبا وعملياتهم نوعية إلا أنهم لا يشاركون حتى الآن بشكل رئيسى فى المقاومة لكن الأغلبية منهم تسعى لترتيب نفسها وإعادة لململة شملها، والتوثق من بعضهم البعض وهم مجموعات صغيرة أيضا، ويمكن أن نضم لهؤلاء بعض الأفراد الذين يرفضون الاحتلال وعمليات الإهانة التى تتعرض لها العائلات على يد الأمريكيين وكثير من هؤلاء يعملون بشكل فردى ويردون على عمليات انتهاك تعرضت لها عائلاتهم أو نساؤهم ولعل ما وقع للجنود البريطانيين الستة فى البصرة كان خير مثال على ذلك لكن الأمريكيين يحدث لهم الكثير.

التيار الثالث:

هم بعض فلول النظام السابق من القوات الخاصة وفدائيي صدام وهؤلاء لا علاقة لهم حاليا بصدام أو أى قادة من الهاربين لكن هؤلاء أيضا ممن لديهم وطنية وشعور بالمهانة ومنطلقاتهم فردية أو جماعية صغيرة أكثر منها نظامية وكل هذه الفئات تكاد تجمع -عدا التيار الثالث- من خلال ما سمعته من بعض المؤيدين أو المنتمين لها على أن خطابات صدام حسين التى تتحدث عن المقاومة تسيء إليهم وإلى جهادهم وأنها ليست سوى محاولة دنيئة -كما يرى الإسلاميون والوطنيون- لقطف ثمار المقاومة.

أشكال المقاومة:

تكاد الكمائن تشكل الغالبية الكبرى فى العمليات فى هذه المرحلة، لكن هناك عمليات هجوم تمت على مواقع أمريكية لاسيما فى محافظة ديالى، حيث وقع هجوم على دبابة فى بعقوبة فى 27 يوليو 2003 أسفر عن مقتل أربعة جنود، كما أن هجمات بالهاون تتم على تجمعات للقوات الأمريكية وكذلك هجمات بالقنابل اليدوية لاسيما فى بغداد حيث هناك رصد لعمليات كثيرة تتم عبر إلقاء "رمانة" كما يطلقون على القنبلة اليدوية على أى تجمع لقوات أمريكية، وهناك عمليات نوعية تتمثل فى إطلاق صورايخ مضادة للطائرات من أبرزها إسقاط طائرة قرب المطار بصاروخ فى 12 يونيو 2003 كما أعلن الأمريكيون بعد ذلك مرة واحدة عن إطلاق صاروخ مضاد للطائرات لكنه لم يصب هدفه مما جعلهم يعلنون بعد ذلك عن جائزة مقدارها خمسمائة دولار لمن يرشد عن صاروخ مضاد للطائرات، كذلك من العمليات النوعية عمليات نسف الجسور وقطع الطرق على القوات الأمريكية، وقد تحولت بعض الطرق التى تمر عليها القوافل إلى طرق للموت مثل طريق مطار بغداد الذى رأيت القوات الأمريكية قد حرقت كثيرا من النخيل الذى يملأ جانبيه حيث يتميز طريق المطار بكون الأحراش العشبية العالية والنخيل المرتفع يزين جانبيه مما يشكل حماية طبيعية للمهاجمين ويساعد على نصب الكمائن، كذلك الطريق بين بعقوبة والمقدادية والطريق بين الفلوجة والرمادى، كلها طرق كمائن يصعب على القوات الأمريكية أن تحمى مرورها فيها بسهولة، كذلك انتشرت عمليات تلغيم الطرق وتفجيرها عن بعد، والهجوم بقاذفات الآر بى جى المضادة للدروع، كما أن هناك أشكال لم يعلن عنها إلى الآن وهى خطف الجنود، حيث روى لى أكثر من مصدر أن هناك جنودا أمريكيين مخطوفين لدى المجاهدين فى معظم مناطق المقاومة، وأبلغنى مسئول بعثى سابق فى بغداد أنه يدرى بوجود ضابط أمريكى رفيع لدى أحد مجموعات المقاومة، ورغم نشر إحدى جماعات المقاومة لهويتين لجندى وجندية أمريكية يقولون إنهم لديهم فى الأسر وذلك فى 21 أغسطس 2003 إلا أن الأمريكيين ادعوا أن الجندى والجندية فى مكان آمن فى أمريكا، ولأن الأمريكيين فقدوا توازنهم والذين يقومون بعمليات الخطف هذه لم يحددوا مطالبهم بعد حيث لازالوا مجموعات صغيرة لا توجد لها قيادة سياسية تحمى

ثمار جهدهم بعد فإن الأمر لم يُعلن عنه، ومن الأشياء التى أدت إلى نجاح المقاومة حتى الآن هى المعنويات الهابطة للجنود الأمريكيين.

الحالة النفسية للجنود الأمريكيين:

"لماذا تقتلوننا نحن اذهبوا فاقتلوا الضباط فنحن ننفذ أوامرهم" كان هذا ما قاله أحد الجنود الأمريكيين لجمع من المدنيين العراقيين الذين كانوا يلتفون حول دبابته داخل مدينة الفلوجة بعد إحدى العمليات العسكرية التى أدت إلى مقتل وإصابة بعض رفاقه، ولأن الأمريكيين يتحفظون كثيرا فى الحديث إلى وسائل الإعلام لاسيما غير الأمريكية إلا أن الحالة النفسية السيئة التى يعيشونها تجعلهم ينفجرون ويعبرون عما بداخلهم دون خوف، كنت أعمد إلى التأمل فى وجوه الجنود الأمريكيين عند الحواجز أو حينما أحد قافلة تعبر الطريق فكانت لى عدة ملاحظات وجدتها تتطابق مع معظم التقارير والدراسات التى طالعتها عن تركيبة الجيش الأمريكى فى العراق والذى يقدر بحوالى 147 ألف جندى، فمعظم الجنود من صغار السن بين التاسعة عشرة والثالثة والعشرين، لاسيما جنود كتيبة المشاه الثالثة العاملة فى بغداد، وكثير منهم من السود والهنود الحمر والمكسيكان كما يطلق عليهم، وأخبرنى كثير من الزملاء الصحفيين أن هؤلاء المكسيكان كثير منهم لا يتكلمون الإنجليزية وإنما المكسيكية حتى الآن، وهذا يعكس أن هؤلاء جميعا حديثو عهد بالجيش وكثير منهم التحق بالجيش لأنهم فقراء أو عاطلون عن العمل أو يبحثون على بعض الامتيازات مثل التعليم الجامعى المجانى، غير أن الجنود الذين وعدوا بالعودة فى مايو 2003 إلى الولايات المتحدة، ثم مددت فترة بقائهم إلى سبتمبر 2003 ثم أعلن الجيش بعدها أنه قد تم تأجيل عودتهم إلى أجل غير مسمى وهذا ما جعلهم ينفجروا ساخطين فى برنامج "صباح الخير يا أمريكا" الذى بثته شبكة "إيه بى سى" التليفزيونية الأمريكية فى 16 يوليو 2003 ومع ا لتعليقات الغاضبة للجنود وعائلاتهم التى ملأت البرنامج فقد صرخ أحد الجنود غاضبا: "لو كان دونالد رامسفيلد هنا لطالبته بالاستقالة"، وهذا ما دفع الجنرال جون أبى زيد إلى أن يعقد مؤتمرا صحفيا فى أعقاب البرنامج الذى أثار ضجة كبرى فى الولايات المتحدة أعلن فيه "أن كل من يرتدى الزى العسكرى ليس حرا فى قول أى شيء يحط من قدر وزير الدفاع أو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية" وأن أمثال هؤلاء "سوف يتعرضون

لتوبيخ شفهى أو ماهو أشد من قادتهم"، وعمليات التوبيخ هذه والأوامر الصارمة تجعل الجنود متوترين خائفين طوال الوقت.

ولعل هذا البرنامج مع عشرات المقالات الأخرى التى نشرت فى صحف أمريكية منها صحيفة "كريستيان ساينس مونيتور" فى 6 يوليو 2003 حيث نقلت فى تقرير مطول عن الحالة النفسية المحبطة للجنود ما قاله الميجور باتريك راتيجان المرشد الدينى للواء الثانى فى الفلوجة قوله: "بلغ التوتر مدى عميقا جدا بحيث يجعلك تفكر ما إذا كان بعضهم سينفجر غاضبا" كذلك ما نشرته صحيفة نيويورك تايمز واسعة الانتشار فى 15 يونيو 2003 والتى عكست حجم الدمار النفسى الذى يعيشه الجنود فى العراق دفعت بنائب وزير الدفاع الأمريكى بول ولفويتز أن يقوم بزيارة للعراق استمرت أربعة أيام ونصف وقف فيها على الحقائق المزرية لوضع القوات الأمريكية، وقال غاضبا للصحفيين فى تصريحات أدلى بها بعد عودته لواشنطن فى 23 يوليو 2003 إن هناك "أخطاء غبية" وقعت فيها القوات الأمريكية من أهمها "التقليل من قوة المقاومة" وهذا ما دفع ريتشارد مايرز رئيس هيئة الأركان المشتركة أن يعلن فى مؤتمر صحفى عقده فى 29 يوليو 2003 "أن منطقة وسط العراق لا تزال منطقة حرب حيث إن 80% من الحوادث الأمنية تقع بها" وهذا تطور كبير يلغى بشكل غير مباشر قرار بوش فى أول مايو بانتهاء العمليات العسكرية فى العراق ويؤكد حجم عمليات المقاومة ونوعيتها حيث أكدت مصادر عديدة أن المتوسط اليومى للعمليات يزيد عن 25 عملية فى اليوم الواحد فيما أكد لى أحد المقربين من المقاومة أن حجم رصد المقاومة للعمليات يشير إلى أن عدد العمليات اليومية يزيد عن 40 عملية فى اليوم الواحد وكانت صحيفة "كريستيان ساينس مونيتور" الأمريكية قد أشارت فى عددها الصادر فى 6 يوليو 2003 أن عدد العمليات فى بغداد وحدها يصل إلى 13 عملية فى اليوم الواحد، والأكثر تأكيدا من كل هذا هو ما صرح به بول ولفويتز نائب وزير الدفاع الأمريكى فى المؤتمر الصحفى الذى عقده 23 يوليو بعد عودته من العراق حيث أكد على "أن 150 ألف جندى يتعرضون لعشرات الهجمات أسبوعيا " وهذا رقم مرتفع للغاية وكلمة عشرات لها مدلولاتها، وقد أكد الناطق العسكرى الأمريكى فى مؤتمر صحفى عقده فى بغداد فى 27 أغسطس 2003 أن عدد العمليات التى تتعرض لها لقوات الأمريكية فى العراق يتراوح بين 9 إلى 17 عملية فى اليوم الواحد.

وكانت صحيفة نيويورك تايمز قد ذكرت فى تقريرها عن الحالة النفسية للجنود والذى نشرته فى 15 يونيو 2003 تحت عنوان "متزعجون ومرهوقون" أن كوابيس الوفيات التى تسببوا فيها تطارد بعضهم، وأنهم يعانون من ضغوط نفسية، ويحاولون الحصول على المساعدة من الأخصائيين النفسيين ويشعرون جميعا بالإرهاق والمرارة وقد انخفضت معنوياتهم إلى الحضيض فى الوقت الذى ارتفعت فيه درجات الحرارة فى العراق بمعدلات لا تطاق كما أن أخبارا تصل بعضهم عن خيانات زوجاتهم أو مرض أحد من عائلاتهم تزيد مأساتهم" وقد نشرت مجلة "نيوز ويك" الأمريكية فى عدد 5 أغسطس 2003 تقريرا عن حالات العائلات الأمريكية والهواجس والمخاوف التى تعيشها، وكيف أن البريد يتأخر أكثر من شهر، وكيف أن كل عائلة تعيش هاجس أن عائلها ربما لن يعود، وكانت "نيويورك تايمز" قد أشارت إلى أن السلطات الأمريكية قد طالبت عائلات الجنود بعدم مراسلتهم للتقليل من شعورهم بالحنين للوطن، وأذكر أنى سألت أحد مراسلى المحطات التليفزيونية الأمريكية بعد عودته من مرافقة للقوات الأمريكية فى منطقة تكريت فقال لى جملة واحدة: "الأوضاع أسوأ مما تتخيل والجنود متذمرون وغاضبون فى كل مكان فالحرارة مرتفعة ولا توجد أماكن نظيفة للنوم أو الاستحمام كما أن الكهرباء تنقطع بشكل دائم والجنود ملوا من الوجبات المعلبة ".

وقد روى كثير من العراقيين أن هناك أعدادا كبيرة من الجنود يقومون بالفرار عبر الجبال إلى تركيا وأن نسبة الهاربين والمفقودين فى القوات الأمريكية كبيرة، وهذا هو السبب كما قال أحدهم حول تأجيل عودة القوات أكثر من مرة حتى لا يكشف الحجم الحقيقى للخسائر، وقد أكد لى كثير من العراقيين ونشرت تقارير صحفية تشير إلى أ ن خمسمائة دولار كافية لتهريب الجندى عبر الطرق الجبلية التى يعرفها المهربون غير أن الأمر بطبيعة الحال بحاجة إلى تأكيد أو نفى أمريكى لاسيما وأن أحد العراقيين عرض علىَّ الذهاب لأماكن المهربين للتأكد من ذلك لكن الوقت لم يسعفنى والترتيبات لم تكن ميسرة، وتعليقا من أحد العراقيين الذين يتابعون التطورات فى بغداد حينما سألته عما نشرته صحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية حول عزم البنتاجون استدعاء بعض فرق الأمن الوطنى لإرسالها للعراق الذى يضم أكثر من خمس فرق عسكرية أمريكية، قال لى: "أستطيع أن أؤكد لك بأن هؤلاء لن يأتوا كبدائل ولكن كثيرين منهم سيأتون تعويضا عن حجم الخسائر الحقيقة وحالات الهروب والإصابات

العالية فى القوات الأمريكية" وقد أكدت وزارة الدفاع الأمريكية البنتاجون فى 25 أغسطس 2003 على أن عدد القتلى الأمريكيين منذ قرار الرئيس الأمريكي بوش بوقف العمليات العسكرية فى الأول من مايو أصبح أكثر من عدد القوات التى قتلت فى الحرب.

الامتيازات التى يحصل عليها الجنود:

مع هذا الوضع المزرى فإن الجندى الأمريكي يكاد راتبه السنوى لا يزيد عن راتب مربية تعمل فى البيوت فى الولايات المتحدة فقد نشر مكتب "جراى آند كريستماس للاستشارات" فى الولايات المتحدة تقريرا قارن فيه بين ما يحصل عليه الجنود الأمريكيون وما يحصل عليه أرباب العمل وأساطين الرياضة والفن فى الولايات المتحدة فقال إن الجندى الأمريكي يتقاضى شهريا 1290 دولار أى ما يعادل 16 ألف دولار فى السنة، فيما يصل راتب الخادمة التى تعمل فى البيت إلى 12 ألف و548 دولار فى السنة أما الأشخاص المكلفون بمساعدة الأطفال على احتياز الشارع فإنهم يتقاضون 15080 دولار فى السنة، أما الجنرال تومى فرانكس قائد عملية "حرية العراق" فإن راتبه الشهرى يبلغ 12829 دولار أى 153948 دولارا فى السنة فى الوقت الذى يبلغ فيه متوسط ما يتقاضاه رؤساء مجالس إدارات أكبر 500 شركة فى الولايات المتحدة 11 مليون دولار سنويا للفرد، وفى موقع "بى بى سى أون لاين" نشر فى 22 يوليو 2003 تقرير مشابه أكد على أن ما يتقاضاه الجنود الأمريكيون فى العراق لمن خدموا فترة تترواح بين 3 إلى أربع سنوات يتقاضون راتبا بين 1528 إلى 1824 دولار شهريا، أما من يحمل رتبة كابتن وخدم بالجيش فترة تصل إلى ست سنوات فإنه يتقاضى 4069 دولار شهريا، وقد أشارت مجلة نيوزويك فى عدد 5 أغسطس 2003 إلى معاناة الجنود من العائد الذى يتقاضوه رغم أنهم يلعبون للموت وتأثير ذلك على معيشتهم ومعيشة أسرهم وكانت صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية قد أشارت فى تقريرها الذى نشرته فى 22 يونيو 2003 عن الضغوط المالية الهائلة التى يتعرض لها الجنود لاسيما جنود الاحتياط حيث أنه من بين 1.2 مليون من أفراد جنود الاحتياط والحرس الوطنى فى الولايات المتحدة هناك 212 ألف جندى يعملون فى العراق وأفغانستان وأن ما تدفعه القوات المسلحة لهؤلاء يصل إلى نصف ما يتقاضونه فى الحياة

المدنية مثل أطباء الاحتياط والمهندسين وميكانيكى الطائرات ونقلت عن أحد ميكانيكى الطائرات الذى يعمل فى شركة خطوط "نورث ويست" أن راتبه فى الشركة 6000 دولار شهريا بينما يتقاضى نصف راتبه أى 3000 دولار فقط منذ استدعائه كجندى احتياط للمشاركة فى الحرب فى الكويت.

التعامل مع وسائل الإعلام:

هذا الوضع النفسى يجعل تعامل الجنود الأمريكيين سيئا مع وسائل الإعلام حتى أن نائب وزير الدفاع الأمريكى بول ولفويتز بعدما اطلع على حقيقة وضع قواته سعى للبحث عن كبش فداء يحمله مسئولية الهجمات التى تتعرض لها القوات الأمريكية فسعى لتحميل قناتى "الجزيرة" و"العربية" مسئولية ما تتعرض له القوات الأمريكية من هجمات وقد رأيت الجنود الأمريكيين يتعاملون بتوتر شديد مع وسائل الإعلام العربية بشكل خاص حتى أن أحد الضباط قال لأحد الزملاء "سوف أقتلك" وآخر قال لأحد مسئولى المحطات التليفزيونية "أنتم هدف مشروع لنا" كما يتعرض كثير من الزملاء للاعتقال والمعاملة السيئة رغم أنهم يحملون هويات إعلامية واضحة، لكن الحالة النفسية السيئة للجنود تدفعهم للتصرف بعدوانية أو كما قال أحد الجنود لمراسل نيوز ويك "لا تستطيع أن تأمن لأحد أو تعطى ظهرك لأحد".

مستقبل المقاومة:

"المقاومة لم تبدأ بعد" بثقة كاملة واختصار شديد أجابنى أحد المحسوبين على تيار المقاومة فى العراق، حول سؤال لى عن مستقبل المقاومة، وتفصيلا قال لى: " كل هذه العمليات يقوم بها أناس عاطفيون وتنظيماتهم محدودة لكنها هامة ومطلوبة ونحن نرقبها ونباركها وندعمها وربما يكون وضع المقاومة فى هذه المرحلة بشكلها الحالى أجدى وأفضل، لكن هناك عشرات الآلاف من المدربين تدريبا عاليا، لم يبدأوا مقاومتهم بعد ولديهم إمكانات عسكرية وأسلحة متقدمة، كما أنهم يرتبون لعمليات نوعية ربما تهز الأمريكيين هزا لأنها ستركز على تدمير الجوانب النفسية للجنود، ما يؤخر هؤلاء أسباب كثيرة من أهمها هى ضرورة وجود تيار سياسى يجنى ثمار المقاومة غير كل تلك التيارات الموجودة على الساحة الآن والتى استطاع الأمريكيون احتواءها إلى حد ما

وتطويعها لصالح مخططها ، لكن الأمريكيين يمتازون بغباء شديد فى التعامل مع الشعب العراقى مما يخدم مخطط المقاومة، فكل يوم يزداد سخط الناس وغضبهم عليهم والجنود يتعاملون بخوف وصلف، ولم تعد صورتهم الأولى حينما كانوا يلوحون للناس ويوزعون الشيكولاته على الأطفال تتكرر، فالخوف يملأ نفوسهم وتحركاتهم كما أنهم يستعدون البسطاء من الناس عليهم، وهذا يفيدنا للحشد للمقاومة، يجب أن يكون هناك تخطيط أدق ونفس طويل له هدف واحد هو خروج المحتل من بلادنا وتشكيل حكومة وطنية تكون خيارا حقيقيا لهذا الشعب، وأود أن أؤكد لك على حقيقة هامة هى أن المقاومة الحقيقية لو بدأت فإن الأمريكيين لن يتحملوها ستة أشهر، وما يؤخرها هو البديل السياسى المناسب، لكن كل شيء يرتب الآن وسوف يشاهد العالم المقاومة العراقية الحقيقية عما قريب".

ورغم أن المقاومة العراقية لم تبدأ بعد حسب رأى كثير من رجال المقاومة فقد سجل نور الدين الزوبعى قصة بطولة تستحق التدوين كصفحة مشرقة من صفحات البطولة والمقاومة لشعب العراق.

نور الدين الزوبعي..
أسطورة المقاومة فى العراق

حينما ساقتني الصدفة وحدها لزيارة مدينة الفلوجة رمز المقاومة فى العراق يوم الاثنين الحادى والعشرين من يوليو 2003، وجدت المدينة ترتدى ثوب الحداد والحزن يخيم على أهلها وحينما سألت عن السبب قالوا إن أبو سُمية قد استشهد أمس فى انفجار لغم كان يعده لقافلة أمريكية، فقلت لهم من هو أبو سمية هذا؟ فأخذ كل يروى جانبا من قصته التى لن أرويها هنا كما سمعتها من الناس لأنها أشبه بالأسطورة وإنما سوف أروى منها ما اقتنعت به كصحفى قام بتغطية حروب عديدة، وككاتب يعتمد على التوثيق قدر ما يستطيع لما يقرأ ولما يكتب فقد وضعت الروايات إلى جوار بعضها البعض كما زرت بعض الأماكن التى تحدثوا عنها حتى تكون الصورة واضحة عندى، وتغاضيت عن الأرقام الكبيرة لعدد القتلى الأمريكيين التى يتحدثون عنها.

تبدأ القصة يوم 27 مايو 2003 بعملية نقل للسلاح والعتاد من مدينة الفلوجة إلى مدينة الرمادى عاصمة محافظة الأنبار التى تبعد عنها حوالى سبعين كيلوا مترا، كان يقوم بها نور الدين الزوبعى يرافقه ثلاثة من المجاهدين كما يطلق عليهم سكان الفلوجة أحدهم عراقى والثانى يمنى والثالث سعودى، وذلك عبر سيارة بيك آب بغمارتين، قبل عملية النقل أرسلوا دورية لتفحص الطريق ومعرفة ما إذا كان آمنا أو أن هناك أية دوريات أمريكية فوجدوا الطريق آمنا فحملوا العتاد على ظهر السيارة البيك آب وقاد نور الدين السيارة وجلس إلى جواره أحد المجاهدين فيما جلس الآخران فى الكابينة أو الغمارة الخلفية للسيارة، وفور خروجهم من الفلوجة وعبورهم للجسر الذى يمر من فوق النهر فى اتجاه الرمادى فوجئوا بدورية أمريكية تضم سيارتين وثلاثة عشر جنديا

تقطع الطريق وتفتش السيارات المارة تقف أسفل الجسر، ولأنى حينما شاهدت الجسر أدركت أن موقع الدورية لا يمكن أن يُرى إلا من أعلى الجسر ومن نقطة يصعب معها التراجع، فقد كان خيارهم ينحصر فى شيئين إما الاستمرار فى الطريق ومواجهة عواقب ما يمكن أن يحدث مع الدورية بكل نتائجه، أو الاستدارة للتخلف ومعناها أن الدورية سوف تطلق عليهم النار وتطاردهم وربما تلحق بهم، فأخذو الخيار الأول وهو مواصلة الطريق ومواجهة العواقب، وصلت السيارة التى تقل نور الدين ورفاقه إلى نقطة التفتيش الأمريكية فيم كان نور الدين قد أمر مرافقية أن يكونوا فى موضع الاستعداد للقتال حينما يطلق إشارة البداية.

حينما وقفت السيارة كان الجنود الأمريكيون قد أحاطوا بها من الجانبين حيث كانوا سبعة جنود من جهة وستة من جهة أخرى كوضع استعداد طبيعى للتفتيش مال أحد الجنود على نور الدين وقال له: ماذا تحملون؟ فيما أشار آخر بسلاحه لمن فى السيارة أن يخرجوا منها رافعين أيديهم وكانت هذه هى اللحظة التى فتح فيها جميع من فى السيارة نيران رشاشاتهم على الجنود الأمريكيين الذين فتحوا بدورهم النار على السيارة ومن فيها حيث ساد الارتباك بين الأمريكيين وانتشروا وسرعان ما تمترس* كل طرف فى جانب واشتد وطيس المعركة حيث جاءت فى أعقاب ذلك- كما يحدث دائما إمدادات من الدوريات المجاورة للأمريكيين، وبعد معركة حامية الوطيس استشهد من جانب المجاهدين اليمنى والسعودى وتمكن العراقى من الانسحاب مع نهاية المعركة فيما أصيب نور الدين واختفى بين أشجار النخيل التى تملأ المكان، واعتقد الأمريكيون أن المعركة قد انتهت فجاءت الطائرة الهليكوبتر لنقل القتلى والجرحى الأمريكيين لكن نور الدين رغم إصابته كان لازال يحمل رشاشته وقاذف أر بى جى فأطلق نور الدين على الهليكوبتر قاذفة أر بى جى فأسقطها وقتل من فيها، ثم انسحب وهو مصاب وفى رجله والدماء تنزف منه إلى المناطق المجاورة فطرق باب أحد الفلاحين فى المنطقة من عشيرة لن أذكر اسمها حتى لا أحرج أهلها، فلما رأوه مضرجا فى دمائه رفضوا أن يدخلوه، لكنه حينما هددهم بسلاحه فتحوا له الباب خوفا، وكان جرحه ينزف بشدة حتى أنه فقد وعيه حينها ذهب هؤلاء إلى القوات الأمريكية

---

* احتمى خلف المتاريس

وأبلغوها بوجوده فجاءت قوات كبيرة من الأمريكيين وألقوا القبض عليه ونقلوه فى حراسة مشددة إلى أقرب مستشفى وكان هو المستشفى الأردنى الميدانى، لكنهم فوجئوا حينما أدخلوه إلى المستشفى الأردنى بحفاوة الأطباء به حتى أن أحدهم -وهو طبيب أردنى معروف- احتضنه بشدة أمام الجنود الأمريكيين وأخذ يثنى عليه وعلى ما قام به، فاستشاط الجنود الأمريكيون غضبا ووقع تلاسن بين الطبيب وبين الجنود الأمريكيين بسبب تصرفه المشجع لنور الدين والمتعاطف معه، فدفع تصرفه الجريء والشجاع الجنود الأمريكيين إلى القلق من بقاء نور الدين فى المستشفى الأردنى الميدانى فنقلوه إلى مستشفى الفلوجة العام الذى كان أحد أهم المستشفيات الميدانية أثناء الحرب، وقد ذهبت إلى مستشفى الفلوجة وجلست أكثر من ساعة مع العاملين فيها وسمعت الكثير من القصص عما حدث أثناء الحرب.

حينما نقل نور الدين إلى مستشفى الفلوجة، بدأ رجال المقاومة يخططون لخطفه رغم الحراسة الأمريكية المشددة عليه وعلى المستشفى، فقامت المجموعة بدراسة الموقف بدقة وتحديد حجم الحراسة الأمريكية وطبيعتها وكيفية التعامل معها إذا وقع اشتباك، ومواعيد الأطباء والخفارة وغيرها، والمواقيت التى تكون فيها الحراسة متراخية، وتحت جنح الليل قامت مجموعة محدودة من المقاومين بالتسلل إلى المستشفى، وقاموا بتقييد كل الموجودين داخله من العاملين العراقيين وحملوا نور الدين وتسللوا به خارج المستشفى مخترقين القوات الأمريكية التى كانت تطوق المستشفى فى قصة شبه أسطورية ولا تصدق، وسأتغاضى هنا عن روايتها مكتفيا بالنتيجة وهى تهريب نور الدين من المستشفى رغم الحراسة الأمريكية المشددة على المستشفى مما أذهل الأمريكيين، حيث فتحوا تحقيقا كبيرا فى المسألة واعتقلوا أحد ضباط الشرطة العراقيين المسئولين عن المستشفى، لكنهم لم يصلوا إلى نتيجة لأن تهريب نور الدين جرى من بين أيديهم، وأكمل نور الدين علاجه فى الخارج على يد أطباء عراقيين، وبعد أسبوع واحد من هروبه عاد نور الدين إلى المقاومة وهو لم يزل بعد لا يستطيع الحركة بشكل طبيعى رغم نصيحة الأطباء له بأن يستريح ولا يتحرك كثيرا لكنه استأنف المقاومة وكان يقوم بعمليات نوعية جديدة ضد الأمريكيين وكان هذا أحد أسباب اشتعال المقاومة فى الرمادى والفلوجة مما جعل معظم وسائل الإعلام العالمية تفتح مكاتبا لها هناك لمتابعة أعمال المقاومة التى كان نور الدين هو أبرز أبطالها وقد توج نور الدين الذى أصبح

أسطورة بعملياته الخاطفة والدقيقة والتي أربكت الأمريكيين بشكل كبير توج عملياته بعملية كبيرة في مدينة الفلوجة في العاشر من يوليو الماضي حيث قام بتفجير مركز شرطة الفلوجة الذي كان مقرا للقوات الأمريكية في المدينة، مما دفع الأمريكيين إلى الإعلان في الحادي عشر من يوليو عن انسحاب قواتهم من مدينة الفلوجة إلى خارجها، وقد ذهبتُ إلى مقر مركز الشرطة ورأيته وآثار الحريق لازالت بادية عليه وقد ذكر أهل الفلوجة أرقاما مختلفة حول عدد القتلى الأمريكيين من وراء هذه العملية ويكاد الرقم المقبول من كل ما سمعته هو أن عدد القتلى من الجنود الأمريكيين في هذه العملية وحدها يصل إلى عشرين قتيلا غير أن الأمريكيين ينفون هذا بالفعل ولا يعترفون عادة إلا بجندي واحد أو اثنين أو ثلاثة على أقصى تقدير وذلك منذ النهاية الفعلية للحرب حسب تصريحات بوش في الأول من مايو 2003، لكن أحد العراقيين الذين يتابعون العمليات بدقة داخل العراق قال لي: إذا كان الأمريكيون في بعض تصريحاتهم قد اعترفوا بأن متوسط العمليات اليومية يصل إلى خمسة وعشرين عملية في اليوم الواحد فيم اعترف أحد ضباطهم بأن العمليات تصل إلى أربعين عملية في اليوم الواحد فإن عليك أن تضع صفرا وبشكل دائم ودون مبالغة أمام أرقام الضحايا التي يعلنونها عن جنودهم.

لم يكن نور الدين يتحرك بعملياته في بقعة محدودة وإنما كان يقوم بعمليات ضد الأمريكيين في دائرة يزيد قطرها عن ثلاثمائة كيلو متر بحيث أن ضرباته كانت موجعة في كل اتجاه وكان يصعب على الأمريكيين رغم كل إمكانياتهم أن يتعقبوه، ولعل قصة استشهاده أكبر دليل على ذلك حيث تناقلت وكالات الأنباء والصحافة العالمية يوم الأحد 20 يوليو 2003 نبأ انفجار سيارة ملغومة في مدينة هيت التي تبعد عن بغداد حوالي مائتين وسبعين كيلوا مترا ومقتل من فيها، ربما مر الخبر على الجميع دون تمحيص فيه مع الأخبار اليومية الكثيرة عن العمليات التي تتم داخل العراق، لكنهم لو محصوا لعلموا أن الذي كان فيها لم يكن شخصا عاديا .ولكنه كان أسطورة المقاومة العراقية نور الدين الزوبعي حيث كان قد فخخ السيارة وأعدها لتفجيرها في رتل أمريكي كان يترقبه، لكن يبدو أن هناك خطأ وقع في عملية التفخيخ فانفجرت به السيارة قبيل وصول الرتل، فاستشهد نور الدين ذلك الرجل الأسطورة الذي سجل في حرب المقاومة ضد الاحتلال الأمريكي للعراق والتي لازالت في بدايتها قصصا

تناولتها وكالات الأنباء والتلفزة العالمية دون أن يدرى أحد من الذى كان يقوم بها أو الذى يقف وراءها وكأن الذى كان يقوم بها جيش جرار من المجاهدين وليس رجلا واحدا وحوله عدد محدود من الفدائيين، استشهد نور الدين الذى أدرج الفلوجة والرمادى فى قواميس التلفزة العالمية وأصبح كل سكان الدنيا يعرفون أن فى العراق مدينة مقاومة اسمها الفلوجة، استشهد نور الدين الذى أجبر الأمريكيين على الخروج من الفلوجة بعدما أقض مضاجعهم بعملياته، استشهد نور الدين الذى كانت قصة إصابته وهروبه أسطورة عجيبة لوحدها، فرغم أن صدام وقصى وعدى كان كل منهم ولازال أسطورة مرعبة لدى العراقيين لكن هناك آخرون يسطرون أساطيرا أخرى ليست مرعبة أو مخيفة مثل أساطير عدى وقصى، لكنها أساطير مشرفة لكل عراقى بل لكل عربى ومن أبرز هؤلاء نور الدين الزوبعى.

بقى أن نعرف شيئا هاما عن نور الدين الزوبعى وهو أنه لم يكن مهندسا أو طبيبا أو أحد الذين يشير لهم الناس بالبنان، ولكنه كان عامل بناء بسيط فى السادسة والعشرين من عمره من أسرة بدا من المنزل الذى كانوا يستقبلون فيه الناس للعزاء أنها أسرة فقيرة كما علمت أنه كان يعول ثلاثة عشر فردا تركهم جميعا بلا عائل، والأكثر ألما من ذلك أنه ترك أرملة وطفلة رضيعة اسمها سمية.. رحم الله أبو سمية أسطورة المقاومة العراقية.

دعوة بريطانية لمقاومة الاحتلال

بينما كان مئات من صيادى الثعالب يحتجون بكلابهم المخيفة خارج البرلمان البريطانى يوم الأربعاء 9 يوليو 2003 على قرار للحكومة البريطانية حول منعهم من صيد الثعالب بالكلاب، كنت ألتقى داخل البرلمان مع العضو البارز تام داليل "أبو مجلس العموم البريطانى" كما يلقب فى بريطانيا، وذلك قبيل المقابلة التلفزيونية التى أجريتها معه فى نفس اليوم فى برنامجى "بلاحدود"، أخذ من يدى بعدما استقبلنى فى الصالة الرئيسية للبرلمان -وكأن بيننا صحبة قديمة- إلى إحدى القاعات الجانبية وأجلسنى على كرسى قبالته ثم قال لى: سل ما شئت، قلت له لن أسألك الآن وإنما على الهواء فى البرنامج لكنى أردت الدردشة معك قبيل البرنامج -كما أفعل عادة مع ضيوفى- لاسيما عن الموقف الحالى لتونى بلير رئيس الوزراء وموقف الحكومة بعد استدعاء بلير إلى لجنة برلمانية للتحقيق معه حول التقرير الذى قدمته الحكومة البريطانية للبرلمان وحازت به على تأييده لشن الحرب على العراق، ثم اتضح بعد ذلك أنه تقرير لطالب عراقى يدرس الدكتوراه وأنه أخذ من موقع على الأنترنت وخدع به النواب على أنه معلومات استخباراتية، وهكذا فعلت الولايات المتحدة واعترف البيت الأبيض بعد ما فضح السفير الأمريكى السابق فى الجابون جوزيف ولسون إدارة جورج بوش واتهمها فى حوار نشرته صحيفة "نيويورك تايمز" يوم الأحد 6 يوليو 2003 بالتلاعب فى معلومات استخباراتية لتبرير الحرب وأن التقرير الذى استندت إليه أمريكا حول شراء العراق يورانيوم من النيجر ملفق، ومن ثم فإن الدولتين العظميين كذبتا على العالم وعلى شعوبهما وعليكم أنتم أعضاء البرلمان وممثلى الشعب، وخاضتا حربا غير مبررة ضد العراق.

تحدث الرجل باستفاضة عن تصوره لسيناريو الحرب وأدركت أنه ربما يكون من أبرز البريطانيين دراية بشئون المنطقة العربية، وقال إن اهتمامه بالمنطقة نابع من كون أن أبيه وأمه عاشا فى العراق فترة طويلة، وشكلت الدول العربية مكانة فى اهتمامهم وحياهم، وحينما عرف أنى من مصر قال لى: لقد قضيتُ شهر العسل فى مصر حيث تزوجت فى شهر يناير عام1964، وأذكر وأنا فى شهر العسل فوجئت ذات ليلة بطرق على باب غرفتى فى الفندق الذى كنت أنزل فيه بعد منتصف الليل، ففتحت فقالوا لى: إن شخصا مهما يريد رؤيتك، فارتديت ملابسى بقلق وأنا لا أدرى من يكون هذا الشخص المهم الذى يريد رؤيتى بعد منتصف الليل، ففوجئت بأن هذا الشخص هو الرئيس جمال عبد الناصر حيث استقبلنى بحفاوة، وقال لى نحن نعرف كل شيء عنك وعن عائلتك وحينما وجدنى لا أتكلم العربية، قال لى: إن أباك وأمك يتحدثان العربية بطلاقة فلم لاتكون مثلهما، وكان أبى وأمى فعلا يتحدثان العربية بطلاقة حيث عمل أبى فى العراق مع ا لقوات البريطانية فترة طويلة وصحبته أمى خلالها وكانا يحبان العرب كثيرا، كانت مقابلة عبد الناصر لى مقابلة مجاملة لكنها تركت فى نفسى أثرا لا يزول عن مصر التى أحبها كثيرا.

ينحدر تام داليل من أسرة عريقة وهو "بارون" بالوراثة عن طريق والدته، لكنه مع ذلك انتمى لحزب العمال البريطانى، ودخل البرلمان عام 1962 ولم يخرج منه يوما واحدا وبالتالى فهو أكبر أعضاء البرلمان سنا وأكثرهم احتكاكا بكل الأحداث التى مرت بها بريطانيا طوال أكثر من أربعين عاما، لكنه مع ذلك أكثرهم حكمة ودراية ومعارضة لسياسة بلير الحالية وللنفوذ الصهيونى فى إدارته، وقد فتح الرجل النار عليهم فى حوارات صحفية عديدة جلبت له كثيرا من المتاعب لكنه مصر على موقفه الذى يعتبر فيه اللورد ليفى مبعوث رئيس الوزراء للشرق الأوسط حليفا رئيسيا لإسرائيل، وقال الرجل لى بفخر: "لقد شهد أبى تخطيط كثير من الدول العربية على الرمال قبيل أن تعلن دولا مستقلة لاسيما العراق والكويت وبالتالى فأنا أفهم كثيرا من أبعاد السياسة فى تلك المنطقة وأتعاطف مع قضاياها" وقد أدان الرجل السياسة البريطانية والأمريكية واللوبى الصهيونى فى بريطانيا والولايات المتحدة لكن السؤال الحساس الذى لم أتوقع إجابته بكل صراحة ووضوح منه كان حول الاحتلال الأمريكى البريطانى للعراق وهل من حق العراقيين كشعب محتل أن يقاوم قوات الاحتلال حتى لو

كانت بريطانية؟ قال الرجل فى شجاعة وجرأة ودون تردد:" أقول نعم من حق العراقيين أن يقاوموا المحتل حتى لو كانوا جنودا بريطانيين، فلو أن العراقيين هم الذين احتلوا بلدنا بريطانيا لقاومناهم ومن ثم فإن من حق العراقيين أن يقاومونا " قلت له: هل تعتقد أن نجاح العراقيين فى إيقاع المزيد من القتلى فى صفوف جنودكم يمكن أن يدفعكم إلى التفكير فى الخروج من العراق؟ قال:" رغم أنى لا أتمنى ضحايا فى كل الأطراف، لكن نعم ربما يساعد زيادة القتلى فى صفوف البريطانيين على خروجنا من العراق " هكذا دعا الرجل بقوة وجرأة لمزيد من المقاومة ضد قوات بلاده حتى يكون هذا دافعا لخروجها من العراق.

هناك شخصيات سياسية كثيرة تحفل بها مزبلة التاريخ وهناك شخصيات سياسية قليلة لا تملك وأنت تستمع إلى آرائها إلا أن تحييها على جرأتها على قول الحقيقة حتى لو على نفسها لأن لديها أخلاق ومبادىء فى عالم سياسى يعتمد على الكذب والتدليس ليس على العدو وإنما على الشعب والبرلمان والكونجرس تماما كما فعل السيدين بوش وبلير، أما تام داليل الذى يلاحقه الصهاينة بسبب مواقفه المؤيدة للعرب، ويغفل عنه العرب لأنهم غافلون حتى عن أنفسهم ذلك الرجل الذى عارض الحرب ضد العراقيين بشدة يؤيد الآن أيضا وبشدة حق العراقيين فى مقاومة جنود بلاده المحتلين، وهذا رأى ربما لا يستطيع أن يجهر به للأسف كثير من السياسيين العرب.

بغداد.. ليلة مقتل عدى وقصى؟

رغم زخات الرصاص التى قعقعت فى سماء بغداد فور تأكيد القوات الأمريكية لمقتل عدى وقصى نجلى الرئيس العراقى السابق صدام حسين فى هجوم على بيت كانا يختفيان فيه فى الموصل يوم الثلاثاء 23 يوليو 2003 إلا أنى من خلال مراقبتى لها من على سطح استوديو قناة الجزيرة فى بغداد من أول طلقة إلى نهايتها ومحاولتى تسمع البعيد منها طوال ما يقرب من عشرين دقيقة فإنها لم تكن بالحجم الذى يشير إلى أن كل العراقيين أو معظمهم قد فرح بما حدث أو اقتنع أو حتى كان معنيا به، فالهموم التى يعيشها الناس والحقائق المفزعة التى صحوا عليها بعد سقوط النظام جعلت مثل هذه الأحداث تهم الأمريكيين الذين صنعوها من أولها إلى آخرها أكثر مما تهم العراقيين الذين يعيشون هم الجوع والخوف.

وكنت قبل ذلك قد نزلت مباشرة إلى شوارع بغداد لمعرفة ردود فعل الناس على مقتل عدى وقصى فور تأكيد الخبر، كانت الساعة حينها تقترب من السابعة مساء فوجدت أن معظم الناس لا يكادون يصدقون الخبر غير أنى حينما وصلت قرب الثامنة مساء إلى منطقة الكرادة التى عادة ما تكتظ بالناس إلى قبيل موعد حظر التجول فى العاشرة مساء كان الهمس قد بدأ لكن الأغلبية لم تكن على قناعة بأن عدى وقصى قد قتلا، وقال لى أحد العراقيين مكذبا " ليست المرة الأولى التى يعلنون فيها ذلك " أما أحد الذين أدركت من حوارى معه أنه ربما يكون مسئولا كبيرا فى النظام السابق حتى أنه رفض بشدة أن يذكر لى اسمه أو كنيته بعد نقاش مطول معه فحينما قلت له فى البداية: ما رأيك فيما أعلن عن أن الأمريكيين قد قتلوا عدى وقصى؟ فتح الرجل عيناه وفغر فاه وكان كمن صعق ثم قال لى بصوت مرتفع: مستحيل.. مستحيل... قلت له:

لماذا؟ قال لأن عدى وقصى لا يمكن أن يجتمعا فى مكان واحد لمدة طويلة هذه كانت تعليمات السيد الرئيس " والكلمة الأخيرة " السيد الرئيس " لازال يرددها بعض العراقيين الذين إما كانوا جزءا من النظام أو البسطاء الذين لازالوا يعتقدون أن صدام حسين سوف يعود وأن كل ما يحدث ليس سوى كابوس سوف ينتهى مع خروج الأمريكيين قريبا، وهذا ما لمسته فى كثير من المناطق التى مررت عليها خارج بغداد لاسيما لدى العامة الذين لازالوا يخافون من الحديث عن صدام أو أبنائه بأى سوء خوفا من عودته وحسابه لهم على أى كلمة يقولونها ضده أو ضد أبنائه.

ورغم الروايات الكثيرة التى تداولتها الصحافة العالمية حول مقتل عدى وقصى فإنى أكاد أكون على قناعة تامة بالرواية التى عاصرتها بنفسى من اللحظة الأولى مع الزميل ياسر أبوهلالة، منذ أن خرج صباح الثلاثاء من بغداد باتجاه دهوك لتغطية بعض الأحداث بين الأكراد هناك لكنه غير مساره إلى الموصل فور ورود أنباء عن هجوم أمريكى على أحد البيوت فى الصباح، حيث كان ياسر من أوائل الصحفيين الذين وصلوا إلى المكان الذى دارت فيه المعركة بسبب قربه بالمصادفة منها وظل طوال اليوم يتابع التطورات ويستمع إلى روايات الناس، وكنت على اتصال دائم معه حتى استطاع أن يجمع أطراف رواية ربما تكون هى الأرجح، حيث يصر ياسر فى روايته على أن صاحب البيت الذى قتل فيه عدى وقصى الشيخ نواف محمد الزيدان زعيم عشيرة بو عيسى فى الموصل لم يكن هو الواشى بهما رغم أن كل الروايات التى تداولتها وسائل الإعلام تصر على أنه الواشى، كما يؤكد أن الأمريكيين حينما جاؤا وأخذوا الرجل وابنه إلى بيت مجاور لم يكونوا يعلمون من الذين يؤويهم الرجل فى بيته وأنهم كانوا يعتقدون أنهم ربما يكونوا من المجاهدين العرب أو بعض المطلوبين، وأن المؤكد أن أحد جيران الرجل الذى لاحظ تغير عاداته ربما يكون هو الذى وشى به حيث تعود الرجل أن يجلس كل يوم عند العصر خارج بيته يتحدث مع جيرانه، لكنه انقطع عن هذه العادة منذ أكثر من أسبوع واشترى مولدات كهرباء كبيرة جديدة وكان يطلب كثيرا من الطعام إلى بيته وكانت هناك سيارات تروح وتأتى بشكل ملفت لمن يتابع بدقة، مما أكد وجود أغراب عنده، لكن الشكوك لم تذهب مطلقا إلى أنه كان يؤوى عدى وقصى، ولأن الخوف يتحكم فى كل تصرفات الأمريكيين وكثيرا ما جاءتهم وشايات كاذبة من أناس على آخرين ذهب فيها كثير من الأبرياء ضحايا، فقد جاءوا

إلى الرجل واعتقلوه وابنه وأخذوهم إلى بيت جيرانه ليتأكدوا من المعلومات التي وصلتهم قبل فعل أى شيء، وكان البيت الذى أخذا إليه به أيضا بعض العمال الذين شاهدوا ما جرى وقد روى شهود العيان أن أحد الضباط الأمريكيين أخذ يضرب الولد بكعب مسدسه بعنف أمام أبيه وهو يمسك بخناقه وآخر يضع فوهة رشاشه على رأس الأب ويقول له بعنف: أعترف من عندك فى البيت؟ فانهار الرجل الذى لم يتحمل ما يحدث أمام عينه لابنه والتهديد المباشر له وقال بهدوء شديد لدى عدى وقصى ومصطفى نجل قصى (14 عاما) وأحد رجال الحماية الخاصة لهم يدعى عبد الصمد، سيطرت الدهشة حتى على الأمريكيين الذين ربما لم يصدقوا هم الآخرين وجود هذا الصيد الثمين، فجلبوا جيشا جرارا للمنطقة وطوقوا المنزل الذى يقع فى منطقة لا تتكاثر فيها المنازل وطلبوا ممن داخل المنزل فى البداية عبر مكبرات الصوت أن يستسلموا لكن أحدهم خرج وفتح رشاشه عليهم معلنا بداية معركة مع الأربعة المحاصرين فى البيت استمرت حسب تصريحات الليفتاننت جنرال ريكاردو شانزيز فى المؤتمر الصحفى الذى عقده فى بغداد مساء الثلاثاء 23 يوليو ست ساعات وانتهت بمقتل الأربعة حيث استخدم الأمريكيون مقتل عدى وقصى الذى قالوا أنه الأهم منذ احتلالهم للعراق منقذا حتى يخرجوا به من الأزمات التى تلاحقهم والتى ربما تعصف ببوش وحكومته فى النهاية، هذا عند الأمريكيين لكن عند العراقيين فكما كانت حياة عدى وقصى دربا من الخرافة والأساطير سيظلون يتحدثون عنها عشرات السنين فإن موتهما كذلك بهذه الطريقة حيث كانوا أربعة أفراد فقط بينهم طفل خاضوا معركة استمرت مع جيش أمريكى جرار عدة ساعات لن يكون أيضا سوى دربا من دروب الخرافة والأساطير الذى ربما تكتمل به الصورة.

مصير صدام وعائلته ورجاله

كانت أشعة شروق الشمس تنساب من وراء السهول حينما فتحت عيناى بعدما غلبنى النعاس حيث بقيت طوال الليل مستيقظا فى الباص الذى كان ينقلنا من الكويت إلى الحدود العراقية الأردنية عن طريق بغداد وكان ذلك خلال سبتمبر 1990، نظرت إلى ركاب الباص الذي كان حالهم أشبه بحالى فوجدهم جميعا نيام، كما تركتهم قبل أن أغفو من شدة التعب والإرهاق، سألت سائق الباص وأنا أرانا على مدخل مدينة كبيرة أين نحن الآن؟ قال: نحن على مشارف بغداد.. قلت فى نفسى هذه بغداد عاصمة الرشيد ومهد الخلافة، لكنها فى ذلك الوقت لم يكن فيها شيء من بقايا الرشيد أوالخلافة، كانت كلها تماثيل وجداريات "للسيد الرئيس القائد صدام حسين"، كانت المرة الأولى التى أرى فيها بغداد، والمرة الأولى التى أرى هذا الكم الهائل من التماثيل والصور والجداريات لرئيس يحكم دولة، كلما استدار الباص فى شارع أو دار فى ميدان أو انطلق فى طريق كنت أجد تمثالا أو جدارية أو نصا مكتوبا بخط كبير يحمل توقيع "السيد الرئيس القائد" وكان الخاطر الذى توارد إلى ذهنى فى تلك اللحظة هو حجم الجهد الذى يمكن أن يستغرقه الزعيم الذى سيأتى بعده لهدم ذلك الكم الهائل من التماثيل والصور والجداريات وحجم النفقات التى أنفقت على إعدادها والتى ستنفق على إزالتها.

كنت وقتها فى طريقى للخروج من الكويت بعد غزو العراق واحتلالها فى الثانى من أغسطس عام 1990 حيث كان حظى -كما ذكرت من قبل فى أول الكتاب- أن أكون أحد ركاب طائرة الخطوط الجوية البريطانية التى كانت آخر طائرة دخلت المجال الجوى الكويتى ليلة الثانى من أغسطس وأخذ ركابها الغربيين كرهائن إلى بغداد بينما

خرجت مع آخرين من المطار بسلام قبيل هبوط المظليين العراقيين على المطار واحتلاله والسيطرة على الطائرة مع ركابها وقد دفعتني المغامرة الصحفية للبقاء في الكويت لمشاهدة ما سوف يحدث رغم أن الثاني من أغسطس كان اليوم الأول لي في العمل وقد بقيت خمسين يوما في الكويت وربما كنت من الصحفيين العرب القلائل الذين بقوا تلك الفترة حيث كان الصحفيون هدفا للقوات العراقية لكن لكوني لم أعمل داخل الكويت من قبل فلم يتعرف عليّ أحد مثل الصحفيين الآخرين، وكان قدري أن أخرج في العشرين من سبتمبر عبر الطريق الوحيد المفتوح آنذاك وهو طريق بغداد.

كان هذا المشهد الراسخ في ذاكراتي هو المشهد المرتبط دائما بأي حديث عن العراق أو نظام حكم صدام حسين، فهذا الكم الهائل من التماثيل والذي استطعت أن أطلع عليه جيدا بعد زياراتي المتكررة للعراق بعد ذلك، رسخ لدى مفهوم الصنمية الذي كان سائدا في عصر الجاهلية وكيف أن صناعة الأصنام كانت تعني تقديس الأشخاص ورفعهم فوق مرتبة الآدمية وترسيخ صورهم في النفس وزيادة رهبتهم في الذات فكلما التفت وجدت صنما أو إلها صغيرا يرقبك في كل مكان تذهب إليه أو طريق تمشي فيه، وهذا ما سعى صدام أن يرسخه في نفوس العراقيين وأن ينميه في نفوس الذين من حوله فحولوه إلى "صنم" بكل معاني الصنمية وأصبح معنى صدام حسين "الرجل الصنم" يكاد يعبد من دون الله حيث وقعت على عدد من الأبيات الشعرية التي كانت تقرأ أمامه وفيه لترسيخ معنى الصنمية لا حدود لها من أبرزها ذلك البيت الذي كان يكرره المنافقون له أمامه وفي حضوره فلا يخفي ابتسامته وهم يقولون له:

(تبارك وجهك القدسي فينا كوجه الله ينضح بالجلال) استغفر الله العظيم وحاشى لله.

أما ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث فلم يكن في كل مرة يلتقي فيها بالرجل الصنم إلا ويضفي عليه من الصفات ما يتناسب مع كل معاني الصنمية منها جملته المشهورة " إن صدام حسين هو هبة السماء إلى حزب البعث وهبة البعث إلى الأمة العربية ".

هذه التأليه جعل كثيرا من النحاتين فى العراق يتهافتون لعمل التماثيل والتفنن فى صناعتها للرجل الصنم فلم يكن يخلو ركن من أركان العراق أو زواياه منها وكأنه يطل على الناس من كل مكان ويتواجد بينهم فى كل لحظة، مما جعل كثيرا من العراقيين لاسيما البسطاء إلى الآن لا يقولون صدام حسين وإنما يسبقونها دائما بالسيد الرئيس " وبعضهم لازال يقول " السيد الرئيس القائد صدام حسين " وهذا يشير إلى الحجم الهائل من تأثير الرجل الصنم المخيف فى حياة الناس، بعض العراقيين الذين التقيت بهم فى أماكن كثيرة لا يصدقون أن صدام قد زال نظامه، وبعض البسطاء لازالوا يؤكدون عودته فى أى لحظة.

وكنت وأنا أتأمل تلك التماثيل فى ميادين بغداد قبل سقوط النظام أجد أن النحاتين يكادون يتبارون فى نحت بطن الرئيس المتهدل حيث كان كل أعضاء مجلس قيادة الثورة يقتدون برئيسهم فكانوا جميعا يحملون بطونا " كروشا " كبيرة تقسمها الأحزمة العسكرية إلى قسمين وكان يمكن للنحاتين أن يداروا هذا الأمر لكنهم كانوا أمناء فى نحت وتقديم الشخصية الصنمية للرئيس كما هى.

شخصية الرجل الصنم هذه هى التى جعلت الأمريكيين يحرصون فى التاسع من إبريل 2003 أن يكون إسقاط التمثال أمام وسائل الإعلام العالمية هو الرمز المباشر لسقوط نظام صدام حسين، فلم يكن الأمر عفويا على الإطلاق، وإنما كان مرتبا بشكل كبير حيث ظل هذا الصنم هو الذى يحكم حياة الناس فى كل لحظة حتى وهم يمارسون أدق خصوصياتهم الحياتية، وكان إسقاط التمثال فى ساحة الفردوس إيذانا بإسقاط كافة التماثيل فى كل أنحاء العراق وبوسائل مختلفة وبشكل أجاب ببساطة عن تساؤلى الذى لم أفصح عنه فى العشرين من سبتمبر عام 1990 حينما وقعت عينى عليها لأول مرة.

وكان ما شغلنى أثناء دخولى للعراق بعد الاحتلال الأمريكى هو معرفة مصير ذلك التمثال الذى كان على مدخل النقطة الحدودية العراقية من جهة الأردن حيث كان هناك تمثال كبير لصدام على صهوة جواد وكان على مكان مرتفع كعادة التماثيل فوجدتهم لم يكتفوا بإسقاط التمثال من فوق الحصان فحسب بل إنهم كسروا الحصان نفسه.

مصير صدام:

كنت أمشى فى شارع السعدون أحد شوارع بغداد الرئيسية حينما وجدت جمعا من الناس يلتفون حول صبى فطلبت من مرافقى أن نتوقف بداعى الفضول الصحفى، وطلبت منه أن يترل ليعرف القصة، فإذا بالطفل يحكى قصة من القصص العجيبة التى يتداولها الناس فى كل مكان عن صدام حسين، وهى أقرب إلى الخرافة منها إلى الحقيقة تماما مثل القصص التى يتداولونها عن حياة صدام ونظام حكمه، حيث قال الصبى إن صدام حسين مر من شارع السعدون قبل نصف ساعة فقط من مرورنا أى فى الثالثة ظهرا أى فى وضح النهار، وكان يرتدى ثيابا عربية ويركب سيارة "جيمس" أمريكية وأنه نزل وحيًّا الناس كما فعل تماما قبيل انهيار نظامه فى الصور التلفزيونية التى وزعت له ثم أهدى هذا الطفل مسدسا، فسألت مرافقى وهل يحمل الطفل مسدسا؟ قال: نعم، نظرت إلى الجهة الأخرى من الشارع فوجدت سيارتين أمريكيتين مصفحتين بهما بعض الجنود يقفون على جانب الشارع ويرقبون الموقف، وبعد أيام تدوالت الصحف نقلا عن ضابط مخابرات عراقى سابق أن صدام حسين قد ظهر مؤخرا فى حى المنصور الذى ظهر فيه قبل نهاية نظامه وأن الناس التفوا حوله كذلك، وقصص أخرى لا تكاد تصدق، وربما ستظل تروى مثل هذه القصص حتى ربما بعد اعتقال صدام أو مقتله، لأن شخصية الرجل الصنم التى صنعها من الصعب أن تزول من حياة الناس أو ثقافتهم أو خيالهم بسهولة.

حاولت أن أعرف كيف يمكن لصدام أن يختفى الآن لاسيما وأن معظم المقربين منه قد سقطوا فى قبضة القوات الأمريكية فروى لى كثير من العراقيين أشياء لا تكاد تصدق عن شخصية ا لرجل وكيف أنه لم يكن يثق بأحد على الإطلاق حتى بهؤلاء الذين كانوا يطلقون عليه "ظل صدام" مثل عبد حمود سكرتيره الخاص المقرب منه، وأن الرجل لاشك مختف فى مكان ربما لا يخطر على بال الكثيرين، ومع أن بعض المراقبين يقولون بأن الأمريكيين يهمهم أن يبقى صدام مثل بن لادن لغزا لكثير من الحسابات لاسيما وأن مقتل ولديه لم يحدث الصدى الذى خطط له الأمريكيون و لم يكن نصرا كما أعلن بوش وكما أرادت إدارته، إلا أن آخرين يؤكدون أن الأمريكيين جادين فى القبض عليه أو التخلص منه على الأغلب حتى تطوى صفحته، لكن كثيرا

من العراقيين لم يعد يهمهم ما سوف يحدث لصدام بقدر ما يهمهم ترتيب الأمن والطعام لهم ولأسرهم، وإخراجهم من هذا المستنقع الذى يعيشون فيه، غير أن صدام سيبقى لغزا وأسطورة حتى لو قتله الأمريكيون أو اعتقلوه.

عائلة صدام:

رغم أن التراب لم يكن قد أهيل بعد على جسد أخويها عدى وقصى بعد مقتلهما على يد القوات الأمريكية فى 22 يوليو 2003 لكن رغد صدام حسين ظهرت على شاشات التلفزة وهى تحمل بقايا من جمال ورباطة جأش وحب لم يزل فى قلبها لزوجها الراحل حسين كامل الذى قتل على يد أبناء العشيرة بعد هروبه إلى الأردن فى ظروف مليئة بالغموض والملابسات كما كانت عودته كذلك بعدما ضاقت عليه الأرض بما رحبت فلاقى مصيره، كان كلامها فى مجمله يدور حول الصراع والكراهية داخل العائلة التى رهن صدام حسين مصير العراق كله بها، إخوة غير أشقاء وغير متعلمين وغير متجانسين يمسكون بزمام الأمور فى البلاد، فيذلون العباد ويفقرون البلاد ويصنعون جمهورية الخوف لتصبح العائلة تدور بمحيطها الكبير والصغير داخل دائرة الكراهية للذات وللآخر، فامتزجت المصالح الخاصة بمصير الدولة والناس، وأصبحت الدولة مرهونة بالعائلة الكبيرة وبالعوائل الصغيرة من داخلها حتى اختزلت كلها فى الولدين قصى وعدى، اللذين نسجت حولهما الأساطير وقصص ستظل تروى لأجيال حول ما كانا يفعلانه وحول اليد المطلقة التى منحها لهما الأب ليقررا مصير الدولة والناس حتى كان ما كان، قتل قصى وعدى ورجت أمهما المكلومة أن يدفنا بعيدا عن الناس حتى لا يتعرض قبريهما للنبش وجثتيهما للتمثيل بهما فيما طالب بعض أهل الجنوب أن يدفنا على مشارف النجف حتى يرجما فى قبريهما من الراحين والغادين فى صورة من صور الكراهية المتطرفة حتى للجثث التى صارت فى التراب، وقد تم موارأتهما الثرى بعد أسبوعين أو أكثر من احتفاظ القوات الأمريكية بجثتيهما حيث دفنا فى ظروف خاصة لم تناسب الصخب الذى صاحب حياتهما، وبينما الأم لازالت مختفية مع ابنتها الصغرى حلا فإن مصادر صحفية اشارت إلى أن الأردن يسعى لجمع شمل الأم مع بناتها الثلاث رغم الرد الذى قام به بعض الغاضبين العراقيين من التصرف الأردنى بإيواء ابنتى صدام بنسف مقر السفارة الأردنية فى بغداد بسيارة مفخخة.

الأخوة الأعداء لاسيما وطبان وبرزان كانوا على قائمة الخمسة وخمسين مطلوبا وقد سقطوا فى يد القوات الأمريكية أما الأخوات فمصيرهن لا يقل عن مصير باقى العائلة، وسأروى هنا ما عايشته أثناء وجودى فى بغداد حيث كنت أمشى فى شارع الكرادة التجارى حينما تعرف عليَّ أحد التجار وأصر على أن يضيفنى وكان متجره واسعا فأخذنى إلى غرفة مكتبه الخاصة وتحدث معى فى أمور كثيرة ثم قال لى: إن هناك قصة إنسانية تمنى عليَّ أن أساعده فيها وأن معرفته بى من خلال برامجى هى التى دفعته أن يثق بى وأن يتكلم معى قلت له: ماهى؟ قال أخوات السيد الرئيس وبناتهم وأولادهم الصغار؟ قلت له: صدام حسين تقصد؟ قال: نعم، قلت له وهل أنت على علاقة بهن؟ قال لا تسألنى كثيرا لأنى لن أستطيع أن أتكلم معك إلا فيما أعرف أنه لن يضر بهن، قلت له هات ما عندك، قال: أنا كنت أعرف تلك العوائل بحكم عملى كتاجر قبل أن يسقط النظام وقد هربوا من بيوتهم بعدما سقط النظام واستولى عليها الناس وقد وجدوا من يؤويهم لكنهم خائفون بسبب كراهية الناس لصدام وعائلته من أن تتعرض بناتهم للاعتداء أو الاختطاف، لذا فقد تجمعوا فى بيت أحد الناس الذى أعرفه، ويريدون أن يخرجوا من العراق من خلال أن يؤويهم أى نظام عربى أو يستضيفهم أو يمنحهم فقط حق الحياة بأمان لاسيما وأن الشقيقتين مريضتان بالسرطان وبحاجة إلى العلاج حتى لا تتطور الحالة لديهن.

طلب منى الرجل أن أعود فى اليوم التالى ليوافينى بمزيد من المعلومات عن حالتهم وبالفعل واعدته وفى اليوم التالى ذهبت إليه وجاءنى بتقارير طبية باللغة العربية حول حالة كل منهما الأولى هى ليلى إبراهيم الحسن أخت صدام غير الشقيقة وزوجها هو رشيد طالب عبد الستار النقيب كان من ملاك الأرض و لم يكن يعمل فى النظام، وهى من مواليد عام 1947، وهى مريضة بالسرطان وكانت تعالج لدى أحد الأطباء فى الأردن، أما أختها نوال إبراهيم الحسن من مواليد العام 1957 وهى مريضة بورم فى الغدة الدرقية وهى زوجة أرشد ياسين أحد مرافقى صدام حسين المقربين، وهو من الهاربين، كما حمل لى قائمة بأسماء أولاد كل منهما وأعمارهم وأنهم جميعا يعيشون فى غرفة واحدة لدى أحد العراقيين، بعدما كانوا يعيشون فى القصور.

هذا بعض ما آل بعائلة الرجل الصنم أما رجاله فكل منهم له قصة.

مصير رجال صدام:

كان الحضور المذعور لوزير الإعلام العراقى السابق محمد سعيد الصحاف صباح الثامن من إبريل 2003 إلى فندق ميريديان بغداد حيث كان المقر الرئيسى للصحافة ووسائل الإعلام العالمية ثم اختفاؤه مسرعا دليل على الحالة التى آل إليها مصير رجال صدام، فالكل يبحث عن مكان يختفى ويختبأ فيه بعدما سقط الصنم، الكل هرب، والكل هام على وجهه يبحث عن كريم يؤوى لئيما، حتى أن عبد حمود ظل صدام الذى لم يكن يفارقه والذى كان اسمه كافيا لبث الرعب فى نفس أى عراقى، مما جعل الأمريكيين يدرجونه الرابع فى قائمة المطلوبين بعد صدام وابنيه فقد ضاع من الرئيس وضاع الرئيس منه وأصبح كل منهما مثل قصى وعدى والجميع يبحث عمن يؤويه حتى أنه حينما قبض الأمريكيون على عبد حمود فى 19 يونيو 2003 حيث كان يؤويه أحد العراقيين البسطاء الكرماء كان كما ذكرت صحيفة "الواشنطن بوست" الأمريكية "كان مهموما ووحيدا وينام على الأرض بعدما كان يتجول فى القصور، حتى أنه كان يستجدى الخدمات من السكان المحليين مثل إيوائه لليلة واحدة أو إطعامه ولم تكن لديه وسائل انتقال أو أموال أو أسلحة" أما نائب الرئيس طه ياسين رمضان الذى قبض عليه فى 20 أغسطس وبدا ذليلا منهكا لا يدرى شيئا حيث بثت صورة اعتقاله على شاشة قناة الجزيرة، فقد روى لى أحد الزملاء الصحفيين فى بغداد أنه التقى مع أحد مساعديه حيث هرب معه فى اليوم الأول وحينما عضهم الجوع بعد يوم كامل كانوا فيه هائمين على وجوههم لا يعرفون أين يذهبون مالوا على أحد الخبازين فى فرن حتى يمنحهم رغيفا من الخبز!! وحينما تعرف عليهم الرجل رفض وطردهم مما دفع هذا المساعد أن يترك النائب يأخذ طريقه للبحث عن مأوى فيما احتمى هذا المساعد بعشيرته بعدما وجد أن اسمه ليس مطلوبا من الأمريكيين، فى اليوم التالى لاعتقال طه ياسين رمضان أعلنت القوات الأمريكية فى 21 أغسطس 2003 عن اعتقال على حسن المجيد أو كما أطلق عليه على الكيماوى رجل المهمات القذرة لدى صدام والذى قتل المئات أو بمفهوم أدق الآلاف من العراقيين بوسائل وطرق وحشية، أما الأغلبية من رجال النظام أو المطلوبين فقد آثروا الاستسلام بعدما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ،وكان أكثر هؤلاء إثارة فى وجوده فى السلطة وحتى فى استسلامه طارق عزيز نائب رئيس الوزراء المسيحى الكلدانى الوحيد فى الحكومة الذى ولد عام

1936 قرب الموصل والذى غيَّر اسمه الأول من "ميخائيل" إلى طارق وظل لصيقا بصدام ولسانه المتحدث باسمه لدى الغرب حيث كان يتقن الانجليزية ولهذا فقد صاحب عملية استسلامه فى 25 إبريل 2003 قصص كثيرة حول علاقته بالغرب والعلاقة الخاصة التى يمكن أن يعامل بها حتى أن بعض التقارير اشارت إلى أن صدام كان يشك فى الرجل ويخشى من أن تكون له بالغرب علاقاته السرية، لكن تقريرا نشرته صحيفة "صنداى تلجراف" البريطانية فى 20 يوليو 2003 كشف النقاب عن الحياة القاسية التى يعيشها طارق عزيز الذى اشتهر مثل صدام بالسيجار الفاخر الذى كان يحب أن يظهر به دائما حيث أكدت الصحيفة أن عزيز يعيش مثل غيره من آلآف السجناء العراقيين فى سجن "معسكر كوبر" الذى يطلق عليه العراقيون "سجن المطار" ووصفه أحد المعتقلين السابقين الذى أفرج عنهم قائلا: "بدا عجوزا محدودبا بعض الشيء.. شعره طويل وأشعث يصل إلى ياقته.. يسير بتثاقل ويجر وراءه رفشا ليحفر ما يسميه الجنود الأمريكيون مرحاضا... كان مظهره مثل أى واحد فينا قذرا وجائعا " وقد روى بعض العراقيين الذين يتابعون أخبار سجن كوبر ومن فيه أن عزيز ترك لحيته وشعره وحواجبه الكثيفة فبدا شكله مخيفا فى السجن ويدعو للرثاء، أما عائلة طارق عزيز المكونة من زوجته وولداه فقد فرت إلى الأردن عندما انتهت الحرب أما بيته فقد نهب ودمر مثل باقى بيوت قادة النظام، وما يلاقيه طارق عزيز يلاقيه باقى أعضاء القيادة المعتقلين معه فى نفس السجن الذى سمح الأمريكيون للصحافة بدخوله مؤخرا دون تصوير حيث يحشر المعتقلون ـــ الذين ذكرت متحدثة أمريكية أنهم خمسة آلاف ـــ فى خيام تحت شمس لاهبة، ومن بينهم سعدون حمادى الرئيس السابق للمجلس الوطنى العراقى وامرأة واحدة كانت ضمن قائمة الخمسة والخمسين وأطلقوا عليها فى الصحافة الغربية لقب "سيدة الجمرة الخبيثة" هى هدى صالح مهدى عماش التى اغتيل أبوها على يد صدام حسين ومع ذلك كانت من أشد المخلصين له، قد تحدث زوجها ووالدها للصحافة ووصفوا الوضع المذرى الذى تعيش فيه وقالت أمها "قسمة عماش التى يزيد عمرها عن سبعين عاما": "إن هدى "49 عاما" -والتى كانت تحمل رقم 53 من قائمة الـــ 55 مطلوبا- ليست امرأة شريرة كما تدعى الصحافة الغربية، إنهم يقولون إنها قاسية، لكن عملها تركز على البحث عن البكتريا فى تربة العراق، إنها زوجة وأم فحسب ".

رجال الحرس الجمهورى والبعث:

على الضفة المقابلة لقصر صدام حسين الرئيسى على نهر دجلة والذى يتخذه بول بريمر الحاكم العسكرى الأمريكى للعراق مقرا له، توجد عشرات العمارات ذات الثلاث طوابق بنيت بنظام حديث وبلون موحد كانت تخص ضباط الحرس الجمهورى، لكن هؤلاء كما هربوا من مواجهة القوات الأمريكية، هربوا كذلك من بيوتهم التى زحف عليها الناس واستولوا عليها بوضع اليد بكل ما فيها، وأصبح ضباط الحرس الجمهورى ليسوا دون نظام يدافعون عنه ودون بيوت يعيشون فيها فحسب بل ودون كل حاجات الحياة التى كانت موفورة لهم فى تلك البيوت.

وحتى الآن لم يحاسب أحد الناس على ما فعلوا حتى أن الناطق باسم حوزة مقتدى الصدر فى بغداد أخبرنى أنه يقيم فى أحد هذه البيوت بشكل مؤقت بعدما منحه له أحد الذين استولوا عليه، وهذا ما تم فى كل المجمعات التى كانت تضم بيوت المسئولين العراقيين السابقين، فقد كانت هناك مجمعات تضم فللا لمسئولين سابقين أو سياسين عرب لاجئين فى العراق منحهم صدام حسين هذه الفلل مثل الرئيس السورى الأسبق أمين الحافظ وقد زرت الرئيس أمين الحافظ فى أحد هذه المجمعات قبل سنوات حيث كان يضم المجمع ما يزيد على مائة فيلا، كل هذا استولى عليه الناس وطردوا من فيه وأصبح الذين كانوا يعيشون فى العز يعيشون فى العراء حتى أن الرئيس الحافظ بقى عدة أيام على الحدود العراقية السورية بلا مأوى ثم عاد إلى بغداد حيث آواه بعض الناس.

وقد استضافنى أحد شيوخ العشائر فى محافظة ديالى فى أحد استراحات صدام حسين حيث استولى هو عليها وأصبحت ضمن ممتلكاته وتناولت فيها الغداء مع كثير من رجال العشيرة.

أما رجال البعث فقد اختفوا خشية الانتقام منهم ذلك الانتقام الذى بدأت وتيرته تزداد فى الفترة الأخيرة، وقد قتل العشرات أو المئات منهم بشكل دموى طال أسرهم وأطفالهم فى بعض الأحيان، وقد نشرت صحيفة الحياة فى تقرير لها نشرته فى 3 أغسطس 2003 عن تصاعد عمليات التصفية للمسئولين البعثيين السابقين حتى أن أبرز الذين قتلوا خلال أسبوع واحد كان من بينهم عميد كلية الصيدلة فى جامعة بغداد الدكتور مصطفى الهيتى كما لقى المصير نفسه الرئيس السابق للجامعة عميد

كلية الطب الدكتور محمد الراوى، الذى كان من كبار قيادات البعث فى العراق، كما قتل الدكتور فائز غنى عزيز المدير العام لإحدى أكبر الشركات الصناعية فى البلاد، كما أن عمليات التصفية للمترجمين العراقيين الذين يعملون مع القوات الأمريكية وصلت إلى ثمانية فى أسبوع واحد، وقد روى لى المواطنون العراقيون قصصا مرعبة عن عمليات التصفية التى تقع للمسئولين البعثيين السابقين وحتى لأسرهم حيث شاهدت صورا مرعبة لتصفية عائلة أحد قيادات البعث ضمت كل أطفاله ذبحا بالسكين وحتى عاملين كانا يقومان صدفة بتركيب أجهزة تكييف فى بيت استأجره قبل يومين ظنا منه أنه أصبح بمنآى عن طالبيه.

لم يكن سقوط تمثال صدام حسين فى ساحة الفردوس فى بغداد فى التاسع من إبريل 2003 مجرد سقوط لأحد تماثيل صدام التى كانت تملأ أرجاء العراق ولكنه كان سقوطا لحكم " الرجل الصنم " ونظامه وعائلته ورجاله.

أبعاد الضغوط الأمريكية على سوريا

طوال أسبوعين قضيتهما فى العاصمة السورية دمشق بعد سقوط بغداد واحتلال الولايات المتحدة للعراق، لم يكن حديث كل من التقيت بهم يخرج عن إطار الضغوط التى تمارسها الولايات المتحدة على سوريا وأهدافها وأبعادها، والتغيرات المرتقبة فى كل من سوريا ولبنان تحديدا بعد سقوط بغداد واحتلال الولايات المتحدة للعراق، وقد جاءت زيارة وزير الخارجية الأمريكى كولن باول لكلا البلدين فى أعقاب سقوط بغداد ليتوج بها حلقات متواصلة من التهديدات الأمريكية بدأت بشكل ضاغط قبيل انتهاء الحرب الأمريكية ضد العراق شارك فيها كل من الرئيس الأمريكى ووزير الدفاع ومستشارة الأمن القومى ووزير الخارجية أى أعلى المستويات فى الإدارة الأمريكية، كذلك سربت معلومات كثيرة عبر مراكز الأبحاث والدراسات الغربية المرتبطة عادة بمراكز صناعة القرار، وكذلك دبلوماسيين وكتاب غربيين تشير إلى أن سوريا ستكون الهدف التالى بعد العراق.

وبعد هدوء مشوب بالحذر اتضح أن الضغوط الأمريكية لها أهداف عديدة ليس من بينها عمل أى تغييرات على نظام الحكم فى دمشق فى هذه المرحلة، فالرئيس بشار الأسد مقبول غربيا لكن سياسة سوريا الخارجية لاسيما تجاه الصراع العربى الإسرائيلي واستخدام ورقة المقاومة سواء الفلسطينية عبر مكاتب الفصائل المعارضة للتسوية وقادها المقيمون فى دمشق، أو اللبنانية عبر دعم حزب الله تعتبر من عناصر القلق لدى الولايات المتحدة والحكومات الغربية الداعمة لإسرائيل بشكل عام، ومع سعى الولايات المتحدة لترتيب أوراق إسرائيل لاسيما أمنها سيبقى عنصر المقاومة الفلسطينية واللبنانية من أكبر عناصر القلق للولايات المتحدة وإسرائيل، وإذا كانت الدول العربية

الأخرى قد وقعت اتفاقيات تضمن بها أمن إسرائيل فينبغى ــ حسب مطالب أمريكا وإسرائيل ــ أن تدخل سوريا ولبنان فى هذه الدائرة لذلك رغم إدراك أمريكا التام بارتباط الملف اللبنانى بالسورى إلا أن باول حرص على أن يقوم بزيارة مستقلة للبنان تحمل دلالات كثيرة، ومع أن هذا الملف كان هو الأبرز إعلاميا لكن هناك ملف أهم كان وراء الهجوم الأمريكى القوى على سوريا من قبل أعلى المرجعيات الأمريكية وهو ملف العراق، ولعلنا نذكر أن وزير الدفاع الأمريكى تحديدا كان هجومه على سوريا مقرونا بإيران قبيل انتهاء الحرب لأن الهاجس الذى يقلق الأمريكيين ويخيفهم بشكل كبير ليس القضية الفلسطينية التى مضى على أزمتها خمسة وخمسون عاما ويمكن أن تعيش مثلهم دون حل، لكن الهاجس الأكبر كان هو المقاومة العراقية للقوات الأمريكية المحتلة الآن للعراق والتى بدأت مع أول يوم للاحتلال، فقد سقطت العراق فى أيدى الأمريكيين فى نصر دون حرب أو خسائر حقيقية، وتبقى المخاوف من تصاعد المقاومة العراقية ونموها بشكل مقلق ضد القوات الأمريكية يشكل مخاوف أمريكية حقيقية بل هى العنصر الأكثر اهتماما، وكل مقاومة بحاجة إلى دعم لوجستى ومناطق حماية خلفية، ومراكز انطلاق، وتعتبر سوريا وإيران هى المرشح الأساسى لذلك - حسب المفهوم الأمريكى، فالحدود على كلا الجانبين يصعب السيطرة عليها مع تداخل عرقى وقبلى فى سوريا ومساحات حدودية واسعة فى إيران، يمكن أن تشكل منطلقا لمقاومة قوية، كما أن إيران حرصت على ألا تكون طرفا فى أى مواجهة مع أمريكا انتظارا لما سوف تسفر عنه المخططات الأمريكية، فالشيعة فى جنوب العراق يشكلون امتدادا طبيعيا يمكن أن تشعل من خلاله إيران مقاومة أشبه بمقاومة حزب الله فى جنوب لبنان وسيكون من الصعب على القوات الأمريكية مهما بلغت طاقتها أن تلاحق المقاومين لاسيما إذا اتخذوا من مستنقعات شط العرب ملاذا ومنطلقا لعملياتهم، تلك المستنقعات التى فشل صدام بمساعدة أمريكية من السيطرة عليها طوال سنوات الحرب العراقية الإيرانية بسبب ضحالة المياه وارتفاع الغاب الذى يساعد على الاختباء، أما سوريا فحدودها مع العراق مختلطة عرقيا مع قبائل المنطقة وقد لاحظت أن سكان المناطق الحدودية السورية من الصعب تمييز لهجتهم عن اللهجة العراقية، وطالما أن القبيلة والعشيرة لازالت تلعب دورا فى التركيبة الاجتماعية فى هذه المناطق،

فإن سلطة الدولة تخف وتكون سلطة العشيرة هى الأقوى وهذا ما تحاول أمريكا أن تلعب عليه الآن فى العراق.

إذن فالمخاوف الأمريكية الحقيقية من سوريا ليست من جانب الفصائل الفلسطينية وحزب الله فى هذه المرحلة بقدر ما هى مخاوف من مقاومة عراقية تتخذ من الأراضى السورية قاعدة خلفية لها لاسيما وأن المتطوعين السوريين شكلوا العدد الأكبر من بين المتطوعين العرب الذين ذهبوا للعراق من أجل المشاركة فى الحرب، حيث سمعت عن أعداد تتراوح بين ستة آلاف وستة عشر ألف متطوع سورى وهذا أزعج الأمريكيين إلى حد كبير لاسيما وأن غالبية هؤلاء كانوا من أبناء المناطق الحدودية التى يصعب دائما السيطرة عليها، إن مخاوف أمريكا كبيرة من مستقبل مجهول يمكن أن يشوش أو يدمر مخططاتها وبقائها فى العراق اسمه... المقاومة.

ورطة بوش وبلير بعد سقوط بغداد

"الجميع يعتقد أننا مثل الممثل توم كروز، ولكننا لسنا كذلك، نحن لا يمكننا البحث فى كل غرفة نوم والتنصت على كل محادثة.. اللعنة.. نحن لا يمكننا حتى التنصت على بعض الهواتف الخليوية الجديدة التى يستخدمها الإرهابيون" كان هذا ما صرح به جورج تينيت مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية "سى آى إيه" أثناء اجتماع عقد فى مكتبه مع مسئولين أمريكيين آخرين للبحث عن أدلة تثبت أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل، حيث طالب الديمقراطيون من قبل فى بداية يونيو 2003 فى الكونجرس بإنشاء لجنة مستقلة للتحقيق فى الأدلة الواهية التى قدمتها حكومة بوش من أجل شن حربها على العراق بعدما "ذهبت السكرة وجاءت الفكرة" وبدأ الأمريكيون يدفعون ثمن التواجد فى أرض لم ينجح حتى أبناؤها فى حكمها باستقرار على مدار التاريخ، ومع ارتفاع الأصوات التى تؤكد أن إدارة بوش خدعت الشعب الأمريكى وممثلى الشعب كما أن خطاب الحجج الذى قدمه وزير الخارجية الأمريكى كولن باول إلى مجلس الأمن وصفته مجلة "نيوزويك" الأمريكية فى عدد 9 يونيو 2003 بأنه كان "واهيا وهزيلا وقائما على التخمينات وغير مدعوم وعديم المصداقية" وقد جاء هذا مع تقرير نشرته صحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية يوم الخميس 5 يونيو 2003 قالت فيه أن ديك تشينى نائب الرئيس الأمريكى زار مقر وكالة المخابرات المركزية الأمريكية "سى آى إيه" بشكل متكرر هذه السنة بصحبة مدير مكتبه لويس ليى ونقلت الصحيفة عن أحد كبار المسئولين فى السى آي إيه قوله أن زيارات تشينى وليى "كانت تحمل مؤشرات بقصد أو بغير قصد بأن هناك رغبة فى صدور نتائج معينة من هنا" وقد بذل الأمريكيون منذ سيطرتهم على العراق فى التاسع من إبريل الماضى جهودا كبيرة من أجل إيجاد دليل واحد على صدق ما ادعوه لكنهم لم يجدوا حتى أنهم

سعوا لتقديم رشاوى على شكل هدايا لعلماء عراقيين حتى يقدموا لهم أى دليل يخرجهم من هذا المأزق دون جدوى حتى أن صحيفة "لوس أنجلوس تايمز الأمريكية" نقلت عن الجنرال العراقى السابق علاء سعيد الذى قام فريق من المخابرات البريطانية بالتحقيق معه "أنه سيكون سعيدا بالحصول على الجائزة التى حددتها أمريكا لكل شخص يقدم لها معلومات عن أسلحة الدمار الشامل والتى تقدر قيمتها بمائتى ألف دولار وأكد على أنه لن يستطيع أن يقدم أى شيء للأمريكيين لأنه ليس هناك شيء موجود ليقدمه" وقد اتهم كثير من أعضاء الكونجرس حكومة بوش بأنها خدعت الشعب وممثليه لأنها لم تقدم أدلة حقيقية على مزاعمها بشأن شن الحرب وبعد سقوط بغداد لم تستطع طوال شهرين أن تقدم أى دليل.

وموقف تونى بلير رئيس الوزراء البريطانى لايقل خطورة وحرجا عن موقف حليفه بوش حيث تواجه حكومته الآن تحقيقين أحدهما سرى والآخر علنى لكشف حقيقة الحجج الواهية التى قدمتها حكومته والتى اتضح سابقا أن التقرير الخطير الذى قدمه للبرلمان لم يكن سوى تقرير مسروق من طالب عراقى عجزت كل أجهزة حكومته حتى على صياغة مثله ورغم هذه الفضيحة الكبرى التى وصفت بأنها يمكن أن تكون "ووترجيت" التى ستعصف بحكومة بلير لكن بلير مع ذلك نجا من أكثر من اقتراع بحجب الثقة عن حكومته إلا أن حملة الصحف البريطانية عليه لم تتوقف حيث تواصل صحيفتى "الإندبندنت" و"ديلى ميرور" على وجه الخصوص حملة كبيرة ضد بلير وأدلته الكاذبة التى قالت عنها الإندبندت فى عنوان رئيسى "فضيحة أسلحة العراق" وعنوانا آخر يقول "بريطانيا تتحدى بلير.. اكشف لنا الأدلة" أما الـ "ديلى ميرور" فقد أكدت أن جنودا أرسلوا للبحث عن أدلة للدمار الشامل فى العراق فقاموا بتفتيش 87 موقعا و لم يعثروا على شيء، ورغم وجود أكثر من 1400 خبير بريطانى وأمريكى يقومون بالتحقيق الآن مع كل عراقى كان له صلة من قريب أوبعيد بالصناعات المتعلقة بأسلحة الدمار الشامل، إلا أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى دليل واحد رغم أنهم عرضوا مبالغ طائلة فى محاولات للحصول على معلومة تخرجهم من عملية التضليل التى قاموا بها لشعوبهم وللعالم من أجل شن الحرب حتى أن أحد الباحثين قال: "لقد قلنا لهم إننا أعطيناهم كل شيء أما النقود التى يعرضونها علينا فإنها لا تعنى شيئا لأن الحقيقة لن تتغير".

لقد فتحت الملفات فى أمريكا وبريطانيا الآن بعدما اعتقد بوش وبلير أنهما حققا كل شيء بسقوط النظام العراقى، لكنهما مطالبان الآن بتقديم مسوغات للحرب التى شنوها لشعوبها ولممثليها ولجنودها الذين يصفون مايلاقونه فى العراق بأنه باب من أبواب جهنم وأصبح كثيرون منهم يتساءلون لماذا نحن هنا؟، لكن الحقيقة التى يراها الجميع الآن وعلى رأسها كثير من وسائل الإعلام الأمريكية والبريطانية هى أن الأدلة على أسلحة الدمار الشامل لم تكن سوى حملة من التضليل والخداع الشامل، وقد تفاقمت أزمة تونى بلير فى أعقاب انتحار خبير الأسلحة البريطانى الدكتور ديفيد كيلى حيث شكلت لجنة تحقيق مثل أمامها معظم كبار الأعضاء فى حكومته وأذكر أنى على مدى ثلاثة أسابيع لم أنجح فى إقناع أى من المسئولين فى حكومة رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير الذين يتعاملون مع وسائل الإعلام من وزراء الدولة فى المشاركة معى فى برنامج "بلاحدود" من أجل الكشف عن ملابسات التحقيقات التى كانت جارية والتى وصلت إلى رئيس الوزراء تونى بلير الذى أدلى بشهادته يوم الخميس 28 أغسطس 2003 أمام لجنة التحقيق فى انتحار خبير الأسلحة البريطانى الدكتور ديفيد كيلى، فبريطانيا كلها كانت تترقب ما سوف تسفر عنه التحقيقات لاسيما وأن تونى بلير أعلن أنه لو صح تقرير هيئة الإذاعة البريطانية لقدم استقالته، فيم تصر هيئة الإذاعة البريطانية على صحة ما بثته وتقف بقدها وقديدها خلف مراسلها لشئون الدفاع أندرو جيلغان الذى نشر قصة تلاعب الحكومة فى تقرير تحدث عن قدرات العراق فى مجال الأسلحة الكيماوية لم يثبت حتى الآن صحته، أما الطرف الثالث فهى وزارة الدفاع حيث أن وزير الدفاع جيف هون يحاول التنصل من الاتهامات ويريد تثبيتها على كبير مستشارى تونى بلير "أليستر كامبل" الذى أصبح حديث المجتمع البريطانى منذ تفجر الأزمة ثم أصبح فى "الموقف الذى لا يحسد عليه أحد" كما وصفه عنوان رئيسى لصحيفة "التايمز" البريطانية، هذا المشهد الدائر لصراع بين ثلاثة أطراف سوف يؤدى فى النهاية إلى انتصار طرف فيما ستدفع الأطراف الأخرى ثمنا باهظا، علما بأن الأطراف الثلاثة فى مفهوم العالم الثالث هى حكومية، لكن لديها من الحرية والأمان ما يجعلها تقف وتتحدى القوة الأكبر وهى رئيس الوزراء هذا بالنسبة للبى بى سى أو وزارة الدفاع حتى أن هناك موظفين كبارا فى مكتب رئيس الوزراء أدلوا بشهادات ضده مثل جوناثان باول رئيس هيئة موظفى مقر رئاسة الوزراء الذى كشف فى

شهادته التى أدلى بها فى 18 أغسطس 2003 أمام لجنة التحقيق "أنه وأليستر كامبل مستشار بلير الإعلامى لعبا دورا بارزا أو ساعدا فى صياغة بيان إعلامى وزعته وزارة الدفاع البريطانية ساهم فى شكل رئيسى فى دفع الدكتور ديفيد كيلى إلى الانتحار بعد كشف اسمه أمام الرأى العام" كما وصفت رسالة بريد إلكترونية تصدرت صدر الصحف البريطانية وكان مصدرها الناطق باسم تونى بلير توم كيلى وحصلت لجنة التحقيق على نصها ما دار من جدل داخل مجلس الوزراء حول هذا الموضوع جاء فيها: "الآن أصبحت لعبة بين الدجاجة والبى بى سى والوسيلة الوحيدة التى ستجبر البى بى سى على التراجع هى زيادة الضغوط عليها".

ورغم أن "أليستر كامبل" مستشار بلير الإعلامى نفى عدة مرات أبرزها حينما استجوب أمام لجنة التحقيق فى 19 أغسطس أن تكون له علاقة فى صياغة ملف أسلحة الدمار الشامل أو الفقرات المثيرة للجدل فيه، إلا أن رئيس الوزراء تونى بلير قال حينما وقف يوم الخميس 28 أغسطس أمام لجنة التحقيق ساعتين واثنين وعشرين دقيقة أجاب خلالها على كم هائل من الأسئلة أصر على أن "أليستر كامبل" مدير اتصالاته "تدخل فى لغة التقرير حول الأسلحة، وأعطى رأيه فى ما يجب أن يتضمنه أولا، لكن ذلك لا يلغى القول بأن التقرير كان من عمل اللجنة المسئولة عن شئون الاستخبارات بالشكل المطلوب" وحينما سئل بلير حول قرار الكشف عن الدكتور ديفيد كيلى كمصدر للمعلومات التى بثتها بى بى سى قال: "كان واضحا أثناء لقاء مع مستشاريه أن ديفيد كيلى كان مصدر المعلومات التى استند لها تقرير بى بى سى وأننا رأينا حينها أن الوقت حان لإبلاغ النواب والرأى العام بأن موظفا فى وزارة الدفاع تقدم ليعلن بأنه مصدر معلومات بى بى سى.. لقد كان الانفتاح هو الخيار الأفضل من خلال قول ما نعرفه".

وأمام نفس اللجنة وفى نفس اليوم أدلى غافين دافيز رئيس مجلس أمناء بى بى سى بشهادته حول تقرير البى بى سى وقبله بيوم أدلى وزير الدفاع بشهادته، ووسط هذا الجو الذى يكشف حجم الشفافية التى يجب أن يعرفها الشعب وكيف أنه طالما هناك حكومة منتخبة فيجب أن يكون كل شيء أمام الشعب الذى انتخبها وسط هذه الأجواء إما أن تثبت البى بى سى مصداقيتها وحينئذ على بلير أن يستقيل كما أعلن

حينما أعلن شهادته وإما أن يثبت العكس ويبقى بلير ويضحى بمستشاره الإعلامى "أليستر كامبل" باعتبار ذلك أقل الخسائر وقد قدم كامبل بالفعل استقالته فى 29 أغسطس لكن ذلك يبدو ليس كافيا وربما يضحى بلير أيضا بوزير دفاعه "جيف هون"، لكن أيا كانت النتائج فهناك ورطة يعيشها بلير ربما تؤدى فى النهاية إلى القضاء على مستقبله السياسى.

أما بوش فإن وضعه ليس أفضل من حليفه بلير بعدما طالب زعيم الأغلبية فى الكونجرس تقديم مبررات لبقاء القوات الأمريكية فى العراق إن كلا الرجلين فى ورطة ليس فى العراق فحسب وإنما فى كل من لندن وواشنطن.

بوش "معتوه مجنون" وبلير "أحمق وأبله"

على العكس تماما من الصورة التى ظهر بها الرئيس الأمريكى جورج بوش وحليفه رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير أمام العالم يوم 10 يوليو 2003 فى العاصمة الأمريكية واشنطن كقائدين يسيران مصير العالم وفق معتقداتهما وقيمهما المشتركة، بدا الرجلين فى صورة أخرى على "مسرح الفنون" فى "ليستر سكوير" فى العاصمة البريطانية لندن، حيث عرضت مسرحية "جنون جورج دوبيا..." التى كتبها وأخرجها المسرحى البريطانى جاستن بوتشر، وقد عالجت المسرحية بشكل رائع السياسة الأمريكية البريطانية تجاه الدول العربية بأسلوب ملىء بالإنصاف والتقدير للعرب من خلال أسلوب تهكمى هزلى على الرجلين اللذين يكذبان إلى اليوم على العالم وهما جورج بوش الذى قام بدوره الممثل آلان بلايتون حيث تقوم المسرحية على وصفه بـــ "المعتوه والجبان والجاهل وشديد النسيان" أو تونى بلير الذى قام بدوره الممثل توم جورج حيث تقوم المسرحية على وصفه بـــ "الأحمق والأبله"، وبدا بلير منقادا دون وعى أو تفكير وراء حليفه جورج بوش حتى أنه قال لمساعديه أثناء مناقشتهم له واعتراض بعضهم على الانقياد البريطانى الكامل للولايات المتحدة مفسرا هذا بقوله: "هل نسيتم الاتفاقية التى وقعناها مع حلفائنا الأمريكان والتى تقوم على أنهم يصدرون الأوامر ونحن ننفذ، ومن ثم فإن أيدينا مقيدة".

تتلخص فكرة المسرحية فى ظهور الرئيس الأمريكى -الذى يحتضن دميته طوال الوقت ويبدو مساعديه حوله يرتدون ثياب عصابات المافيا- وهو فى حلم مرعب يقوم على أن كارثة توشك أن تقع بعد أن أصدر آمر قاعدة عسكرية أمريكية فى بريطانيا أوامره للطائرات الأمريكية بضرب العراق بالأسلحة النووية بعدما هيأ له فى أحد

نوبات السكر أن صدام حسين قد قام بتسميم مصادر المياه فى الولايات المتحدة، وحدد القائد الأمريكى الأهداف الأساسية للطائرات بأنها تتلخص فى المتاحف والآثار البابلية وبشيء من الإيحاء والجهل مدينة الموصل التى تقع شمال فرنسا تأديبا لشيراك الذى يعطل عمل الأمم المتحدة.

يعلم الضباط البريطانيون فى القاعدة بما قام به القائد الأمريكى فيسرعون بإبلاغ تونى بلير الذى يجتمع مع مساعديه من أجل السعي لإيقاف مهمة الطائرات الأمريكية، خوفا من اندلاع حرب عالمية ثالثة لكن الورطة الكبرى تحدث حينما ينتحر آمر القاعدة الأمريكية الذى أصدر الأمر للطائرات وهو الوحيد الذى يحتفظ بالشفرة التى أبلغ بها الطيارين كما يعجز بلير عن الاتصال ببوش حيث أبلغه مساعدوه أنه نائم، فى هذه الأثناء يظهر الممثل روبرت ماسون الذى يقوم بدور ديبلوماسى عربى استدعاه بلير من أجل بحث الأمر معه، وربما للمرة الأولى التى أرى فيها ممثلا غربيا يقوم بدور مشرف لشخصية عربية فالعرب يظهرون دائما فى الأفلام والمسرحيات الغربية بصورتهم المتهافته الضعيفة المتخاذلة وواقعهم دون شك هو السبب وراء هذه الصورة لكن روبرت ماسون كان شكلا آخر نتمنى أن نراه فى الدبلوماسيين والمسئولين العرب، فقد كان، يرفع صوته بشكل كبير على بلير ويوبخه على سياسة الكيل بمكيالين التى تتبعها أمريكا وبريطانيا، "وحينما طلب منه بلير أن يطلب من العراق التدخل بسرعة لإسقاط الطائرات الأمريكية فور دخولها الأجواء العراقية حتى لا تنشب حرب عالمية ثالثة يقول له" كيف يسقطوها وقد جردتم العراق من كل شيء " ثم يسرد حجم ما تعرضت العراق من مآسى على أيدى البريطانيين منذ استيلائهم على العراق بعد الحرب العالمية الأولى وحتى وصول البعث على أيديهم إلى السلطة ثم ما تعرض له الشعب العراقى من حصار بدعوى محاصرة صدام الذى قال لبلير عنه " إنه ولدكم ودميتكم التى صنعتموها " وقد كان سرد الممثل البريطانى روبرت ماسون دقيقا وأمينا ومذهلا وتثقيفيا، هنا يأتى بوش ورجاله ثم تظهر عاملة النظافة فى مكتب القائد الأمريكى وهى الممثلة ليندوسى إليس التى اختاروا لها اسما عربيا هو ياسمينا وقد قالت فى أول المسرحية حينما ظهرت أن نصفها فلسطينى أما نصفها الآخر فيمثل مآسى العالم، تظهر ياسمينا وقد ارتدت حزاما ناسفا وفاجأت بوش وبلير بأنها لديها الشفرة التى توقف القصف النووى للعراق حصلت عليها حينما كتبها القائد على ورقة، أثناء

تنظيفها لمكتب القائد قبل انتحاره، وقالت لهم إنها لن تمنحها لهم حتى يحققوا مطالبها أو سوف تفجر نفسها فى الجميع ومعها الشفرة، ثم تبدأ فى تلاوة مطالبها المطلب تلو الآخر: الأول هو إقامة دولة فلسطينية والثانى هو: منح الاستقلال للشيشان، والثالث هو: توقيع الولايات المتحدة على اتفاقية كيوتو والرابع: هو أن تحول الولايات المتحدة المليار دولار التى تنفقها يوميا على التسلح على علاج الإيدز فى إفريقيا وأن تنضم إلى المحكمة الجنائية الدولية، وكان بوش وبلير بعد كل مطلب يفكران أو يعترضان وحينما تهدد ياسمين بتفجير نفسها ومعها الجميع والشفرة كانوا يستجيبون مما دفع من حول بوش إلى أن يقوموا فى النهاية بحقنه وإلباسه الثوب الأبيض كناية عن جنونه.

المسرحية تستحق التقدير والممثلون كذلك لأنها تصحيح منصف لصورة العرب فى أذهان الغرب من ممثلين بريطانيين ينصفون الحقيقة، والمسرح كل يوم ممتلىء عن آخره لاسيما بالسياح الأمريكيين الذين يشاهدون صورة رئيسهم فى فكر المسرح البريطانى، أهم ما فى هذه المسرحية الجادة والساخرة فى نفس الوقت أنها تفضح المسرح العربى والممثلين العرب الذين تفرغ معظمهم إلى التهريج المسرحى وليس التمثيل وعجزوا عن التعبير عن قضايا أمتهم عبر أحد أهم الوسائل وهو المسرح.

صناعة الفزع فى نفوس العالم

"إننى أخشى وأنا أتحدث إليكم الآن أن يكون ورائى أحد الإرهابيين" هذا ما تحدث به وزير الدفاع الأمريكى دونالد رامسفيلد وهو بين جنوده داخل قاعدة الدوحة الأمريكية فى الكويت أثناء زيارته لقواته بعد نهاية الحرب فى يونيو من العام 2003، ورغم أن هذا التعبير يحمل إهانة واضحة للدولة التى فتحت أبوابها لقواته، إلا أن الرجل الذى أصفه ويصفه كثير من الكتاب بوصف "الوزير المهزوز" يعيش حالة من الرعب الدائم ويبدوا أنه كما قال الدكتور عبد الله النفيسى فى زاويته "عدسة مجهر" يوم الاثنين 10 يونيو 2003 يعانى من "داء عصبى يبدو فى ملامح وجهه وأسلوب كلامه جعله يعيش حالة من الفزع الدائم أعاش فيها الشعب الأمريكى ويسعى الآن لكى يفرضها على العالم كله"، ومن يتابع مؤتمراته الصحفية يرى العجب العجاب، فما أن غادر منطقة الخليج إلى الهند وباكستان فى نفس الجولة حتى أدلى فى دلهى بتصريحاته المرعبة للهنود عن وجود لتنظيم القاعدة فى كشمير لكنه حينما ذهب إلى الباكستان تراجع بشكل مخز عن تصريحاته السابقة حول تنظيم القاعدة وقال دون خجل إنها معلومات استخباراتية ليست دقيقة، وفيم كان هو فى شبه القارة الهندية يبث الفزع فى نفوس ما يقرب من مليار نسمة، كان روبرت زوليك الممثل التجارى الأمريكى يبث الرعب فى نفوس أوروبا أثناء زيارة كان يقوم بها لألمانيا فى نفس الوقت من أجل إحياء ذكرى الصداقة الألمانية الأمريكية، وقد نشرت صحيفة الفاييننشال تايمز البريطانية فى عددها الصادر فى 11 يونيو 2003 نص كلمة زوليك وكان مما جاء فيها: "إن الأمريكيين يجدون من الصعب فهم الزعماء الأوروبيين الذين يهرعون إلى الميكروفون لانتقاد أمريكا على حبسها لسافكى الدماء من جماعة طالبان أو القاعدة لمجرد رؤيتهم صورة وليس لاعتمادهم على الحقائق، نحن لا نتحدث هنا عن معارضين

سياسيين بل عن قتلة بالجملة، لذلك أقول للحمائم أو الخائفين ممن ينتقدون أمريكا بأن أمريكا ماضية فى الدفاع عن نفسها والذى نعتقد أنه فى صالح أوروبا أيضا" وهذا الأسلوب الفظ من زوليك يعكس حجم الهوة بين أوروبا والولايات المتحدة لا سيما بعد الإهانات التى وُصف بها بوش أثناء زيارته لأوروبا فى تلك الفترة والتى ووجه فيها بتظاهرات صاخبة من الأوروبيين الذين اصبحوا يرفعون أصواقم برفض الوصاية الأوروبية عليهم والتى كانت واضحة فى العبارة الأخيرة لزوليك حتى أهم وصفوا بوش بأنه "قبضاى " أما الكاتب البريطانى البارز روبرت فيسك فقد انتقد نفس السياسة فى عدد الأربعاء 12 يونيو 2003 من الإندبندنت البريطانية وقال: "إن حرب بوش ضد الإرهاب سوف تغرق فى أعماق البحر مثل سفينة التيتانيك"، وأضاف فيسك الذى ينتقد السياسة الأمريكية بشدة: "كان من المفروض أن تكون أولا حملة صليبية، ثم أصبحت حرب حضارات وبعد ذلك حربا لا نهاية لها، ومن ثم حرب ضد الإرهاب والآن صدق أولا تصدق وعدنا بوش أن تكون حرب شمشون ضد الإرهاب"، وفى نفس هذه الأوقات كانت هناك حملة مرعبة للشعب الأمريكى حول ما يسمى بالقنبلة الإشعاعية التى زعموا أن أحد الكولومبيين الأمريكيين الذى أطلقوا عليه بعد شهر من احتجازه عبد الله المجاهر ثم غيروه إلى المهاجر، وخرجوا بقصة يصعب على الأطفال أ ن يصدقوها علاوة على أهم كل يوم سوف يغيرون ويبدلون فيها، حول هذا الشخص الذى يحمل سجلا حافلا من الإجرام ولمجرد أنه أسلم فى السجن أصبح الآن يفكر فى صناعة قنبلة إشعاعية يصعب على دول كبرى أن تصنع مثلها لمجرد أنه زار باكستان، وكأن صناعة مثل هذه القنابل مثل صناعة قصور الرمال على الشواطئ، والمشكلة أن الشعب الأمريكى المسكين صدق الأكذوبة الجديدة وفيم كان المسئولون الأمريكيون لم يحددوا بعد هل الشخص اسمه "المجاهر" أم "المهاجر" كانت عشرات المحطات التليفزيونية الأمريكية تساهم فى الجانب الآخر من المهزلة بعمل برامج مفتوحة "توك شو" عن القنبلة الإشعاعية ومخاطرها وكيفية الاحتماء منها، والأدوية المضادة لها وكان الأمريكيون المساكين يسألون بفزع فى هذه البرامج عن كيفية حماية أنفسهم وأطفالهم مما كان يفكر فيه عبد الله "المجاهر" أو يحلم به، فى نفس الوقت كان وزير العدل أشكروفت فى موسكو ورئيس "الإف بى آى" و"السى آى إيه" ومعهم نائب وزير الدفاع الأمريكى يعقدون مؤتمرا صحفيا فى واشنطن، وتساءل الكثيرون عن وجود

بول وولفوتيتز نائب وزير الدفاع فى المؤتمر الصحفى والقضية أمنية استخباراتيه، وكل ما قيل فى هذا المؤتمر عبارة عن عبارات شك واحتمالات لا تحمل أى قيمة لكننا إذا عرفنا جانبا من تاريخ نائب وزير الدفاع وولفوتيتز عرفنا أبعاد ما يحدث، فالرجل قضى سبعة أشهر فى الكيوبوتز فى إسرائيل حينما كان عمره أربعة عشر عاما ويعلم كيف يعمل من أجل إسرائيل من خلال موقعه فى وزارة الدفاع الأمريكية حتى أنه يوصف بأنه من أكثر الصهاينة حماسا لإسرائيل فى الإدارة الأمريكية، لذلك حضر المؤتمر المسرحية دون خحل ما دامت عملية استغفال واستغباء الشعب الأمريكى سهلة، وإذا كان الشعب الأمريكى هو المقصود فيما يحدث فهم أحرار فى الشعب الأمريكى، لكن أن يتم إعاشة العالم فى أكذوبة الخوف والفزع من عدو هلامى مجهول والسعى لاستغفال العالم واستغبائه بهذا الأسلوب الغبى فهذا ما يستدعى من دول وشعوب العالم أن تفيق وترفع أصواتها مثل المحتجين الأوروبيين وأن يحبروا مقالاتهم ضد هذه المهازل مثل فيسك وإلا فكل شعوب العالم سيلحق بها ما لحق بالأمريكيين.

قيادة متغطرسة وشعب جاهل

التقيت فى أكتوبر من العام 2002 فى العاصمة البريطانية لندن مع وزير النفط السعودى الأسبق الشيخ أحمد زكى يمانى، ويمانى من الشخصيات القليلة التى خرجت من مناصبها لكنها لم تخرج من تحت الأضواء فحتى الآن يترقب الغرب آراءه لاسيما وأنه كان أشهر رجل فى وسائل الإعلام الغربية حينما استخدم العرب النفط كسلاح للمرة الأولى والأخيرة أثناء حرب أكتوبر عام 1973، وقد تطرق بنا الحديث حول أشياء كثيرة لكنى عادة ما أسأله حينما ألتقى به من آن لآخر حول آخر ما يقرأ وعادة ما أجده يقرأ آخر الإصدارات الغربية التى تتعلق بمستحدات الأحداث فى العالم، فقال لى لقد وصلنى للتو هذا الكتاب وبدأت القراءة فيه وأنصحك بقراءته وهو كتاب "رجال بيض أغبياء" للمخرج الأمريكى مايكل مور، لم أنس نصيحة يمانى لكنى شغلت كالعادة حتى كنت فى بيروت فى بداية يونيو من العام 2003 أتابع أحدث إصداراتى فوجدت ناشر كتبى "الدار العربية للعلوم" قد نشر الكتاب بالعربية فاقتنيته على الفور وكان رفيقى فى رحلتى التالية إلى لندن، وقرأته دون ملل فرغم الأسلوب الساخر الذى يستخدمه مايكل مور إلا أنه يعكس أشياء كثيرة عن الولايات المتحدة والرجال الذين يحكمونها لاسيما الرئيس بوش الذى حظى بالنصيب الوافر من السخرية والهجوم والنقد اللاذع مع حقائق مثيرة عن كيفية وصوله إلى المكتب البيضاوى الذى أصبح من خلاله يقرر سياسة الولايات المتحدة التى أصبحت القوة الأولى دون منافس، لكن مور حينما يصف الدولة الأولى فإن له تصنيفا آخر لها حيث يقول: "نحن الرقم واحد فى إنتاج النفايات الخطرة.. نحن رقم واحد فى كمية النفايات الداخلية الفردية والإجمالية (750 كج للشخص فى السنة).. نحن رقم واحد فى عدد حالات الاغتصاب المسجلة أكثر بثلاثة أضعاف من أقرب منافس لنا كندا.. نحن رقم

واحد فى إنتاج النفايات الخطرة أكثر بعشرين ضعفا من أقرب منافس لنا ألمانيا... نحن رقم واحد فى احتمال إقدام الأطفال تحت سن الخامسة عشرة على الانتحار بواسطة المسدس" وبعد أن ينتهى من قائمته الطويلة حول تصدر الولايات المتحدة لكثير من الأمور فى العالم يقول: "ألا تجعلنا هذه القائمة نشعر بالفخر لكوننا نحن الأمريكيين ولا أحد غيرنا يتربع على قمة هذه الفئات العديدة" لكن مور يتعرض للسياسات الأمريكية الداخلية والخارجية، ثم يضرب بقوة على وتر حساس وهو وتر اللوبى الصهيونى والدعم الأمريكى آلا محدود لإسرائيل ويطرح خطة لإنهاء ذلك فيقول بجرأة: "يجب أن يبلغ الكونجرس إسرائيل بأن أمامها ثلاثـــين يوما لإنهاء سفك الدماء الذى يرتكب باسمها / باسمنا وإلا فسنقطع عنها الثلاثة مليارات دولار كلها، إن الإرهاب الفردى سيء بما يكفى فكيف بالإرهاب الذى ترعاه الدولة؟" وحول الغنى الفاحش الذى تعيش فيه أمريكا والذى جعلها تهيمن على ربع ثروات العالم يقول مور محذرا: "أصبح من الصعب لماذا نحن الذين نشكل أربعة فى المائة من عدد سكان العالم، والأكثر تعجرفا فيهم ينبغى أن نمتلك أكثر من ربع ثروات الأرض، إذا لم ننتبه جيدا إلى أنفسنا فسيعلم المتشككون والمعارضون الذين يكثرون فى البلدان المضطهدة بأن ثلاثة فقط من أغنى الرجال فى أمريكا يملكون من الممتلكات الشخصية ما يفوق كل ممتلكات البلدان الستين الأكثر فقرا فى العالم" ولا يفوت مور أن يتحدث عن وضع التعليم الذى ضعف مستواه فى الولايات المتحدة فيتحدث عن النفقات الباهظة فى المجال العسكرى وإهمال إصلاح المدارس والإنفاق على التعليم الجامعى مما يدفع الشباب إلى الالتحاق فى الجيش فى سن الثامنة عشرة حتى يحصلوا على تعليم جامعى مجانى، وقد لاحظنا بأن معظم الجنود الأمريكيين الذين شاركوا فى الحرب الأخيرة ضد العراق كانوا من هذه السن يقول مور: "إن الـــ 250 مليار دولار التى خطط البنتاجون لإنفاقها فى عام 2001 من أجل صنع 2800 طائرة مقاتلة جديدة من نوع "جوينت سترايك" أكثر من كافية لدفع رسوم كل طالب جامعى فى أمريكا".

وهناك نقطة هامة تتعلق بوضع المرأة فى الولايات المتحدة التى تضغط على الدول العربية والإسلامية تحت ما يسمى بحقوق المرأة حيث يتناول مور وضع المرأة المزرى فى الولايات المتحدة ويقول حقيقة هامة وخطيرة فى هذا الجانب: "يوجد حاليا خمس نساء فقط فى منصب حاكم ولاية من خمسين ولاية، وتشكل النساء 13% فقط من

عدد مقاعد الكونجرس و496 شركة من أكبر 500 شركة فى أمريكا تدار بواسطة الرجال" ورغم أن مور خص الرئيس بوش بالنصيب الأوفر من النقد اللاذع فى الكتاب ووصف بدقة كيف وصل الرئيس للمنصب بالتزييف فى البطاقات بجرأة ودقة إلا أنه ركز بشكل مثير على غباء الرئيس حينما تحدث عن "أمة غبية" ورغم أن الأمية فى تصورى لا تعنى الغباء مطلقا إلا أنه يقول وهو ينتقد الرئيس بأن هناك 60 مليون أمريكى يعانون من عجز فى القراءة لكنه يتحدث عن استقاء الشعب الأمريكى لثقافته بمعلومات وإحصاءات كثيرة يدلل بها على غبائه ثم يقول: " لم يعد أمرا مستغربا بالنسبة للأجانب أن ينتخب الأمريكيون الذين يجدون متعة بالغة فى غبائهم رئيسا نادرا ما يقرأ أى شيء -بما فيه أوراق أوامره أو معلوماته الخاصة- ويعتقد بأن إفريقيا دولة وليست قارة قائد غبى لأمة غبية.." غير أن مور لم يكتف بهذا وإنما حينما تسلم جائزة الأوسكار كأفضل مخرج أفلام وثائقية لعام 2003 وقف قبيل الحرب الأمريكية الأخيرة على العراق وقال موجها كلامه للرئيس الأمريكي: "نحن نعيش فى عالم زائف انتخب رئيسا زائفا يقودنا لحرب ذات أسباب زائفة.. نحن ضد الحرب يا سيد بوش.. عار عليك.. عار عليك" وحينما انقسم الجمهور إزاء تصريحات مور بين مؤيد ومعارض قال مور لمنتقديه: "أنا أمريكى ولا أستطيع أن أتخلى عن مواطنيتى عندما أقف على هذا المسرح.. ما العظيم فى كونى أمريكيا سوى أنى أستطيع أن أعبر عن أى شيء أفكر به".

ولم يقف الأمر فى هذا الجانب عند ما ذكره مايكل مور فى كتابه وإنما هناك عشرات الدراسات التى تشير إلى حجم الجهل المطبق والغباء الكبير الذى يعيش فيه الشعب الأمريكى من أهمها تلك الدراسة التى نشرتها مجلة ناشيونال جيوجرافيك أشهر المجلات الأمريكية المصورة فى عدد ديسمبر 2002 أظهرت مدى الجهل المطبق الذى يعيش فيه الشعب الأمريكى، فقد ذكرت الدراسة أن ثلاثة وثمانين فى المائة من الشبان الأمريكيين الذين أجرى عليهم الاستطلاع لم يستطيعوا أن يحددوا موقع أفغانستان على الخريطة، ولم يقف الأمر عند أفغانستان التى حاربوها وأسقطوا نظامها ولازال الآلاف من جنودهم على أرضها بل إن دولة حليفة لهم مثل إسرائيل أشارت الدراسة إلى أن أكثر من نصف الشباب الأمريكيين لا يعرفون أين تقع، أما بريطانيا التى لا تعتبر حليفا فقط بل أكثر من حليف ويكاد معظم الأمريكيين البيض ينتمون بجذورهم إليها

فإن أغلبية الشباب الأمريكيين أشاروا إلى إنها تقع فى العالم العربى، كذلك فإن ثلاثين فى المائة منهم لم يتمكنوا من معرفة موقع المحيط الهادى الذى يغطى ثلث مساحة الأرض، ويقع عليه ساحلهم الغربى، ولأنهم يأخذون معلوماتهم من أفلام رامبو ويعيشون حالة من جنون العظمة فحينما سُألوا عن عدد سكان أمريكا قال ثلاثة وثلاثون فى المائة منهم إن عدد سكان أمريكا مليار نسمة فى الوقت الذى لا يزيد فيه عددهم الآن عن مائتين وثمانين مليونا فقط، وكان مستشار الأمن القومى الأمريكى الأسبق زبينو برجينسكى قد ذكر فى كتابه "الفوضى" أن عدد الأمريكيين الذين يعيشون فى جهل تام فى الولايات المتحدة يبلغ ثلاثة وعشرين مليون مواطن، وأن مستوى التعليم فى أمريكا متدن جدا، وهذا ما أكدته أيضا دراسة "ناشيونال جيوجرافيك" حيث جاءت الولايات المتحدة فى المرتبة قبل الأخيرة فى الاستطلاع الذى شمل ثلاثة آلاف شخص تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين عاما وينتمون إلى أكثر الدول التى تتمتع بمستوى عال من التعليم، ولم يأت بعد الولايات المتحدة سوى المكسيك، حيث ثبت من خلال الدراسة أن أكثر دول العالم قوة ليست أكثرها ذكاء وعلما، وأن شعبها هو الأكثر جهلا كما أكدت على ذلك البروفيسورة لارا دريك أستاذة العلاقات الدولية بالجامعة الأمريكية ومديرة المجلس الإستراتيجي لدراسات الشرق الأوسط للشرق الأوسط فى واشنطن فى حوار أجريته معها فى الرابع من سبتمبر 2002 حيث قالت: "إن الأمريكيين هم الأكثر جهلا على هذه الأرض فهم لا يستطيعون تحديد موقع الولاية التى يعيشون فيها على الخريطة، ورغم أنهم فقدوا عشرات الألوف من جنودهم فى فيتنام إلا أنهم لا يعرفون أين تقع، وحينما تمت دعوة الأمريكيين للاستفتاء على تعديل الدستور لم يخبروهم بفحوى التعديل وكان أكثر من نصفهم يعتقدون بأن الدستور هو وثيقة شيوعية، كما أنهم لا يملكون وسائل معلومات عالمية وليس لديهم أطباق لاقطة ليعرفوا ماذا يدور فى العالم، فكل معلوماتهم يأخذونها من وسائل الإعلام الداخلية فقط، وهم معنيون ببرامج التسلية والترفيه ومتابعة أخبار نجوم هوليود وخطف الأطفال والعلاقات الغرامية للرؤساء وما شابه ذلك، ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية لا يشعر الأمريكيون بأن القضايا الخارجية تهمهم أو لها تأثير على حياتهم" وكانت مجلة "نيوز ويك" الأمريكية قد نشرت تقريرا فى عددها الصادر فى 15 أكتوبر 2002 تقريرا تحت عنوان "أمريكا الأمية " قالت فيه:

"إن أربعة وأربعين مليون أمريكى أميون وجهلة لا يعرفون القراءة والكتابة، وأن خمسين مليون أمريكى آخرين لا يستطيعون قراءة أو فهم ماهو فوق مستوى الصف الثامن أى أنهم لا يعرفون معنى التعليمات المدونة على أى نوع من الترياق أو حتى علبة عادية من علب السم المضاد للصراصير فى مطبخك" وقد أخذت "نيوزويك" إحدى مدن أمريكا الكبرى وهى مدينة "ديترويت" التى تقع بها كبرى شركات صناعة السيارات والمدرعات وغيرها، فأكدت أن سبعة وأربعين فى المائة من سكانها أميون عمليا، أى ما يقرب من نصف السكان.

إن هذه المعطيات تقودنا إلى فهم الموقف السلبى للشعب الأمريكى من كثير من الأحداث التى تدور لاسيما حينما ينقادون دون تفكير وراء كل ما تقوله قيادتهم لهم، كما أن الرعب يتلبسهم عند أى تحذير فنجدهم يهرعون مثل الفئران المذعورة كلما أخافوهم حتى يمرروا قرارا من الكونجرس أو يحصلوا على تفويض بشن الحرب على دولة ما، إن خلاصة هذه الدراسات الأمريكية تؤكد على حقيقة هامة هى أن أمريكا ليست سوى قيادة متغطرسة تقود شعبا جاهلا وتسعى لتدمير العالم أو خضوعه وإذعانه لها دون شروط.

الهيمنة على العالم دون ثمن

كانت الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية قوة نامية لكنها لم تكن تتصدر القوى الموجودة على الساحة آنذاك، فالإمبراطورية البريطانية لم تكن الشمس قد غابت عن مستعمراتها بعد، وكذلك كانت ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى ترسخ أقدامها كإمبراطورية أوربية لها مطامعها التي بلورها بعد ذلك هتلر، وكانت مقاصده ظاهرة من خلال الحرب العالمية الثانية، أما اليابان فكانت كذلك لها هيمنتها في شرق الدنيا كإمبراطورية قديمة، وكما قضت الحرب العالمية الأولى على أكثر من إمبراطورية مثل الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية النمساوية فقد قضت الحرب العالمية الثانية على أكثر من إمبراطورية كذلك منها الإمبراطورية اليابانية والبريطانية والمشروع الألماني للهيمنة على العالم، وبرزت كذلك قوتين جديدتين هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي الذي انهار مع نهاية الثمانينيات من القرن الماضي لتبدأ الولايات المتحدة هيمنتها على العالم كقوة وحيدة لا منافس لها في الوقت الراهن على الأقل، ومن يرجع إلى تاريخ نشوء أو انتهاء القوى العظمى يجد الحروب دائما يولد من بعدها قوى وتنتهي أخرى ولعل الحربين العالميتين اللتين نشبتا خلال القرن الماضي كانتا خير مثال على ذلك، وقد استطاعت الولايات المتحدة التي لم تشارك في الحرب إلا في نهايتها أن تبني إمبراطوريتها وقوتها من حيث انتهى الآخرون، فقد تركت القوى التي كانت منافسة لها آنذاك وهي بريطانيا وألمانيا والاتحاد السوفييتي واليابان والقوى المتحالفة من كل طرف، تركت كل هذه القوى تبيد بعضها البعض على مدى سنوات الحرب ولم تعلن الولايات المتحدة حربها ضد ألمانيا إلا بعد تدمير الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر، حتى بريطانيا الحليفة القريبة للولايات المتحدة رفض الكونجرس آنذاك أن يقدم لها أي مساعدات إلا بثمن باهظ تمثل في الموافقة على استبدال خمسين مدمرة

بريطانية بأخرى حديثة مقابل استئجار قواعد بريطانية فى نيوهامبشاير تمتد إلى تسعة وتسعين عاما، وحين حطمت الحرب القوى الكبرى آنذاك وأنهتها عام 1945 بدأت الولايات المتحدة تجنى الثمار، فى مرحلة جديدة للهيمنة على العالم، و لم تدفع الولايات المتحدة طوال الفترة من العام 1945 وحتى الآن ثمنا كبيرا مقابل ما حققته من نفوذ وهيمنة، وكانت تخرج من كل مكان تشعر أنها سوف تتورط فيه أو تدفع فيه ثمنا كبيرا من القتلى والجرحى فخرجت من فيتنام ومن لبنان ومن الصومال ومن كل مكان كان يمكن أن يؤدى بها إلى أن تدفع فيه ثمنا باهظا فيم حققت نجاحات كبرى فى حرب الخليج الثانية دون ثمن كبير، ولعل الورطة الأمريكية فى فيتنام كانت الثمن الأكبر فى كل ما قدم، سعت الولايات المتحدة بعدها إلى أن تنهج نهجا مغايرا يقوم على أن يكون القتال دائما بسلاحها ولكن بيد غيرها فاستفادت من حلفائها وحققت لهم من الانتصارات والفوائد ما كانت تعجز عنه وحدها، وكانت حرب عدوها اللدود الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان ربما المسمار الأخير فى نعش الإمبراطورية السوفييتية حيث أرسلت الولايات المتحدة صورايخ استينجر المضادة للطائرات والمحمولة على الكتف للأفغان والتى ساهمت إلى حد بعيد فى إبعاد شبح تهديد سلاح الجو السوفييتى وإسقاط عشرات الطائرات السوفيتة، علاوة على الأسلحة الأخرى المساعدة والصغيرة مما دفع السوفيت إلى الخروج مهزومين واتضح بعد ذلك أن الولايات المتحدة لم تكلف نفسها سنتا واحدا فى هذه الحرب لأن حلفاءها دفعوا تكاليف كل شيء، وأصبحت الولايات المتحدة الآن فى الساحة تفعل ما تشاء، حيث أشعلت حربا فى الشرق الأوسط استولت فى أعقابها على العراق وأعادت عصور الاحتلال المظلمة مرة أخرى إلى العالم ولا يعرف أحد ما الذى سوف تؤدى إليه من نتائج، ولا أدرى هل نسى القائمون على صناعة السياسة فيها أن الحروب دائما تؤدى إلى نهاية أمم وقيام أخرى، وأن كثيرين أشعلوا الحروب ودخلوها أقوياء ثم انتهوا خلالها لأن غطرسة القوة أعمتهم ودفعتهم إلى الانتحار من حيث لا يدركون، ولعل بلوغ أمريكا كل ما بلغته بثمن بخس وبأموال ودماء الحلفاء هو الذى يدفعها لمزيد من الطمع فى تحقيق المزيد، لكن ما أقلقنى هو الموقف الأوربى والصمت الصينى، فسألت أحد المخضرمين فقال: لا استبعد الموقف المقصود من هذه القوى فالحروب محرقة حتى للذين يشعلونها وهاتان القوتان تنتظران ما سوف تسفر عنه نتائج الاحتلال الأمريكى

للعراق لاسيما بعد تصاعد وتيرة المقاومة وضبابية الرؤية الأمريكية فربما تجر الأحداث أمريكا إلى حتفها وكما قامت أمم وانتهت فبقاء أمريكا إلى الأبد هو درب من دروب الوهم، ومادامت تعتقد جهلا أنها قادرة على كل شيء فمن هنا يأتى المقتل دائما ليس للأفراد فقط وإنما حتى للأمم العظمى وإذا كانت أمريكا قد خرجت من كثير من حروبها منتصرة دون تكاليف باهظة فمن يدرى ربما يأتيها المقتل والنهاية من حيث لا تحتسب لذلك فإن الأوربيين وأقصد ألمانيا وفرنسا تحديدا يريدون لأمريكا أن تتورط وتغرق أكثر من ذلك فى العراق، حتى يستعيدوا أمجادهم من جديد.

سقوط أمريكا فى أوحال العراق

كانت السيناريوهات المعلنة التى روجت لها الإدارة الأمريكية عن حربها التى قامت بها ضد العراق تسير فى اتجاه أن المخطط الأمريكى للحرب سوف يتم تنفيذه بسهولة بالغة، فالرئيس العراقى كان يتمتع بكراهية شعبه، كما أن النظام كان يعيش تحت الحصار منذ اثنى عشر عاما، وبالتالى فهو نظام منهك، علاوة على أنه مجرد من معظم أسلحته الفعالة، كما أن جيرانه يقدمون كافة التسهيلات للقوات الأمريكية كى تقوم بحملتها ضمن دعم مطلق، علاوة على أن الوضع الجغرافى الحالى للعراق يجعلها دولة شبة مقسمة إلى ثلاثة أقسام لا تسيطر الحكومة المركزية على جزئين منهما فى الشمال والجنوب مما سيجعل المعركة الحقيقية هى معركة بغداد، أما ترتيب ما بعد صدام فهناك أكثر من سيناريو له: إما حاكم عسكرى أمريكى مباشر وإما كرازاى بغداد* تحت حراسة أمريكية، أما الشعب العراقى الذى يعيش تحت الكبت ونظام مكروه حسب الوصف الأمريكي فإنه سوف يخرج إلى شوارع بغداد حاملا الورود ليستقبل بها الجنود الأمريكيين المبشرين الجدد بالديمقراطية وحقوق الإنسان.

لكن هناك سيناريو آخر لنتائج الحرب كان يبدو متواريا ولا يتحدث عنه الكثيرون، وهو السيناريو الذى حدث فى حروب وتدخلات أمريكا السابقة فى الدول المختلفة خلال الخمسين عاما الماضية، فرغم الفظائع التى ارتكبتها القوات الأمريكية فى كوريا فى الحرب التى وقعت ببداية الخمسينيات من القرن الماضى جعلت الأمريكيين فى النهاية يتمركزون فى كوريا الجنوبية إلا أن بيونج يانج الآن تحمل أكبر تهديد نووى لأمريكا وحلفائها، وفى فيتنام تجرع الأمريكيون المذلة حتى أنهم كانوا يرجون المقاتلين

* إشارة إلى حامد كرازاى حاكم أفغانستان المعين من أمريكا.

الفيتناميين فى النهاية أن يتفاوضوا معهم للاتفاق على شكل الخروج الأمريكى الذى تحول إلى هروب فاضح من سايجون بعدما خلفوا وراءهم الكثير من العملاء الذى وجدوا أبواب السفارة الأمريكية موصدة أمامهم وهم يحاولون التعلق حتى بإطارات طائرات الهليكوبتر التى حملت آخر أفواج العملاء، ولازال عشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين الذين خدموا فى فيتنام يعيشون كوابيس الحرب هناك، أما ما حدث فى لبنان عام 1983 حينما فجر مبنى المارينز وقتل وجرح المئات من الجنود الأمريكيين فإن كل سيناريوهات البقاء الأمريكي فى لبنان تغيرت فى لحظة وخرج الأمريكيون من لبنان وحينما تدخلوا فى الصومال وأرسلوا ثلاثين ألف جندى فى شهر ديسمبر عام 1992 كانوا ضمن مخطط أمريكى كبيرة للهيمنة على القرن الأفريقي تحت شعار "إعادة الأمل"، إلا أن الصوماليين الحفاة العراة مرغوا أنف أمريكا فى التراب فى الثالث من نوفمبر عام 1993 حينما أسقطوا طائرتين هليكوبتر أمريكيتين من طراز بلاك هوك قتل على إثرها 12 عسكريا أمريكيا وجرح 78 آخرين، فقام الأطفال بجر جثة أحد الطيارين الأمريكيين فى الشوارع ثم تركوها أمام الفندق الذى يقيم فيه المراسلون الأجانب ثم كانت الصورة للطيار القتيل بعد ذلك فى صدر النشرات الأخبارية والصحف الغربية، فأصدر بوش الأب قراره قبل أيام من خروجه من البيت الأبيض بمغادرة القوات الأمريكية للصومال رغم أنها ذهبت لتبقى ضمن مخطط طويل المدى، وبالفعل بعد ستة عشر شهرا فقط من بقائها فى الصومال أعلن الجنرال توماس مونتمجرى قائد القوات الأمريكية هناك رحيل آخر جندى أمريكى عن الصومال فى 25 مارس عام 1994، ومن المصادفات العجيبة أن يكون الكولونيل ماثيو برودريك الذى كان قائد السرية التى أخلت مقر السفارة الأمريكية فى سايجون نهاية حرب فيتنام عام 1975 هو نفسه الذى أطفأ الأنوار فى مقر القوات الأمريكية فى مقديشو فى 25 مارس عام 1994 ليكون شاهد عيان على الهروب الأمريكى من سايجون ومن مقديشو، وفى عام 1996 حينما اتفق صدام حسين مع الحكومة التركية على ضرب مواقع الأكراد فى شمال العراق وتوغلت القوات العراقية بشكل لم يكن متوقعا حمل الأمريكيون عملاءهم فى شمال العراق مع عائلاتهم فى طائرات استأجروها على عجل وقدروا وقتها بحوالى ثلاثة آلاف إلى جزر فى المحيط الهادى تابعة للهيمنة الأمريكية مع فضيحة مدوية لأمريكا آنذاك، وحتى لانذهب بعيدا فهل السيناريو الذى كان

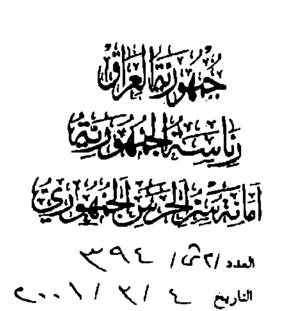
الأمريكيون قد رتبوه للكويت بعد تحريرها قد تم تطبيقه؟ وهل السيناريو الذى رتبوه لأفغانستان قد تم تطبيقه فى ظل الهجمات اليومية التى يتعرض لها الجنود الأمريكيون هناك، والتى قدرت بأكثر من مائة هجوم خلال عام الماضى 2002؟.

ورغم غياب التحليلات التى تشير إلى سيناريوهات الحرب الأخرى وإمكانية تورط أمريكا فى وحول العراق ورطة لاتقل عن ورطاتها السابقة، فقد أشارت مجلة "يو إس نيوز آند وورلد ريبورت" الأمريكية فى عددها الذى صدر فى 10 فبراير 2003 إلى أحد هذه السيناريوهات الأخرى المضادة لنتائج الحرب ووضعت ستة احتمالات هى:-

1. أن يقوم العراق باستخدام أسلحة لا تتوقعها القوات الأمريكية فتوقع لها إصابات بالغة.
2. وأن تقوم معركة دموية داخل بغداد.
3. أو أن يقوم العراق بحرق آبار النفط.
4. وأن يستخدم المدنيين كرهائن أو دروع بشرية.
5. أو أن يقوم بنقل الأسلحة المحظورة إلى جماعات إرهابية.
6. أو أن تعم العراق فوضى ضاربة بعد سقوط النظام تمنع الأمريكيين من الهيمنة عليه لاسيما وأنها دولة عريقة فى الاضطرابات منذ مئات السنين.

ولعل اندلاع المقاومة وغياب الأمن وعجز القوات الأمريكية عن حماية نفسها خسائرها اليومية فى القوات والعتاد كل هذا أصبح يقود إلى حقيقة واحدة أن أمريكا بالفعل قد سقطت فى أوحال العراق.





سري وشخصي

العدد/ ٣/ج ٣٩٤

التاريخ ٤ / ٣ / ٢٠٠١

إلى/ السيد رئيس أركان الحرس الجمهوري

الموضوع/ **معلـــــومات**

كتاب رئاسة الجمهورية – السكرتير سري ١٤٦٨ فـــــــــــــــي ٢ آذار ٢٠٠١ نرفق صورة المعلومات الواردة إلينا عن زيارة وزير الدفاع الروسي أيكور سيرجيف إلـــى ايران وآفاق التعاون بين الطرفين ٠

للتفضل بالاطلاع ٠٠٠ مع التقدير

المرفقات

(١) صورة معلومات

الفريق الركن

كمال مصطفى عبد الله

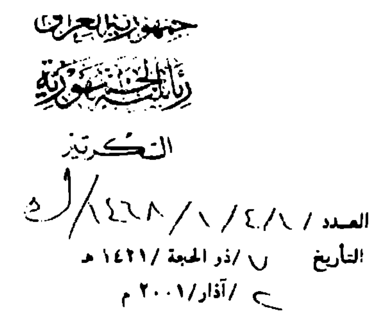
أمين السر العام للحرس الجمهوري

آذار ٢٠٠١ م

سري وشخصي



سري



جمهورية العراق

رئاسة الجمهورية

السكرتير

العدد / ٨/٤/ ١ / ١٤٦٨/ ل

التاريخ ٧ /ذو الحجة /١٤٢١ هـ

٢ /آذار/٢٠٠١ م

٦٨

٢٠٠١/٣/٢

السيد وزير الدفاع المحترم

السيد المشرف على الحرس الجمهوري المحترم

السيد مدير الاستخبارات العسكرية العامة المحترم

م /معلومات

نرسل اليكم صورة كتاب جهاز المخابرات ذي العدد/٤٨٤ في ٢٠٠١/٣/١ .

للتفضل بالاطلاع .

مع التقدير .

المرافقات/

صورة كتاب

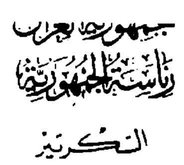
الفريق

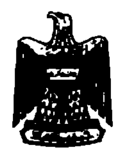
د. عبد حميد الخطاب

سكرتير رئيس الجمهورية

٢ /٣/ ٢٠٠١

ح ج /٣/١





سري

العدد / ٤٧٧٦/ك

التاريخ ٢/ صفر / ١٤٢٢ هـ
٢٦/ نيسان / ٢٠٠١ م

السيد وزير الدفـــــاع المحترم

السيد وزير التصنيع العسكري المحترم

السيد المشرف على الحرس الجمهوري المحترم

م / زيارة الرئيس الأيراني محمد خاتمي الى روسيا

نرسل اليكم صورة كتاب جهاز المخابرات ذي العدد/ ٩٠٠ في ٢٠٠١/٤/٢٤ وصورتي مرافقيه .

للتفضل بالأطلاع على ماجاء فيها ... مع التقدير .

المرافقات

صورة كتاب ومرافقيه



الفريق

د. عبد حميد الخطاب

سكرتير رئيس الجمهورية

٢٠٠١/٤/٢٦

نسخة منه الى

السيد مدير الأستخبارات العسكرية العامة المحترم / نرسل اليكم صورة الكتاب آنفاً ومرافقيه ، للغرض نفسه .. مع التقدير .

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق
رئاسة الجمهورية
السكرتير



٥٢٦
٢٠٠١/٨/٢٩

سري للغاية وشخصي

العدد / ٨٧١٧/ك

التاريخ ٩ / جمادى الآخرة / ١٤٢٢ هـ
٢٨ / آب / ٢٠٠١ م

السيد المشرف على الحرس الجمهوري المحترم

السيد وزير الدفاع المحترم

السيد أمين السر العام للقيادة العامة للقوات المسلحة المحترم

م / بيان رأي

نرسل اليكم صورة كتاب قيادة طيران الجيش ذي العدد/ ١١٩٤ في ٢٠٠١/٨/٢٧ .

للتفضل بالأطلاع واعلامنا رأيكم مجتمعاً بشأن ماجاء فيه .

... مع التقدير .

المرافقات

صورة كتاب

الفريق

د . عبد حميد الخطاب

سكرتير رئيس الجمهورية

٢٨ / ٨ / ٢٠٠١

بسم الله الرحمن الرحيم



سري للغاية

بدأت يوم ٢٥ آب ٢٠٠١ وتشير المعلومات الى وقوع خسائر (قتلى وجرحى) لدى الطرفين وقد تم رصد قيام جنود اتراك بقتل (٣) ثلاثة مواطنين اكراد من اهالي قرية (سراب) التابعة لقضاء زاخو دون سبب.

يرجى التفضل بالاطلاع ... مع التقدير.

الفريق الركن
مدير الاستخبارات العسكرية العامة
٥ أيلول ٢٠٠١

نسخة الى

الرفيق عضو قيادة قطر العراق المشرف على الحرس الجمهوري المحترم السيد وزير الدفاع المحترم	}	يرجى التفضل بالاطلاع ... مع التقدير.

سري للغاية

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق
رئاسة الجمهورية
السكرتير



٦٠٧
٢٠٠١/٩/٢٥

سري للغاية وعلى الفور

العدد / ٥٧٥ /٩/ك

التاريخ ٦ / رجب / ١٤٢٢ هـ
٢٤ / أيلول / ٢٠٠١ م

الرفيق عــــزة ابراهيــــم المحترم

الرفيق طـــه ياســـين رمضـــان المحترم

الرفيق طـــارق عزيـــز المحترم

الرفيق علي حسن المجيـد المحـــترم

م / **معلومـــات**

نرسل اليكم صورة كتاب جهاز المخابرات ذي العدد/٢٩٩١

في ٢٣ /٩/٢٠٠١ ،

للتفضل بالأطلاع على ما جاء فيه .

مع التقديــر .

المرافقات

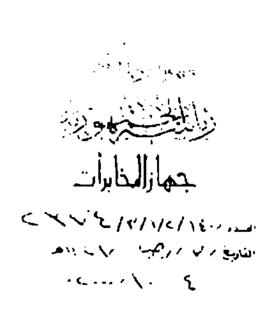
صورة كتاب

الفريق

د. عبد حميد الخطاب

سكرتير رئيس الجمهورية

١٢٠٦٦







إلى / رئاسة الجمهورية ـ السكرتير

الموضوع / معلومات

إلحاقاً بكتابنا سري المرقم بـ ٧٩٢ في ١٩٩٩/١١/٢٧ ، طياً قائمة بمواقع وإحداثيات المنشآت والمصانع الايرانية التي تختص بالأسلحة الكيماوية والبايلوجية والصواريخ.

للتفضل بالاطلاع ... مع التقدير.

المرافقات

قائمة.

مدير جهاز المخابرات

٢ / ٨ / ٢٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق
رئاسة الجمهورية
السكرتير



٦٦٧
٢٠٠١/١٠/٢٢

سري للغاية وعاجل

العدد / ١٩/٥/١/٢٩٢٠-١/ك

التاريخ ٥ / شعبان / ١٤٢٢ هـ

٢١ / تشرين الاول / ٢٠٠١ م

السيد المشرف على الحرس الجمهوري المحترم

م / برقيـــــة

نرسل اليكم صورة برقية سفارتنا في عمان ذات العدد/١١٩ في ٢٠٠١/١٠/١٣ ، وصورة كتاب مديرية الاستخبارات العسكرية العامة ذي العدد/ ٦٥٦٨٧ في ٢٠٠١/١٠/١٨ .

للتفضل بالأطلاع على ماجاء فيهما .

... مع التقدير .

المرافقات
صورة برقية
صورة كتاب

الفريق
د . عبد حميد الخطاب
سكرتير رئيس الجمهورية
٢١ / ١٠ / ٢٠٠١

جمهورية العراق
رئاسة الجمهورية
السكرتير

حافظ على اسرار الناس ،
ولاتضعها في افواه الآخرين ،
لو تستخدم سر صديق عليه .
الرئيس القائد صدام حسين

سري للغاية

١٠٤٣
٢٠٠٢/١١/٧

العدد / ١١٧٧٧/ك

التاريخ ١/ رمضان / ١٤٢٣ هـ
٦/ تشرين الثاني / ٢٠٠٢ م

السيد المشرف على الحرس الجمهوري المحترم

السيد وزير الدفاع المحترم

السيد امين السر العام للقيادة العامة للقوات المسلحة المحترم

م / لقاء

لاحقاً بكتابنا ذي العدد/١١١١٧/ك في ٢٠٠٢/١٠/١٢
نرسل اليكم صورة كتاب مديرية الاستخبارات العسكرية العامة ذي العدد/ ٧٩٨٤٦ في ٢٠٠٢/١١/٥ .
للتفضل بالأطلاع واعلامنا رأي اللجنة الثلاثية بشأن ماجاء فيه .

... مع التقدير .

المرافقات
صورة كتاب

الفريق
د . عبد حميد الخطاب
سكرتير رئيس الجمهورية
/ ١١ / ٢٠٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق
رئاسة الجمهورية
السكرتير



حافظ على أسرار الناس ، ولا تفضحها في أفواه الآخرين ، أو تستخدم سر صديق عليه .
الرئيس القائد صدام حسين

١٠٥٤
١٣/١١/٢٠٠٢

سري وعلى الفور

العدد / ١٣/ ٣/ ٢٢/ ١١٩٥٢/ ل
التاريخ ٨ / رمضان/ ١٤٢٣ هـ
١٢ / تشرين الثاني/ ٢٠٠٢ م

السيد المشرف على الحرس الجمهوري المحترم

السيد أمين السر العام للقيادة العامة للقوات المسلحة المحترم

م / تقرير

نرسل اليكم صورة كتاب وزارة الدفاع ذي العدد/ ط ج / ١٥٣٢٤ في ٢٠٠٢/١١/١٠ مع صورة مرافقه .

للتفضل بأعلامنا رأي اللجنة الثلاثية بشأن الموضوع .

مع التقدير .

المرافقات

صورة كتاب مع مرافقه

الفريق
د . عبد حميد الخطاب
سكرتير رئيس الجمهورية
١٣/ ١١/ ٢٠٠٢

نسخة منه الى/

السيد وزير الدفاع المحترم / اشارة الى كتابكم آنفاً .. للغرض نفسه ..

مع التقدير .

ح ص / ١١/١٢

المؤلف فى سطور

الاسم: أحمد السيد منصور
المهنة: منتج ومقدم برامج.
المؤسسة: قناة الجزيرة الفضائية.

- ولد فى مصر فى عام 1962.
- تخرج من كلية الآداب جامعة المنصورة عام 1984.
- عمل مديرا لإدارة المطبوعات والنشر فى دار الوفاء للطباعة والنشر بين عامى 1984 و1987 وأشرف على إصدار حوالى مائة وخمسين كتابا فى شتى العلوم والمجالات، كما كان يكتب بشكل منتظم فى العديد من الصحف والمجلات.
- انتقل بعد ذلك للإمارات ومنها إلى باكستان حيث عمل مراسلا صحفيا للعديد من الصحف والمجلات العربية بين عامى 1987 و1990 شارك خلالها فى تغطية الحرب الأفغانية حيث نُشر له مئات المقالات والتحليلات وصدر له عن أفغانستان وحدها أربعة كتب من بين مجموعة كتبه التى صدرت حتى الآن هى: مستقبل كابول - وامرأة من أفغانستان - تحت وابل النيران فى أفغانستان - مستقبل أفغانستان وجذور الصراع بين المجاهدين الأفغان.
- انتقل إلى الكويت فى عام 1990 حيث عمل مديرا لتحرير مجلة المجتمع الكويتية حتى بداية عام 1997.
- عايش الغزو العراقى للكويت من أول يوم وبقى فى الكويت طيلة شهرين بعد الغزو وكان من الصحفيين القلائل الذين كانوا فى الكويت وبقوا بعد الغزو هذه الفترة.
- قام بتغطية الحرب فى البوسنة والهرسك خلال نهاية العام 1994 وبداية العام 1995 وعايش حصار سراييفو وأصدر عن تلك الفترة كتابه ــ تحت وابل النيران فى سراييفو.

● انتقل إلى قناة الجزيرة بداية عام 1997 حيث يعمل منتج ومقدم برامج وينتج ويقدم الآن برنامجى "بلاحدود" و"شاهد على العصر".

● صدر له حتى الآن أربعة عشر كتابا منها خلاف ما سبق أضواء على السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط - الاختراق الإسرائيلي للعالم العربى - النفوذ اليهودى فى الإدارة الأمريكية - سقوط الحضارة الغربية رؤية من الداخل - جيهان السادات شاهدة على عصر السادات - أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة - قصة سقوط بغداد، وله أكثر من كتاب تحت الطبع.

● كاتب مشارك فى العديد من الصحف والمجلات العربية.

● عضو فى نقابة الصحفيين المصرية وجمعية الصحفيين البريطانية وصحفيون بلاحدود الفرنسية وجمعية الصحفيين الدولية.

● منتج منفذ للبرامج التى يقدمها بمعنى مسئوليته الكاملة عن وضع خطط البرامج من حيث الموضوعات والضيوف، وكافة مسئوليات الإنتاج علاوة على التقديم.

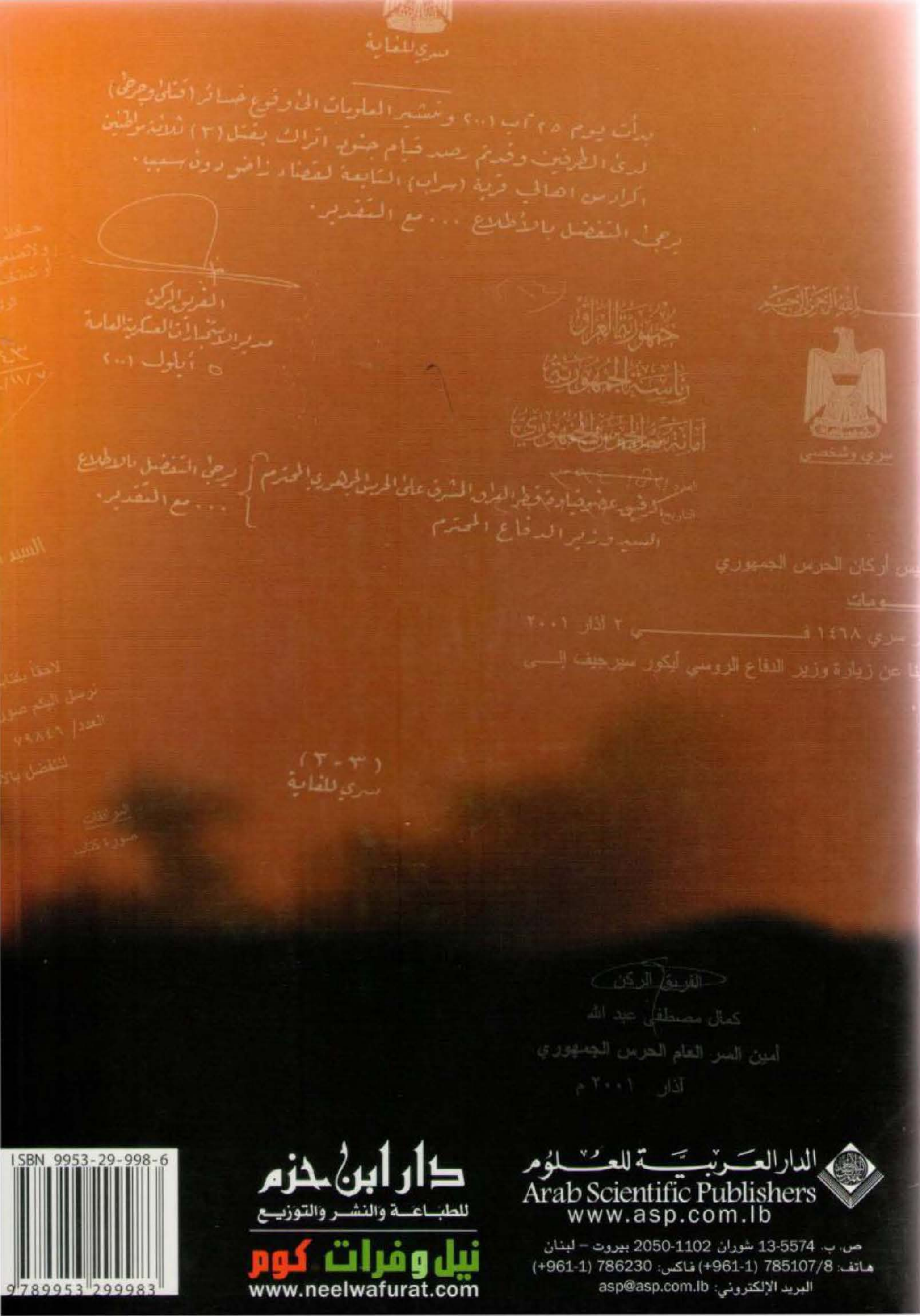
● تقوم فكرة برنامج "بلاحدود" الذى يقدمه على الهواء كل أربعاء على استضافة صناع القرار والمسئولين والخبراء وعمل حوار مباشر معهم وإشراك المشاهدين فى ذلك وقد تمكن كثير من المشاهدين عبر هذا البرنامج من طرح تساؤلاتهم وآرائهم على كثير من المسئولين بينهم رؤساء دول عربية.

● أما برنامج شاهد على العصر فيقوم على استضافة صناع القرار السابقين من رؤساء دول ووزارات ووزراء ورؤساء تنظيمات وحركات سياسية لسماع شهادتهم ومناقشتهم حول الدور السياسى الذى لعبوه خلال الفترة التى كانوا يتولون فيها المسئولية ويكون بمثابة سيرة ذاتيه مشاهدة وقراءة تاريخية جديدة لتاريخ العالم العربى خلال الخمسين عاما الماضية.

● لم يعمل فى أى قناة تليفزيونية قبل قناة الجزيرة وبالتالى فهو أول مقدم برامج تقدمه الجزيرة لمشاهديها قادما من الصحافة المكتوبة.

● عنوان بريده الإلكترونى:

ahmedmansour@aljazeera.net


سري للغاية
جمهورية العراق
رئاسة الجمهورية
الفريق الركن
كمال مصطفى عبد الله
أمين السر العام الحرس الجمهوري
آذار ٢٠٠١ م
الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers
www.asp.com.lb
ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
دار ابن حزم
للطباعة والنشر والتوزيع
نيل وفرات . كوم
www.neelwafurat.com
ISBN 9953-29-998-6
9789953299983